418



المخوزق



A.M.

أشرف فقيه

لم تكد راية السلطان محمد الفاتح ترفرف على الأراضي شمال الدانوب حتى عادت القلاقل تعصف بها. بدأ الأمر حين وُجد والي ولاشيا العثماني، رادو بيك، منهوش الحنجرة في حمّام قصره. تلت ذلك سلسلة وقائع مرعبة تستعصي على الوصف. تهامس الأهالي باسم كونت ولاشيا السابق:
ڤلاد دراكولا، الشهير بالمُخوزِق، والذي لم يدخر وسعاً لدفع المدّ العثماني، إلى أن قُتل سنة ٨٨١ هـ.

"بعث دراكولا من الجحيم، تقمّص الشيطان روحه فعاد لينتقم من الأتراك".

هكذا انتشرت الخرافة، لتؤكدها المزيد من الجثث مثقوبة الأعناق. وحين بدأت تلك الجثث تغادر قبورها لتلتحق بجيش سيدها الشيطاني، لاحت في أفق البلقان ثورة محركها الرعب الأعمى، وخرافات العوالم السفلية.
عندها، قرر السلطان محمدٌ أن يرسل تابعه الموهوبَ، أورهان إفندي، ليكشف حقيقة الخرافة.. ويهدم أسطورة دراكولا المُخوزِق.



ISBN 978-2-84409-626-5








كتابنا القادم

عبد الحميد جوده السحار

المُخَوزِق

أشرف فقيه



هذه الرواية

لم تكد راية السلطان محمدٍ الفاتح ترفرفُ على الأراضي شمالَ الدانوب، حتى عادت القلاقل تعصف بها. بدأ الأمرُ حين عُثر على والي ولاشيا العثمانيّ، رادو بيك، منهوشَ الحنجرة في حمّام قصره. تلَت ذلكَ سلسلةُ حوادث تستعصي على الوصف.

تَهامَس الولاشيون باسم أميرهم الأخير؛ ڤلاد دراكولا، الشهير بالمُخوزِق، والذي لم يدّخر وسعاً لدفع المدِّ العثماني عن عرشه، إلى أن ضُرب عنقه أخيراً عام 881هـ (1476م).

"بُعث الكونت من الجحيم.. تقمّص إبليسُ روحه ورجعَ لينتقم من الأتراك".

هكذا نَمَت الأسطورة، لترسّخَها المزيد من الجثث مثقوبةُ الرقاب.

وحين راحت تلك الجثثُ تتسلل من قبورها لتلتحق بجيش سيّدها الشيطانيّ، لاحتْ في أفق البلقان بوادر ثورةٍ دافعها الرعبُ الأعمى وخرافات العوالم السفلية.

عندها.. قرر السلطانُ محمدٌ أن يرسلَ تابعه الموهوبَ، أورهان أفندي، بمهمة واحدة:

أن يهدم أسطورةَ المُخوزِق.. ڤلاد دراكولا.


البحر الأسود
كريت
مملكة قبرص
بلاد الشام
دمشق
القدس
القاهرة
مصر
الشمال
حدود الدولة العثمانية
٨٨٦هـ - ١٤٨١م

"قتلنا قرويين رجالاً ونساءً، بالغين وأطفالاً. قرويون من أوبلوسيتزا ونوفوسيلو، حيث يلتقي الدانوب بالبحر، صعوداً إلى راهوفا قرب تشيليا عند الدانوب الأعلى.

وقتلنا ثلاثة وعشرين ألفاً وثمانمئة وأربعة وثمانين أسيراً تركياً، بدون أن نَعُدّ أولئك الذين أحرقناهم ببيوتهم، ولا الأتراك الذين قطع جنودنا رؤوسَهم.

عليه، ينبغي أن تعلموا يا صاحب الجلالة، بأني قد أعلنتُ الحرب على السلطان محمد".

من رسالة كتبها ڤلاد دراكولا لملك المجر ماتياس كورڤينوس، بتاريخ 2 فبراير 1462م

-1-

لبرهة، ظنّ أورهان إفندي أنه ما يزال نائماً.

كان المنظر خارج العربة أقرب لمشهدٍ من حلم ثقيل. حتى وَقعُ حوافر الخيل، والاهتزاز الرتيب، كلها بدَت جزءاً من منام لم ينقطع. لكن أورهان كان متأكداً من أنه قد أقدم على الاستيقاظ.

هل يكون ما يزال عالقاً بين عالميّ الغيب والشهادة؟

ظلّ وعيهُ طافياً تحت سطح الإدراك للحظة أخرى، قبل أن يستيقظ دفعة واحدة بفعل الألم النابض بين رجليه. الآن تذكر تماماً لِم قرر أن يصحو: تلك الحاجة الممضّة لإفراغ مثانته.

عاد، بذهنٍ أصفى وأشد تركيزاً، يتأمل المشهد الراكض وراء النافذة. لم يتمالك شفتيه اللتين انقلبتا في امتعاض. مشهدٌ يليق بالكوابيس.

كم يكره هذه الأرض! يكره شجيراتها العجفاء المحنية كعجائز المأتم.. ويكره شمسها الزرقاء الكابية. هذه الشمس التي لا تشع ضوءاً حقيقياً ولا تبعث دفئاً.

ألصق جبهته بالزجاج البارد ورفع عينيه لأقصى حدٍّ باحثاً عن القرص المتوهج في السماء. لا شيء! لا سبيل لمعرفة الوقت تحديداً.

قد يكون الوقت ظهراً أو قبيل المغرب.. سيّان. هذه أرض كالحة لم تعرف النور أو الخير يوماً.. إلى أن باركتها أقدام جند مولانا السلطان.

سرت رعشة خفيفة في جسده حين استحضر وجهَ صاحب اللقب. مولانا محمد خان، سلطان المؤمنين، قيصر الروم، الفاتح، صاحب البشارة، سيّد البرّين والبحرين. لا حصر للألقاب التي تعكس عظمته وسلطته المطلقة.. السلطة التي كرّسها بفتحه المدوي للقسطنطينية قبل ستة وعشرين عاماً. كان هو وقتها طفلاً يحبو.

انتابته موجة عواطف.. مزيجٌ من الحنين للديار والانتشاء بذكرى مهيبة والخوف من القادم. تذكّرَ ملامح مولانا.. صحابيٌ في غير زمن الصحابة، نفحة من العهد النبوي، معجزة حية ومصداقٌ لخبر الرسالة.

هكذا يراه هو، ويجزم أن الكل يوافقه. كل رعايا السلطان في دولته التي لا تفتأ تنمو وتتمدد. تتسع رقعتها كل يوم لتغمر كل الأرض، فكأنها أشعة شمس تطرد الظلمة إلى غير رجعة.

"كأنها أشعة شمس!" ..

ترددت الخاطرة في ذهنه وهو يعاود التأمل في المشهد البارد. صفوف تليها صفوف من الجذوع السوداء.. تتشابك أغصانها وظلالها السميكة فلا تكاد تلمح فرقاً بين الظل والحقيقة. تُرى، هل تستطيع شمس السلطنة أن تبث النور في هذه الظلمة المدلهمّة؟

لامَ نفسه من فوره. جال ببصره في أرجاء عربته الرحبة.. في مظاهر النعيم التي حملت له إجابة قاطعة. كيف يجرؤ؟ لقد خصّه السلطان، وهو لا أحد، بكل هذا. امتدت يداه لا شعورياً لتغوصا في الفراء الكثيف الذي يتلحف به ويتمدد عليه. استقرت عيناه على علب الصدف المترعة بالحلوى والأطايب. تحسس للمرة الألف قميصه المطرّز، والخواتم التي لم تكن أصابعه النحيلة لتحلم بمعانقتها قبل ثلاثة أسابيع وحسب.

إن شمس السلطان كفيلة باختراق كل الحجب، ونشرِ الضياء في كل كهف. وقد طاله هذا الضياء السلطاني وغمره، ثم ابتعثه لتمريره لجزء آخر من العالم. لذا هو حيث هو الآن.. يقطع غابات ولاشيا الموحشة محمياً بالحرس.

أصاخ السمع فميّز صوت خيل السباهية[1] خلف العربة. تخيلهم يشقّون بوجوههم القاسية هواء هذه الأرض الكئيبة. استشعر البرد في الخارج فأشفق على مرافقيه الذين تصفر الريح في آذانهم بلا جدران تمنعهم ولا سقف يحميهم. ثم تذكر أنه ينبغي أن يكون في الخارج الآن.. أطلقت مثانته إنذاراً أخيراً بقرب انفجارها. كوّر قبضته وضرب بها سقف العربة.

لم يحدث شيء. لن يسمعه أحد وسط عويل الريح وخبط الحوافر.

زفر في معاناة. حرر بأصابعه قفل الشبّاك فصفقه الهواء بعنف للداخل. حَمَد الله لأن الزجاج لم يتهشم ويغمر وجهه. عوضاً عن

1 كتيبة الفرسان العثمانية.

ذلك، غمرته أنفاس الغابة المثلّجة والعابقة بروائح الماء الراكد والنبت الميت. أخرج رأسه من الشباك فتطاير شعره الطويل. أحس ببهجة صبيانية وودّ لو يكمل الرحلة متدلياً هكذا من النافذة الضيقة. لمح كفليّ الحصانين اللامعين بالعرق، ووصله صوت لهاثهما المحموم. رفع عينيه فرأى جانب جسد خادمه دينيز، جالساً جوار العربجي، ساكناً متلحفاً بعباءتيّ صوف وطاقية فرو. لا شك أن المسكين كان غافياً. شعر بالندم لما هو مقدمٌ عليه.

ملأ رئتيه بالهواء الولاشي الثقيل قبل أن يصيح بصوت رددت الجبال القريبة صداه:

- توقف يا عربجي.

تحرر السائل الساخن من محبسه أخيراً فتملّكته راحة عارمة، إلا أنها كانت راحةً منقوصة. راحةٌ مشوبة بالخجل. صوت الانهمار الدافق على الورق اليابس تعالى كالهدير في سكون الغابة. حتى الريح والطير تواطأت عليه كما يظهر، فصمتت لتفسح الفضاء للصوت الفاضح. تأملّ في طبقات ورق الشجر الكثيف بحنق. كانت قدماه غائصتين فيها للكاحل. اختلس نظرة خاطفة لدينيز. الواقف خلف كتفه مباشرة مطرقاً في أدب. حاول أن يقنع نفسه..

"إن هو إلا خصيّ مملوك"..

حتى النساء لا يتحرجن من أن يضعن ثياهن أمام أمثاله. لكن قبعة السباهي الصفراء العالية على بعد عشرين خطوة أمامه نسفَت منطقَه. ووراءه على ذات المسافة وقف حارسٌ آخر. الاثنان أولياه ظهريهما وقد تحفزت أصابعهما على أوتار قوسيهما. الأوامر اقتضت حماية مبعوث السلطان في كل لحظة.

غمغم وقد عزم على الاستمتاع باللحظة:

- ألا ترى أنكم تبالغون؟

ردّ دينيز بدون أن يرفع رأسه:

- الأخطار لا تنتهي يا إفندي. لربما برز لنا دُبٌّ أو قاطع طريق.. أو ما هو أسوأ!

"ما هو أسوأ"..

كرر العبارة في ذهنه معجباً ببلاغتها.. بإحاطتها بلبّ الموضوع. قاوم بصعوبة إغراء تعليم جاهلٍ درساً. لم يكن في وضع مناسب لبدء نقاش. لكن لو أن وحشاً يتربص بهم لعرفوا به قبل أن يبصروه. الخيل كانت ستشعر به وتنبههم.

تقلص اندفاع التيار بغتة. وضعَ طرف قفطانه بين أسنانه ومدّ يده اليمنى:

- هات.

ناوله الخصيّ إناء الماء وهو مطرقٌ. لفتته النقوش البديعة على النحاس. استشعر جلال مهمته حين فكّر في الغرض الوضيع لشيء جميل كهذا. غَرَف بيده اليسرى ونظّف نفسه ثلاث مرّات. لا مجال للنجاسة. يكفي أنه لم يغتسل منذ خمسة أيام ولو اتسخت ثيابه التي

عليه فستصير الصلاة معضلة. تذكّر حمّامات إسطنبول فزاد كرهــه لهذه الأرض.

حرّك الورق الأسود والأحمر بقدمه ليغطي ما خلّفه. كان كمَن يقف على بحر من الورق المتساقط. رفع عينيه للأشجار العارية. بدت الجذوع السامقة وكأنها مئات ومئات من الــ.. خوازيق! أخــذت جسده رعدة.

عدّل ثيابه والتفت عائداً للعربة. ما أن تعالى وقع خطواته حتى تحرك السباهيان باتجاهه، سائرَين بظهريهما للخلف بدون أن يرخيــا سلاحيهما، وبدون أن تغفل أعينهما عن الأشجار وما خلفها. تلفّت باحثاً عن الشمس مجدداً.

- كم الساعة الآن؟

- العربجي قال أننا تحركنا من أربع ساعات. أي أنها قرابة الثانية بعد الظهر.

- سُحقاً!

عبرَ شبحُ تقطيبة وجه الغلام، وكأنما ساءه أن تطرق سمعه كلمه خادشة. أحس أورهان بفجاجته وبقدر تخلّفه عــن عــالم الخاصــة السلطانية، المثالي والمنــزَّه عن كل قبح.

- أردتُ أن أقــول.. إن الشــمس في هــذه الأنحــاء تــثير أعصابــي.. وكأنهم وضعوا أمامها قماشة زرقاء كبيرة. ألا يدهشك يا دينيز أن الإضاءة كابية في عزّ الظهيرة؟ أنظر حولك.. لا ظــلال تحتنا إطلاقاً! والذي فوقنا.. أهو سحاب مركوم أم أن السماء هنــا رمادية على الدوام؟

– لقد سمعتُ عن هذه الأرض أشياء أشد عجباً يا إفندي من حال الشمس والسحاب.

أغاظه نزق الخصيّ. أحس أنه يتعمد إحراجه غير أنه غفر له. فقد كادت صرخته الأخيرة تُسقط المسكين من العربة لولا أن تدارك نفسه في آخر لحظة. ثم أنهما لم يتفقا منذ بداية الرحلة. ما فتئا يتبادلان الضربات باللفظ والإشارة. تساءلَ بينه وبين نفسه عن كنه الأحلام التي يراها الخصيان في مناماتهم السعيدة. قرر أن يواجهه بالسؤال الجارح في فرصة أخرى. وجَّه له الآن سؤالاً أكثر قيمة:

– متى سنصل؟

فرَدَ المرافق ذراعه بامتداد الطريق. ضيَّق أورهان جفنيه مُركّزاً حتى تراءت له خيوط الدخان الظاهرة بالكاد من وراء قمم الصنوبر المدببة والجبال المكسوة بالثلج.

– بوخارست على بعد ساعة أو أقل.

– أخيراً!

ارتمى على الحشية في جذل. لم يُرخِ السباهيان وتَريهما حتى أُغلق باب العربة عليه بقفلٍ مفتاحه مع دينيز نفسه. أصغى لأصوات تحرك الرَكب وطرقعة السياط. حين عاودت العربة الارتجاج مجدداً خفّت بهجته. حلّ محلها القلق من قرب بدء المهمة التي كلّفه بها السلطان.

استرجع الكلمات والنظرات التي منّ بها مولانا عليه قبل ثلاثة أسابيع. لم تبرد حرارة الحبور في صدره بعدُ، ولا خبا نور الطلّة السلطانية في قلبه.

ليُعدَّ نفسه للحظة البدء.. قرر أورهان إفندي أن يستعيد ما حفظه من دقائق ذلك اللقاء، مثلما درج على الفعل في كل ليلة مرّت به منذ ذلك النهار الشريف.



-2-

"كما العبور من الأعرَاف إلى الفردوس" ..

أعجبه التشبيه. بعبوره أسوار طوب قابـــي في ذلك الإسطنبولي اليوم الصحو، كان أورهان كمن يلِج جنّة الدنيا. ما خارجَ الســـورِ كان برزخاً.. عالماً على حواف الجنّة. أما الجحيم فمثّلته بلا شـــكٍ الأراضي التي لم ينبسط عليها ظل راية السلطان بعدُ.

تحولت أذناه وعيناه إلى أوعية لجمع الأصوات والصور. أحـــس بعقله يئن تحت وطأة السيل الغزير. لكنه لم يشأ أن يفوّت تفصـــيلة واحدة. إنَّ مَن كان مثله لا ينال فرصة كهذه طـــوال حياتـــه. ولأن فعل مرةً فإنها لا تتكرر. لا بد أن يحفظ كل شيء؛ المناظرَ والـــروائحَ والملامح، كي يسترجعها فيما تبقى من عمره ويقصّ ذلك على أبنائه وأحفاده إلى أن يدركه الموت.

لم يكن الأمر سهلاً. كان عليه أيضاً أن يتبع القابجي الذي تلقـــاه عند الباب الداخلي.. بعدما سلّمه له البلطجي الذي سمح له بالمرور عبر البوابة الخارجية[1]. وها هو الآن يعبر به الساحة الفسيحة للسراي والموّارة بالحركة والحياة، بالوجوه المهتمة بمسؤوليات لا يجرؤ على تخيّلها.

---

1 القابجية أو البوّابون هم حراس بوابات القصر. أما البلطجية ففصيل آخر من الحرس مسلّحون ببلطات أو فؤوس قصيرة.

هنا تتحقق الأقدار وتتحدد المصائر. من حوله وفي كل اتجـــاه تحت سماء صافية اختلط العبيد بالأغوات بكَتَبَة الدواوين، وهـــرول الانكشارية[1] الحمر ليفسحوا للبكوات والبشوات. العمائمُ والقبعات متفاوتة الأحجام سمحت له بأن يفترض وينسج قصة لكل رأس. غير أن أحداً لم يكترث له. الكل كان مندفعاً في مسار حياته عبر الساحة التي هي عيّنة لمجرّة السلطنة.. حيث يقع مولانا منها موقع الشمس.

خليطٌ من البشَرات والأزياء والألسن يتجاوز حـــدّ تصـــوّره للعالم. أفارقة فاحمو السواد وقرملية متفجـــرون بـــالحمرة. أكـــرادٌ وقبجاق وتتار، عربٌ وفُرس، صربٌ وبشناق ويونان، أفلاق وروم، إفرنج، بلغار وألبانٌ وتُركمان. نُوّابٌ عن كامل ذريـــة آدم، كلـــهم يدينون بالولاء للسلطان الغازي محمد الفـــاتح، أو يســـعون لنَيـــل مرضاته.

تلفّت لمباني القصر من حوله. هل يكـــون مولانـــا، بحقيقتـــه وبتجسده الحيّ، موجوداً الآن في أحدها.. تفصل بينهما خطـــوات وحسب؟

أحس أنه قد تجاوز الحدّ بتخيلاته. وكاد قلبه يتوقف لِما حســـبه عقوبة السماء التي حلّت به في التو واللحظة. لكن القبضة التي ظنـــها هوَت على وجهه لم تكن سوى كتف القابجي الذي كان قد توقف أمام باب موصد. اندفع الرجل بفعل الارتطام للأمام وكاد يهـــوي مقتحماً المصراعين، لولا أن تشبّث بذراع أحد الحارسين الـــواقفين على الباب كتمثالين من لحم وشوارب.

---

1 مشاة الجيش العثماني.

حدجه الانكشاري بنظرة نارية وأصابعه تعتصر الرمح المنتصب في قبضته. عدّل القابجي عمامته والتفت لأورهان بحدقتين محمـــرتين وأوداج تنبض بالسخط. كاد يذوب من شدة الحرج وأوشك علـــى الدوران على عقبه والفرار عبر الساحة المزدحمة عائداً لبيتـــه. إلا أن الباب الخشبـــي الغاصَّ بالنقوش انفتح لحظتها ليبرز تشريفاتيٌّ آخـــر ألقى عليهم نظرة سريعة قبل أن يشير لأورهان ليتبعه.

انغلق الباب خلفه على لحظة قرر أن يُسقطها تماماً مـــن ســـيرة حياته. طارت عيناه في تفاصيل الجدران والسقف قبل أن يستحضـــر خيبته الأخيرة فيعقد كفيه فوق سرّته مثبتاً بصره بخُفيّ مرافقه الـــذي يسبقه بثلاث خطوات. عبَرا ممراً حجرياً طويلاً قبل أن يقفا أمام باب أصغر ليس عليه حارس:

– ستقابل الآن الصدر الأعظم، محمد باشا القـــره مـــانلي. لا تتكلم حتى تُسأل وراعِ أصول اللياقة.

قبل أن يردّ كان التشريفاتي يطرق الباب بحزم ثم يدفعه. أفســـح له المجال فجرَّ قدميه جراً لداخل الحجرة الرحبة حيث تربّع الصـــدر الأعظم على وسادة هائلة من جوخ أصفر. أمامه منضدة عليها أوراق ودواة وشمعة حمراء مشتعلة. ثم صحن صغير يحوي بضع ثمرات كـــرز مكتنـــزة.. تسع حبات.. أو عشر.

لم يرفع القره مانلي رأسه ليتأكد من هوية الداخل، ولم يجـــرؤ أورهان على اختلاس النظر لما حوله إلا بعد دقيقـــة كاملـــة مـــن الصمت. كان الباشا منهمكاً في الكتابة. على يمينه كـــان موظـــف ديوانٍ واقفاً مطرقاً هو الآخر. لم يلبث الباشا أن تناول الشمعة وترك

بضع قطرات منها تقع على الورقة. خلع خاتماً من سبابته اليمنى وغمسه في السائل المتجلط. رفع الورقة لمستوى وجهه ونفخ برفق ثم ناولها للموظف الذي انصرف بها. عندها فقط أدار الصدر الأعظم عينيه وتملّى في وجهه بدون أن يغيّر جلسته:

– أنت أورهان بن يوسف؟

– أنا هو يا باشا.

– وتعرف لِمَ تم استدعاؤك للسراي السلطاني؟

– لا أعرف يا سيدي. جئتُ تلبية لأمر أوصله لي موظف من السراي.

– أوصلَه لك في مدرسة جامع الفاتح.. حيث تُدرِّس؟

– الأمر كما قلتم يا سيدي.

صمت الباشا ورازَه بعينيه أكثر. تأمل خصلات الشعر المتدلية من عمامته المتواضعة، في لحيته النابتة على وجهه الطويل ذي الوجنتين الناتئتين، وفي أردية الكتّان الرخيصة والنظيفة التي تحيط بجسده النحيل. فكّر أنه ملامحه أناضولية بلا أدنى شك وارتاح لهذا الخاطر. أراد أن يطرح سؤالاً آخر لولا أن انفتح بابٌ ثانٍ مزوي غير الذي دخل منه أورهان. تطلع الاثنان للشخص الذي أقبل عليهما بتؤدة وهدوء. تنبه أورهان أول الأمر لعينيه الناعستين ثم لعمامته العظيمة، قبل أن تتجمد أطرافه ويتدلى فكّه حين قفز القره مانلي باشا واقفاً على قدميه وأحنى رأسه للأرض مُرحباً بالقادم:

– أسعد الله يومكم يا مولانا السلطان.

ثمة تفاصيل للقائه بالسلطان يعجز عن استرجاعها حتى الآن. وكأنه فقد الوعي للحظة، أو غاب عن العالم بفعل الصدمة. وثمة تفاصيل أخرى لم يستوعبها إلا حين أعاد استحضارها لاحقاً.. وأدهشته كثيراً.

دُهش مثلاً حين تنبه لكم يبدو السلطان مرهقاً ومريضاً. إنه ليس الشاب الخارق الذي تصفه قصص الفتح. مع أنه لم يتجاوز الخمسين على أبعد تقدير، لكنه خمسيني مترهل. تحت عينيه هالاتٌ سُودٌ تشي بسهر طويل. لحيته الحمراء قصيرة جداً وخفيفة.. وكأن حلاقاً مهملاً مرّ عليها بمقص ثَلِم. لكن نظراته ثاقبة تنفذ عبر العظام. وله أنف معقوف يجعله يشبه صقراً في حال انقضاض دائم.

بدا له برغم كل شيء مهيباً، عارفاً، متوهجاً بالعظَمة ونبيلاً كما سمع عنه وأكثر.. بدا له السلطان بحق!

أما عن إحاطته بدقائق ملامح مولانا، فذلك لأنه جرؤ على التحديق فيه لأطول مما تقتضيه الأصول. لم يكن الذنب ذنبه. فقد فاجأ الحضورُ السلطانيُ الصدر الأعظمَ ذاته. أما أورهان فقد شُلّت أطرافه. فغرَ فاه وجحظت عيناه. لعل مظهره كان مضحكاً لأن نظرة ملل أطلّت من العينين السلطانيتين، قبل أن يهمس القره مانلي بين أسنانه:

- إفندي!

ربما وقع على الكف السلطانية يلثمها، أو انحنى وقبّل الأرض بين يديه. لا يذكر بالضبط ما الذي قاله ولا كيف انتهى به الحال متمشياً خلف السلطان ووزيره في حديقة القصر. جاهد كثيراً ونبش

في عقله ليستخرج أيّة ذكريات ففشل تماماً. قدّر أن الحدَث كان أكبر من أن يستوعبه عقله المسكين، ففاض عن سعة حفظه!

توقف السلطان عند أصيص ورد. فيه سبع وردات متفتحات، وواحدة لم تزل متشرنقة. مد أصابعه السمينة وقطف أكبر وردة في المجموعة. شمّها وتأمل في الرائحة، كأنها لقمة يلوكها ببطء قبل أن يهضمها. ثم التفت إليه، فكأنما أشرقت في وجهه الشمس. أرخى أورهان عينيه في الأرض وفتح أذنيه. كان الآن في قمة تركيزه.

كتثاؤب أسدٍ.. صدر الصوت السلطاني بطيئاً وراسخاً. مستفرداً بالهواء الذي يحمله وبوعي سامعه:

- مَن كان أبوك يا إفندي؟

خرج صوته متحشرجاً على الرغم منه:

- مولانا أطال الله بقاءكم.. كان اسمه يوسف بن علاء الدين. حاربَ تحت رايتكم المنصورة وقت حصار القسطنطينية وأنعم الله عليه بالشهادة.

- صحيح. رحمة الله عليه.

يذكر أن تعليق السلطان بهتَه.. "صحيح؟". لكنه لم يترك له مجالاً للتفكير وسأله مجدداً:

- كيف استشهد؟

- مولانا.. لا أدري.

- لا تدري؟

سرَت في ظهره رجفة. نبرة السلطان جعلته يحس بأنه ارتكب ذنباً أو تفوّه بمنكر. حرّك عينيه بحثاً عن وجه القره مانلي لعله

يساعده. لكن الباشا رمقه بصمت. التلبّس بالجهل أمام مولانا خطيئة. تفصّد وجهه بالعرق:

- مولانا المظفّر دائماً.. لا أدري على وجه التحديد. قيل لنا أنه استشهد حين صبَّ الروم النفط المشتعل على حفّاري الأنفاق. وقيل أن قذيفة مدفع حطّت عليه. لسنا متأكدين.

سرح السلطان وكأنه يستعيد المشاهد من ذاكرته الشخصية. أعاد الوردة لأنفه وتنشق بعمق قبل أن يسأل:

- والوالدة؟

فاجأه السؤال وزاد ارتباكه. بماذا يجيب؟ أين يبدأ وأين ينتهي؟ ولِمَ يسألُ السلطان؟

لا بد أن حيرته قد طالت لأكثر من لحظة، لأن الصدر الأعظم تطوّع بالإجابة:

- كان اسمها هيلانة.. من سبي الروم. لم تتزوج بعد موت أبي أورهان وعاشت في أوقاف إسطنبول كل عمرها. ماتت في شهر رجب الفائت بالسلّ يا مولانا.

بدأ الذعر يستولي عليه حينها. تلك الأسئلة الدقيقة وإجاباتها الجاهزة أرعبته. صار لقصة استدعائه للسراي، وحقيقة مثوله بين يدي السلطان شخصياً، تفسيرات أشد استغلاقاً وسوداوية، خاصة والقره مانلي يتابع:

- أما أورهان إفندي فلم يلتحق بالجيش إنما درس على مشايخ القادرية والمولوية بإسطنبول. ثم رحل لطلب العلم إلى أدِرنة وحلب وكان له اختلاط بمعلمي الفلسفة والرياضيات اليونان واللاتين. ولازَم

في حلب يهودياً ذا أصل غرناطي فتعلم منه اللسان العربـي وأصول التشريح والكيمياء قبل أن يعود ويجري عليه وقفُ المدرسين بجامع مولانا الفاتح، أدام الله عزّه.

لو أن السلطان وجَّه سؤالا آخر لحظتها لأورهان لكان سقط مغشياً عليه لفرط ارتعابه وتخبطه. لماذا يُلم السلطان.. السلطان.. بكل هذه التفاصيل عن حياته التافهة؟ أتراه ارتكب جناية عظمى أو وُشي به وهو لا يعلم؟ ولماذا يشغل السلطان نفسه بواحدٍ مثله كان يمكن أن يحاسبه القيّم على المدرسة؟ أتراهم المدرّسون الشيوخ متحجرو الأفكار؟ هل بلغت سطوتهم أن يصلوا بأمر خلافهم معه للسلطان نفسه؟

غاص أكثر في دوامة خوفه بينما انشغل عنه مولانا بقادم آخر يتبعه عبدٌ يحمل قنينة وكأساً. لفتت انتباهه، على الرغم من كربه واضطرابه، مشاعر البغض التي ارتسمت على وجه الصدر الأعظم.

انحنى القادم على طريقة الإفرنج حتى كادت عمامته تتدحرج على الأرض:

- مولانا. موعد الدواء.
- ألا تنسانا يوماً واحداً يا يعقوب باشا؟

ثبَّت عينيه به أكثر وقد أنساه الفضول شيئاً من محنته. هوذا إذاً يعقوب باشا طبيب السلطان الذي طبقت شهرته الآفاق. والسلطان إذاً عليل ويتعاطى دواءً بجرعة وميعاد ثابتين على طريقة گالينوس التي طوّرها البيروني.

صبّ يعقوب باشا من القنينة بحرص وقلّب السائل الثقيل بملعقة من فضة. دفع به السلطان لجوفه مرة واحدة واحتقن وجهه وإن لم تتغير ملامحه.

- أذهبَ الباسَ ربُّ الناسِ. بالشفاء يا مولانا.

- حين أفتح روما يا يعقوب، سأنشئ بها أكبر مستشفى عرفَته أوروبا وسأعينك على رأسه.

تحركت حنجرة يعقوب صعوداً وهبوطاً. ردة فعل لا تشي بأيّة فرحة. أما السلطان فلم يرف له جفن وهو يراقب طبيبه الذي عاود الإنحناء المتكلف:

- أطال الله عمر مولانا المظفر صاحب البشارة، وأيده بنصره دائماً.

انصرف الطبيب بعدّته مُشيَعاً بنظرات الكُره من القره مانلي. أما أورهان فعاوده الارتعاد حين سلط عليه السلطان نظراته وبادره بزئيره المكتوم:

- ماذا كنّا نقول يا إفندي؟

- سألتموني آخر مرة عن والدتي يا مولانا.

لم يكد يجاوب حتى أصابته دهشة فوق دهشته.. فالسلطان وجّه له السؤال باللغة العربية.. وهو قد جاوب بالعربية تلقائياً وبدون أن يشعر.

واتته الجرأة فرفع عينيه ليجد الوجه السلطاني راضياً. حينها فقط بدأت صورة جديدة تتركب في ذهنه.. وراح نور الفهم يتسلل عبر قشرة الخوف التي تلف عقله.

ماذا لو كان السلطان يختبره؟ يتحقق من مؤهلاته؟ ماذا لو كان يريد أن يعيّنه معلماً لأحد أبنائه مثلاً؟

أتكون دعوات أمه هيلانة له بالسعد والتوفيق قد وصلت أخيراً لأبواب الإجابة؟



-3-

لم يستغرق الاندفاع عبر بوخارست من طرفها إلى طرفها الآخر أكثر من عشر دقائق. بما في ذلك الوقت الذي لزِم الحرس لفتح بوابة السور بعد التحقق من شخوص القادمين. همس أورهان وهو يعاينها لأول مرة عبر نافذة عربته المارقة كالقذيفة:

- مدينةٌ قبيحة.

حظيّ بلمحات خاطفة لرؤوس الأهالي المنكسة وقاماهم المحنية كانت كافية ليقرر:

"قبيحة وقلقة"..

ساحة المدينة بدَت له أفقر من أيّة قرية تركية مرّ بها في رحلاته. عزّى نفسه بكونها عاصمة وليدة، اعتمدها العثمانيون لأنها أقرب لخطوط إمدادهم، وليسلبوا العاصمة القديمة مكانتها. لكنه بقي متحفِّظاً على معنى الكلمة..

"بوخارست.. المدينة الزاهية!"..

أم أن دينيز كان يكذب عليه؟

لقد قال له مرافقه كلاماً كثيراً خلال العشرين يوماً التي استغرقتها الرحلة. في الليالي التي قضياها بمحطات الطريق الطويل، صبَّ الخصيّ، المتنفذ بدواوين السراي، في أذنيه كامل تاريخ

آل عثمان الدامي مع مملكتيّ الأفلاق والبغدان، (ولاشيا) و(مولداڤيا) كما يسميهما أهلوهما. وأعلَمه بتفاصيل أخرى أشد هولاً بخصوص مهمته هذه.

لكن مشاهداته الشخصية أوصلته لمعلومة إضافية لم يتطرق لها دينيز أبداً.

فالعثمانيون يُحكمون قبضتهم الحديدية على أراضٍ تشتعل كالجمر تحت الرماد. إن هذه البلاد الشاسعة تخضع كلها لسيّد طوب قابي، إلى أن تلوح سانحة تمرد. أنهارُ الدماء التي سالت منذ أيام السلطان مراد وقبله، لم تكفِ لتضمن الاستقرار حتى الآن. لا يأمن تركيٌّ ولا مسلم على نفسه هنا، ولا حتى ليقضي حاجته في قلب الغاب، والجيوش لا تفتأ تُرسل لتخمد الثورات.

"الإنسان أحمق بطبعه" ..

الناس هنا همجيون وحمقى ليرفضوا الخير الذي ساقَه الله لهم في صورة حُكم مولانا العادل. قرر بينه وبين نفسه، وعبر خاطرة عابرة جداً، أن أيّة حاكم في الواقع هو خيرٌ من ڤلاد المُخوزِق، والذي أخبره عنه دينيز أشياء لا تصدق في أول ليالي الرحلة وقد أوَت قافلتهما الصغيرة إلى حصن أدِرنة:

- لقد كان إنساناً مختلاً ولا أشك أن جنيّاً كافراً قد تلبّسه. سلامٌ قولاً من رب رحيم! خلال حبسه هنا بهذه القلعة تحديداً، وكان وقتها صبياً لم يتجاوز الحادية عشرة، لطالما عثر حرّاس زنزانته على جثث جرذان وحمائم مكوّمة بين يديه. الجرذان كانت مسلوخة الجلد. والحمائم مغروسٌ في رؤوسها مسامير حديدية. من

أين أتى بالمسامير؟ وكيف تمكّن من تلك المخلوقات التعسة؟ لم يكن يرُدّ أبداً بل يكتفي بابتسامة صغيرة ويلعق الدم من على أصابعه. ألعنُ صبيٍ يمكنك أن تتخيله! لذا فإنه كان عرضة دائماً للجَلد والحبس على عكس أخيه رادو.. رحمه الله.

- كأني فهمت من مولانا السلطان، في اللقاء الخاص الذي جمع بيني وبينه على انفراد، أن ڤلاد ورادو قد رافقاه في صباه ودرسا معه.

يأخذ دينيز نفساً عميقاً.. لا يدري أورهان إن كان يستعين به ليبدأ في سرد قصة طويلة، أو ليطفيء نار غيظه التي يشعلها أورهان كلما تبجح بلقائه بالسلطان. كلا الاحتمالين يشوّقه ويسلّيه:

- في الواقع يا أورهان إفندي، فإن ڤلاد وشقيقه الأصغر، رادو، كانا ضَيفين خاصين.. جزءاً من الصفقة التي عقدها أبوهما، الكونت ڤلاد الثاني، مع السلطان مراد رحمه الله. وافق السلطان على أن يؤمّن عرش ڤلاد الأب في الأفلاق ويحميه من أطماع الممالك المجاورة. في المقابل، كان على الأمير الأفلاقي أن يدفع الجزية السنوية، ويرسل ولديه الاثنين كـ.. ضمانة لتنفيذ الاتفاق.. إن شئت.

يهزّ أورهان رأسه محدقاً في الخريطة السيئة التي أحضرها دينيز، لكنها تفي بالغرض وتقدم تبريراً واضحاً لتشكيك السلطان مراد في قدرة الكونت على الثبات. ثبَّت عينيه على ولاشيا وامتدادها الشمالي المعروف باسم (ترانسلڤانيا). فوقهما تماماً كانت مولداڤيا. تلك المقاطعات الثلاث وما تحتها، يسميها الأتراك (الروملي)؛ أرض الروم.

بدَت أملاكُ ڤلاد الثاني على الخريطة كلقمة تتخاطفها أفواه ثلاثة وحوش تحاصرها تماماً: العثمانيون، المجريّون، والپولونيون. إن من يحكم ولاشيا وما حولها، كان عليه أن يجيد اللعب على سيوف تلك القوى الكُبرى المتقاطعة.

واصلَ دينيز:

– كان السلطان مراد كريماً وعامَل الشابين بما يليق بأصلهما النبيل. بل أمر بإلحاقهما بدروس القرآن والفروسية مع وليّ عهده الفتى محمد. كان مولانا حينها في سِن ڤلاد الابن تقريباً. إذا تأملتَ معي فستتبدى لك الحكمة السلطانية الباهرة. فأحد الولدين سيحكم ولاشيا بعد أبيه، تخيّل حاكماً حليفاً نشأ تحت شمس السلطنة وتطهرت روحه بأشعتها.. أليس ذلك خيراً من شنّ الحرب وسفك الدم؟

– لكن تلك الخطة لم يحالفها التوفيق.

– نجَحت جزئياً.. مع رادو فقط. أما ڤلاد فسبَقنا الشيطان واستوحذ عليه.

كان دينيز محيطاً بالحكاية، بالرغم من أنه لم يلتقِ ڤلاد أبداً ولم يشهد الظروف التي حوّلته للوحش الذي صاره. كل معلوماته الدقيقة استقاها من عمله بديوان البريد السلطاني، ومن الذكريات الشفهية التي تناقلتها الحاشية خلال الثلاثين سنة الأخيرة. ثمة حرسٌ معتّقون وعبيد قدامى بالقصر يعترفون غير آسفين بأنهم جلَدوا ظهر ڤلاد الابن بأيديهم. وبأنه استحق كل سوط جزاء سلوكه المريع. لقد كانت روحاً شيطانية تلك التي استحوذت على الفتى الولاشي في سن غضّة وحوّلته لكائن توّاق لرائحة الدم، وإن كان دمه هو!

سيأتي لاحقاً من سيؤكد بأن سياط الأتراك الثقيلة، وزنازينهم الرطبة المظلمة، هي التي أطارت صواب الأمير الصغير وبذرت بذور عُقده الدموية. وسيقول آخرون بأن غيرة ڤلاد من رفيقه في الدرس، الأمير العثماني محمدٍ، والذي صار سلطاناً مؤقتاً في العام التالي، ونقمته على أخيه الأكبر ميرتشا، الذي استبقاه والده لجواره، إضافة لحقده على أخيهما الأصغر والأضعف رادو، الذي لم يلبث أن اعتنق ديانة الأعداء، كل ذلك حوّله لفتىً يغلي بالكره لكل ما حوله، ويبحث عن آيّة نصر يعيد له الاعتبار.

ذلك كله قد يكون صحيحاً.. لكنه يمثل بعض الحقيقة وحسب.

فڤلاد لم يتحول إلى وحش. بل أريد له أن يكون كذلك منذ أن وعى. لُقن تلك القيمة وهو بعدُ طفلٌ ابن ست سنين.

زرعها أبوه فيه زرعاً، حين ألحقَه بفرسان التنين.

قال له دينيز أثناء آخر حمّام حار أخذاه قبل أن تنقطع بهم سُبل الحضارة بعد نهر كامتشيا:

– عُرف ڤلاد مبكراً ودوناً عن كل إخوته بلقب (دراكولا).. أي (ابن الشيطان).. لكن ترجمتها الأدق هي (ابن التنين). أما التنين الأب، (دراكول)، فهو والده.. قائد فرسان التنين بولاشيا. جنود مولانا الذين عاينوا فظائعه لاحقاً أسموه (البيك المُخوزِق)[1].

---

1 Kaziklu Bey.

لم يقوَ أورهان على التعليق حتى فرغ دينيز من تكييسه وفركه. استمتع بالحمّام مع أنه شكَّ في أن الخصيّ الغاضب يحاول تمزيق ظهره بالليف. انشغل بعدّ البلاطات على أرضية الحمام.

"ثلاثمئة وست وستون"..

قال فيما بعد وهما يحتسيان مغليّ الزهورات متلفعين بالمناشف:

- حدثني عن فرسان التنين.

- فرقة عسكرية أنشأها ملك اللوكسمبورگ قبل سبعين سنة. تنظيم شبيه بفرسان الهيكل وسواه من فرق الخيالة الصليبية، تكوّن بمباركة من الكنيسة لغرض حرب المسلمين. خابوا وخسروا! عرف التنظيم شعبية في إيطاليا وجرمانيا كذلك. لكن منذ أن فتح الله القسطنطينية على يد مولانا وراية الكفر تنتكس. في ولاشيا كان ڤلاد الأب هو قائد لواء التنين. وقد تم تنصيب ڤلاد الابن فارساً في احتفال مهيب قبل أن يبلغ السادسة.

يسرح أورهان بعيداً وعيناه معلقتان بأبخرة المشروب الساخن. يتجسّدُ له كلام دينيز مناظرَ يراها بعين الخيال. يتصوّر الطفل ذا السنوات الست يمشي مرتجفاً بين صفيَن من عتاة الفرسان. كتفاه تنوءان بالعباءة الفاخرة التي أُلبسها. وذراعاه تكادان تنخلعان من ثقل الدرع الفولاذي الذي يزيّنه رمز التنين. وجهه محتقن لكنه يتقدم في ثقة بدون أن يُظهر بادرة ضعف. فهو لا يريد أن يفضح أباه ولا يريد أن يخسر لحظة عظمته هذه.

سيثبت أنه رجل ويستحق أن يكون أحد فرسان التنين حتماً.

يتقدم من عرش أبيه ويركع على ركبته. يتأمله أبوه في صمت وفخر. تنحبس الأنفاس فيما يمتشق الأمير ڤلاد الثاني دراكول سيف التنين ويرفعه ليلمع نصله في فراغ القاعة. يزيد ارتجاف الصبي وتتسع عيناه غير مصدق فيما أبوه يلمس كتفه بذؤابة السيف ويعلن:

– باسم الصليب، أعلنك: ڤلاد الثالث دراكولا، فارساً من فرسان التنين. انهض سيفاً في يد يسوع مُسلّطاً لنحور أعدائه. وليباركك الرب.

تضج القاعة بالهتاف من الحناجر الخشنة للجند وبارونات البلاط. يصلّب الولد على جبهته وكتفيه ثم ينهض وهو يكاد يقفز في الهواء. لكنه يكتم تلك الرغبة الطفولية التي ستعتريه لآخر مرة في حياته. فهو قد صار رجلاً الآن.

بعد خمس سنوات من تلك اللحظة، سيقف التنين الصغير إلى جوار والده مذموماً مدحوراً. سيدخل عليهم ذات قاعة العرش باشوات السلطان مراد الثاني معلّقين سيوفهم المعقوفة القبيحة. سوف لن ينحنوا لأمير ولاشيا وسوف لن يخلعوا قبعاتهم العجيبة. سيتكلمون بصلَف ويطلبون منه، من قائد فرسان التنين، الذين أقسموا على مناجزة الأعداء المسلمين، سيطلب هؤلاء الكفَرَة من أبيه أن يدفع لهم جزية سنوية لقاء حمايته من جيوش ملكيّ المجر وپولونيا. وسيوافق أبوه، التنين، صاغراً كأنه طفلٌ عاجز. أيّ خزيٍ وأيّ عار استشعرهما الفتى دراكولا؟

وأكثر من ذلك، سيشير ڤلاد الأب له.. ولشقيقه رادو. سيتقدم اثنان من الانكشارية وسيدفعاهما أمامهما كالأسرى. سيتكلم

الباشوات بصلف أكثر ليحذروا تابعهم الولاشي الجديد مـــن مغبـــة الإخلال بشروط الاتفاق.. وإلا!

لن يرفع التنين دراكول عينيه ليودع أياً من ابنيـــه. ســـيحاول الصغير رادو أن يلتفت ليُسمع أباه كلمة وداع لكـــن الانكشـــاري الذي يسوقه سيضربه على مؤخرة رأسه ليعتدل. أما دراكولا، فإنه لا يلتفت ولا يرمش. لا تصدر عنه كلمة واحدة ولا يبدو أنه يرى مـــا أمامه.

لقد انكسر الفتى.. ولن يعود كما كان أبداً.



-4-

ها هو أورهان يواجه قلعة بوخارست، المطلة على البلدة من علٍ كأنها بلطة جلاد تتربص بأعناق ضحاياها. أحسَّ بالعربة تتباطأ وشعر بشفقة على الخيل التي قطعت كل تلك المسافة ركضاً وينتظرها الآن هذا الصعود المهلك، لتنتهي الرحلة أخيراً عند أبواب القلعة حيث بدأ كل شيء. حيث بدأت الأحداث العجيبة كما قصها عليه القره مانلي باشا في ذلك النهار العجائبي الشريف.

يومها، قال له الصدر الأعظم وهو يشد قامته واقفاً إلى يمين السلطان، الجالس القرفصاء وسط حديقة قصره متشاغلاً بالوردة بين أصابعه:

- ستسافر إلى بوخارست، عاصمة ولاية الأفلاق يا إفندي. مولانا كلفك بمهمة ستؤديها بأقصى درجات السرية. مفهوم؟

اتسعت عيناه المثبتتان بالأرض في ذعر. ما إن ظن أنه شارف حدود الفهم حتى ردَّه كلام القره مانلي لغياهب الجهل والحيرة ثانية. ظن السلطان سيستخدمه لتعليم صبية القصر، فإذا به يرسله للأفلاق.. ولاشيا! ولاشيا التي لم يصل لأبعد منها جيشٌ مسلم من

أيام الرسول والصحابة؟ حيث تغرب الشمس وينتهي الأفق ولا يعود البحر بحراً ولا السماء سماء؟!

لقد سمع عن الأفلاق حتماً. الأفلاق هي رديف البُعد والرعب والمنفى في سيَر حكواتية المقاهي، وقصص الجند في التكايا والحانات. الأفلاق حيث تنبت (أشجار الموت). أشجارٌ لم تلدها الأرض ولا سقاها المطر، إنما نصبتها يد الإنسان وشربت من دماء الأجساد التي عبرتها جذوعها المدببة، من الطرف للطرف، حتى فارقتها الحياة بأبطأ ما يمكن تخيّله.

والسلطان الفاتح يريد أن يبعث به هو، ولا أحد سواه، لمهمة سرّية إلى ولاشيا تلك؟!

تدافعت الأفكار والأسئلة السوداء في رأسه بلمح البصر. أحسَّ بذهنه وكأنه جلدة خروف، وبصوت القره مانلي يهوي عليها كمطرقة الدبّاغ:

- مفهوم يا إفندي؟

- مفهوم يا باشا. السمع والطاعة.

كانت إجابة غير ذات معنى. فهو لم يعرف للآن تفاصيل ما سيسمع ويطيع.

- هل سمعت عن ڤلاد دراكولا يا إفندي؟

- كلا يا باشا لم أسمع به.

- لقد كان ذلك الشقيّ أحد أعدى أعداء الإسلام. وقد كسر مولانا أيّده الله رايته غير مرة إلا أنه لم يرتدع وعاود التمرد حتى تم الخلاص منه تماماً قبل ثلاث سنوات.

صمت القره مانلي لبرهة ليقدّر تأثير كلامه في أورهان الذي هزّ رأسه.

"تمرد عليكم شقيٌّ فقتلتموه. ما شأني أنا؟" ..

حبس أنفاسه مجدداً والصدر الأعظم يكمل:

- استتب الأمر في الأفلاق أخيراً وعيّن مولانا صنيعته رادو بيك، شقيق الهالك ڤلاد، والياً على المنطقة.

بدت له المعلومة غريبة في حينه..

"وثق بشقيق المتمرد؟!" ..

لكنه احتفظ بأفكاره لنفسه.

سارت الأمور على ما يرام حتى وردنا الخبر المؤسف قبل شهرين. فرادو بيك لقي حتفه. اغتيل داخل قصره في بوخارست، وبطريقة نستطيع القول أنها.. بشعة. لم تنته المسألة عند ذلك الحد بل توالت عدة جرائم مماثلة استهدفت نبلاء وضباط انكشارية وبعض الأهالي أيضاً. كلهم لقوا مصرعهم بأفظع الأشكال.

"ما شأني أنا؟ ما شأني أنا؟" ..

السؤال يتكرر في عقله كالجرس وهو يصغي في ملل ويقلّب الاحتمالات على جنونها.. هل يعينونه هو والياً على الأفلاق بدلاً من رادو المغدور؟!

- لم تكن تلك الجرائم لتشغل بال مولانا ولا لتهزّ سيطرته المطلقة على الروملي وما حولها. تلك الأراضي التي استنارت أخيراً بنور الإسلام بفضل الله ومولانا بعدما رسفت في قيد الكفر لدهور. لكن، وعلى ضوء الأحداث الأخيرة، فإن خوفاً ينتشر بين الأهالي.

خوفٌ غير عادي.. لو شئنا تحري الدقة. خوفٌ مردّه إشاعة مغرضة لا شك في أن أفواهاً عدوة متآمرة تنشرها لتقوّض الأمن في تلك الديار.

فكر أورهان أن الباشا قد كرر كلمة "خوف" حتى صار هو ذاته يستشعره. بل إن قلبه وثب بين ضلوعه حين هتف القره مانلي بغتة:

- إن الأهالي هناك يا إفندي يتداولون إشاعة مفادها أن عدو الله ڤلاد قد فرّ من قاع جهنم عائداً للدنيا، وأنه هو من أخذ روح أخيه رادو!

- أعوذ بكلمات الله التامات.

همهم أورهان بالدعاء وقد اقشعر بدنه.. في حين تابع الباشا بنفس الحماسة:

- ومولانا يأمرك بأن ترحل للأفلاق في التوِّ لتكشف حقيقة هذه الخرافة، وتعرف مَن قتل رادو بيك.

هنالك، وفي تلك اللحظة، لم يعد أورهان قادراً على تمالك نفسه. إحساسه بالخوف والحيرة تحوّل الآن لما يشبه الغضب. لقد تم التلاعب به بما يكفي، وهو بحاجة لتوضيح كامل لتفاصيل هذه المقدمة الطويلة التي تستعصي على استيعابه وتأبى أن تنتهي.

لم يتجاوز أدبه و لم يتفوه بكلمة. فقط رفع رأسه وحدَّق في السلطان ووزيره بعينين حملتا كل تلك المعاني.

صدرَ الصوت السلطاني من جديد فنـزل على قلبه برداً وسلاماً. تحول تمرّده اللحظي لخضوع كامل. السلطان محمد خان أدرى وأعلم.

قال مولانا:

– لقد عرَفْنا ڤلاد منذ كان صبياً نشأ معنا في أدِرنة. وعرفناه رجلاً. نحن الذين جعلنا منه أميراً وأجلسناه على كرسي والده، بعدما غدر به رجال بلاطه لحساب ملك المجر. لكنه لما تمكّن انقلب علينا.. وقبل ذلك نكّل بشعبه.

أطرق السلطان وعبث بالوردة بين أصابعه مجدداً. سكونه ونبرته الثابتة لا يشيان بالإعصار الذي يعتمل في عقله وقلبه. يفكّر بهذا الفتى الذي يبدو نبيهاً لكنه ضائع للآن وتتخطفه الشكوك بخصوص علاقته بالمسألة برمتها. إنه لا يلومه. لم يعجبه أسلوب القره مانلي في مفاجأته هكذا وإرعابه. يبدو أنه يعرف عن الأفلاق وعن سمعتها السيئة.. لكنه حتماً لا يعرف الحقيقة كاملة. لا يعرف الحقيقة إلا من وقف على منظر أشجار الموت وعاينها بنفسه. ولقد عاينها محمد الفاتح. وما رآه بعينيه يجعله قلقاً حقاً من تأثير تلك الشائعات السخيفة، من عودة الروح لأسطورة ڤلاد.. ڤلاد المخوزِق.

يعرف أن القره مانلي لن يجرؤ على التلفظ بهكذا كلمات في حضرته. ستكون هذه عقبة في طريق إفهام هذا الفتى النبيه، أورهان بن يوسف، تفاصيل مهمته ووصف الصورة كاملة له. لذا قرر هو أن يشرف على المسألة بنفسه ولا يتركها للقره مانلي. هو وحده يعرف ما

يجدر أن يقال وما يجدر أن يبقى طيّ الكتمان في مهمة كهـذه ستتم بسريّة مطلقة.

– إن سيرة ڤلاد سوداء حافلة بالهوَل. ونحن لا يرضينا أن تنتعش هذه السيرة وتقلق أمان رعايانا الذين تعهدنا لهم أمام الله بأن نحميهم. لقد وقفنا نحن بأنفسنا على نماذج وحشيته.

ڤلاد دراكولا! مرعب ومخاتل حتى وهو في قبره. لم يصدق السلطان أذنيه حين سمع، سنة 863، بخبر تحالفه مع ملك المجر، نفس الملك الذي قتل أباه، وسمل عيني أخيه ميرتشا ثم دفنه حياً. أرسلَ له وفداً ليتحقق من الخبر. لم يعد الوفد لكن أخباراً أسوأ عادت. أخبار تقول بأن الولاشي الخبيث، المتربع على تخت أبيه بإنعامٍ من الفاتح تحديداً، قد أمر أعضاء الوفد بأن ينحنو له، وبأن يضعوا عمائمهم تعظيماً. لابد أن الأحمق كان تحت تأثير المسكر! هيهات أن يقبل عثمانيٌّ على نفسه هذه المهانة. كان اللعين ينتظر هذا الردّ، فأمر بأن تثبّت عمائم السفيرين إلى جماجمهم بالمسامير. ثم أمر بأن يُجلسا على عمودين مدبّبين مدهونة أطرافهما بالزيت.. تُدقّ فيهم من أدبارهم لتخرج من رؤوسهم. انتصب العمودان على أبواب عاصمته، تورگوڤيتشه، مُكلّلَين بضحيتيهما، كشجرتيّ موت تعلنان الحرب على العثمانين.

أحس بنار الغضب تشتعل في عظامه وهو يسترجع الخبر بعد كل هذه السنين. مثلما اجتاحه الغضب حينها فأمر بحشد جيش من تسعين ألفاً قادهم بنفسه عبر الدانوب.

– كانَ أجبنَ من أن يواجهنا تحت الشمس. واصل الفرار محرقاً خلفه كل أرضٍ ومسمماً كل نبع. إلتف وراءنا وأغار على قرى

البلغار التابعة لنا. وحين لحقنا به.. وجدناه قد نصب لنا عشرين ألف شجرة موت من جثث ضحاياه. قتل حتى النساء مثبّتاً صغارهن على صدورهن. كم قتيلاً بالضبط يا قره مانلي؟

جاوب الباشا من فوره:

- ثلاثة وعشرون ألفاً، وثمانمئة وأربعة وثمانون يا مولانا.

لن ينسى أورهان هذا الرقم أبداً. ولن يعرف أن العثمانيين لم يعدّوا الجثث المخوزقة.. بل عدّوا أنوفها المجدوعة التي أرسلها لهم ڤلاد لاحقاً.

ظهرت فوق الهامة السلطانية سحابة أسى. ثبّت مولانا عينيه في عيني أورهان المذعورتين لعل الصور تتوارد بينهما. صورُ عشرين ألف جثة مخوزقة متفسخة، ترتع في أفواهها الفاغرة وفجوات أعينها عشرون ألف ألف دودة، وترقص حولها عشرون ألف ألف ذبابة يصم طنينها الآذان ويحجب سوادها الشمس. صورُ الذئاب والدببة وقد خرجت لتسرح وتمرح في غابة اللحم هذه بدون أن تلقي لجيشه بالاً. والأسوأ من ذلك كله.. صورُ بعض الأجساد التي بقيت تنتفض فوق خوازيقها حتى تلك اللحظة.. يعلم الله إن كان بها رمق أو أنها من ألاعيب البصر!

- يشيع أعداء الله أننا لما رأينا ذلك المنظر استولى علينا الخوف وانسحبنا إلى إسطنبول. والحقيقة أننا لا نخاف إلا من الله الواحد الأحد. أما انسحابنا فيحتمه العقل. لأن ذلك العدد من الجثث المكشوفة قد أفسد هواء المنطقة. لو كنا بقينا بجيشنا لطالَهم الوباء.. الحمى الصفراء وربما الطاعون.

هزّ أورهان رأسه المرتجف أصلاً وكأنه يؤمّن على دقة معلومات السلطان. أخذ مولانا نفساً عميقاً فانتفش قفطانه الأخضر المحلى بخيوط الذهب. بدا ككوكبٍ متوهج. صفّق بيديه فظهر خادم قدّم لهم شراب الرمّان. كان ريقُ أورهان جافاً تماماً، ومع ذلك فقد غصَب نفسه على تجرع السائل الشبيه بالدم!

قرر مولانا ألا يتكلم عن الخسائر الفادحة التي أوقعها ڤلاد بجيشه، ولا عن غارته الليلية التي قتلَ فيها خمسة عشر ألف عثماني، قبل أن يقتحم خيمة السلطان بنفسه[1]. كان الفاتح محظوظاً لأنه اختار أن يعقد اجتماعه بقادته في خيمة أخرى ليلتها.

رجع السلطان محمد من الأفلاق لإسطنبول، لكنه ترك جزءاً من جيشه بقيادة رادو بيك. رادو شقيق ڤلاد الذي بقي على ولائه لآل عثمان. نجح رادو في إجلاء أخيه عن ولاشيا أخيراً. هرب الشقيّ للملك المجر ثانية. لكن ماتياس المجري كان قد أنفق كل الذهب الذي أمده به البابا لأجل حملة صليبية جديدة. بدده الأحمق على ثيابه ومكتبته. وحين ظهر له ڤلاد أشعث أغبر طريداً ألصق فشل الحملة التي لم تبدأ به، وألقى به في غياهب السجن.

كتم السلطان ابتسامة شامتة كادت تفلت منه. سيقبع ڤلاد في زنازين ماتياس لعشر سنين، قبل أن تنجح السفارات التي بعثها الفاتح في إخراجه منه.. جثة هامدة.

1 20 رمضان 866هـ – 17 يونيو 1462م.

- أمرنا بأن يؤتى برأسه لنا إلى هنا. وقد عُرض رأس الهالك على وزيرنا السابق، إبراهيم باشا وشهد بين يدينا بأنه رآه.

يرمش أورهان بعينيه في ارتباك، ويسجّل السلطان ارتباكه. لقد طار رأس إبراهيم باشا ذاته قبل عامين بتهمة الخيانة العظمى. هل يكون الفتى النبيه قد استوعب ما يمكن أن يعنيه ذلك؟

يلتفت السلطان بطرف عينه لوزيره الذي يتناول منه دفة الحديث:

- هناك من يسعى لإحياء أسطورة ڤلاد المتوحش بكذبة سخيفة. والعوام بينهم الكثير من الجهلة وصغار العقول ممن لم يتمكن نور الحق منهم بعد. يجب أن تُوأد هذه الإشاعة في مهدها، هناك في الأفلاق كي تموت للأبد ويستتب الأمن.

ينقل المسكين أورهان بصره بين الاثنين كالتائه. مازال سؤاله الأكبر بلا إجابة. يتابع الوزير:

- الشائعة تنتشر بين الدهماء انتشار النار في الهشيم. المزيد من القتلى مشقوقو الحناجر يظهرون كل يوم بدون أن يُعرف لهم قاتل والتهمة تُلصق مباشرة بڤلاد العائد من الجحيم. الذعر من هذه الخرافة يقود الناس للهجرة العشوائية، ويفقدهم رشدهم فتنتشر الجرائم والتعديات أكثر.

يعلّق السلطان وهو يقلّب الرغوة على سطح سائل الرمّان:

- الخوف يا إفندي هو أسوأ أعدائك، لأنك لا تستطيع أن تعتقله.. ولا أن تسيّر ضده حملة أو تقهره بجيش. إن هذا العدو الأسوأ يكتسح الروملي وسيتقدم عبر البلقان.

"بل إنه قد وصل لإسطنبول ذاتها" ..

فكّر أورهان أن الموضوع هو أخطر مما يصوّر له. أما السلطان فضيّق جفنيه الناعسين وهو يقرأ ملامح وجهه في اهتمام. هذا فتى أذكى مما يظهر عليه. أما جيوشه فلا قِبل لها بالزحف على الروملي الآن. إنه يدخرها لخصم آخر. عقلُ السلطان يمور بمخططات الفتح التي لا يدرك منتهاها مخلوق سواه. صدره بحرٌ عميق يطبق على أسرار لو عرفت بأحدها شعرة في ذقنه لاقتلعها. هكذا يقول. أما قائمة أعداء الإسلام التي قد ينتقي منها هدفه القادم فلا نهاية لها: مملكتا طرابزون والقرمان في آسيا الصغرى، المغول المناوئون للسلطنة شرقاً، رودس، البنادقة. بل لعله يهب لنجدة عرب الأندلس الذين يخنقهم مدّ قشتالة وليون في أقصى الغرب. وإن هيّ إلا مسألة وقت حتى يقع الصدام مع المماليك الذين يخنقهم مدّ سلطنته هو، أولئك المتملكون لمفاتيح مكّة والمدينة والقدس، محتَمين في القاهرة بظلّ خليفة لا يملك سوى لقبه.. خليفة؟!

على كل الأحوال.. فهذا ليس وقت الأفلاق.

– إن حكمة مولانا أرتأت ألا يتم تكليف واليه الجديد على الأفلاق أو قائد الانكشارية هناك بالمهمة، لأن ذلك من شأنه أن يوهم الأهالي باهتمامنا للأمر، مما سيكسب الشائعة مزيداً من المصداقية.

"لِمَ يخبرونني بهذا كله؟.. لِمَ يكلفونني أنا بالمهمة وأنا.. لا أحد؟!" .

التمعت الإجابة في رأسه وانعكس وهجها في بريق عينيه للتـــو. تجرأ ثانية وتطلع لوجه مولانا.. هذه المرة كانت النظرات مختلفـــة.. والحوار الصامت بينهما كان أوضح من كل كلام قيل.

إنه لا أحد. لا أحد يعرفه ولن يحس بحركاته طالما لم ينكشـــف أنه مبعوث من قبل السلطان. إنه ليس انكشارياً يثير مظهره النقمـــة والخوف، ويخرس مروره الثرثارين، ولا والياً مُستقصداً بالانتقام. وأياً يكن السر خلف تلك القصة المرعبة، فإنه يسعه أن يتقصّاه بســـهولة فيرى ويسمع طالما هو مجهول تماماً.. طالما هو لا أحد!

فهم ذلك وبدا الفهم في بريق عينيه. وفي عيني السلطان مرت بارقة رضا كذلك. إن أسطورة ڤلاد لن يهـــدمها إلا تركـــيّ. لا سبيل للاعتماد على الأجانب في هذه المهمة. قد يكون الإيطاليون والفرنجة سبكوا له مدافعه وهندسوا الأنفـــاق الـــتي فـــتح بهـــا القسطنطينية. لكن هذه معركة مختلفة. ڤلاد يشن عليه، من قبره، حرباً ميادينها القلوب والعقول. حربٌ موغلة في أصل الخرافة التي عُجنت بطينة الأفلاق. لو كان أورهان ذكياً كفاية، كما وصـــله عنه، فإنه سيفهم.

تعالى صوت القره مانلي قاطعاً حوار الخواطر:

– إن الثقة السلطانية قد حلّت عليك يا إفندي لما توسمه مولانا فيك من صفات الكفاءة اللازمة، علمك وفطنتك.

"آية كفاءة؟ آية فطنة؟"..

السلطان يواصل التأمل في الرغوة المتكونة على سطح شـــراب الرمان.. القاني كما الدم. بينما صوت القره مانلي يعلو في الخلفية:

- مولانا يتطلع لأن تتعامل مع المسألة في الأفلاق، بنفس الحكمة والذكاء اللتين أبديتهما أيام حادثة الشيخ نور الدين.. رحمه الله.

هذه المرة، ودّ أورهان لو يخرّ على ركبتيه.. لو يجثو على الأرض مبدياً الخضوع التام.. لو يُسقط كل حواجز الأدب والتبجيل ويصفق بكفيه بإعجاب وانبهار.

إنه يعرف.. مولانا يعرف. حتى تلك القصة العابرة وصلت لعلمه السلطاني؟ بنى عليها قراره المدهش الذي سيغير حياة أورهان وينقله لأنحاء جديدة من العالم لم يكن يحلم برؤيتها.

لم يقل شيئاً.. فقط أطرق برأسه وسمح لنفسه بأن يبتسم في تواضع.

"إذاً فمولانا يعرف"..

تخيّلَ السلطان المتشاغل برغوة الرمان يبتسم في سره هو الآخر.. تخيّلَه يجاوبه على تساؤله بخاطرة لا يسمعها سواه: ماذا تحسب يا فتى؟ أنا لم أفتح القسطنطينية بالمدافع والسيوف وحسب!

قال الصدر الأعظم:

- سيتم تجهيزك بكل مستلزمات الرحلة كما يليق بك كمبعوث سلطاني. تم تعيين مرافق من القصر سيعمل على خدمتك ويجيب على أسئلتك الأخرى.. يمكنك أن تثق به. وستصحبك ثلة من فرسان السباهية لتأمين سلامتك. مولانا أمر أن تنطلقوا من الغد.

- السمع والطاعة.

نهض السلطان فاعتدلوا في وقفاتهم أكثر. ألقى مولانا الفـــاتح نظرة أخيرة على أورهان ثم أدار ظهره وانصرف. وصـــله صـــوته.. صوت الأسد المتثائب.. لآخر مرة من خلف العمامة العظيمة:

- إن ولاشيا بعيدة. ولعلك ترجع لنا مظفراً فتكمـــل رحلـــة حجّك التي توقفت في حلب ولم يُكتب لها أن تتم.



-5-

توقفت العربة أخيراً. حبس أورهان أنفاسه وأنصت لضجيج الوصول. حتى وهو في محبسه، وصله تيار التوتر الذي يسري بين مرافقيه ومستقبليه.

من النافذة الصغيرة كان المنظر أحمر تماماً. عشرات مشاة الانكشارية أحاطوا بالعربة. لم تلبث يدٌ أن راحت تعبث بالأقفال. فُتح الباب أخيراً واستقبله أولا الهواء الثقيل العطن ونيران المشاعل. عرف أنهم في سرداب تحت الأرض. طالعته بعد ذلك بشرة دينيز الناعمة. وراءه كنقيض كان ضابطٌ انكشاري هائل الجرم. تلقته الأعين كمولود جاء للدنيا بعد طول انتظار.

نظر إليه الضابط بفضول لم يلبث أن تحول لاستخفاف.. وكأنه يستكثر على هذا الفتى النحيل أن يكون هو مبعوث السلطان.. لكنه رحب به:

- السلام عليكم إفندي. مرحباً بك في قلعة بوخارست. أنا تيمور أوغلو قائد الحامية. أعذرنا لأننا أدخلناك عبر بوابة القبو وليس من البوابة الرئيسية. لكنها دواعي السرية كما تعلم.

أدار أورهان عينيه في كتيبة الانكشارية والخدم التي انشغلت بنقل متاعه وتحرير الخيل من أعنتها. "أحد عشر".. عن أيّة سرية

يتكلم هذا؟ حوله أحد عشرشخصاً سمعوا وعرفوا أن مبعوث السلطان قد وصل!

أدار عينيه في هذا القبو الذي لم ير أعظم منه في حياته. لم يـر قبلاً قبواً يسع عربة بخيولها! أيّة قوة تلك التي كسّرت الصخر لتصنع هذه الحجرات وتلك السلالم التي تُنقل صناديقه عبرها الآن لداخل القصر.

تقدم دينيز أخيراً ووضع نفسه في الصورة:

– السلام عليكم. أنا دينيز آغا، مرافق مبعوث مولانا والمسؤول عن راحته. هل لك أن تأمر أحداً فيرافقنا لحجراتنا؟ لقد كانت الرحلة طويلة والإفندي متعب.

لم يبد على قائد الحرس أنه سعيد بالتعامل مع خصيّ يرافقه فتى رقيع. لكنه، وبدون أن يزيح عينيه عن وجه دينيز، رفع إصبعاً في الهواء فبرز جندي آخر من ورائه. عرف أورهان أن عليه أن يتبعه. حثّ الخطا ليبتعد عن سحنة الضابط المكفهرة وليخرج من هذا القبو الخانق. كان عليهما الخطو بحذر فوق خمسين درجة أو أكثر تم حفرها حفراً على الجدار الصخري للقبو. خطوة واحدة خاطئة وتنتهي المهمة قبل أن تبدأ برقبة مكسورة. فكّر أن فضل تلك السقطة سينسب لڤلاد المخوزق كذلك. سيكون مبعوث السلطان قد أتى ليضيف مجداً آخر لأسطورة دراكولا.. ابن الشيطان.

– اثنتان وستون.

خرجت الكلمتان من فم أورهان بين شهقات تنفسه فالتفت له دينيز متسائلاً:

- ماذا قلت يا إفندي؟

- اثنتان وستون درجة. لقد عددتها.

واصل دينيز التطلع له بدهشة قبل أن يعلق:

- أنت تتمتع بموهبة ملاحظة جيدة.. كما سمعتُ عنك.

لم يعره أورهان اهتماماً. منذ عشرين يوماً والخصيّ يلف ويدور ليعرف السر وراء اختيار مولانا له. عشرون يوماً مـــارس خلالهـــا صنوف المناورة والاستجداء. سأل بشكل مباشر أحيانـــاً وحـــاول إيهامه في أحيان أخرى بأنه "سمع" أشياء عنه.. لكنه كاذب. لو كان يعرف شيئاً لما تحرّق هكذا لثلاثة أسابيع كي يحصل من أورهان على ما يشبع به فضوله الأنثوي.. ذاك الذي اكتسبه بعدما طارت خصيتاه على ما يبدو. وجد أورهان متعة عظيمة في تجاهله. في جعله يغلـــي هكذا بحرارة التوق للمعرفة. من جهةٍ كان أورهان يطبق مبدأ السرية في أبسط صوره.. إذا كانت قصته مع الشيخ نور الـــدين، وحـــتى تفاصيل مغامرته القصيرة في حلب، قد وصلت للسلطان بشكل ما.. فذاك لأنه السلطان. ومن جهة أخرى كان يسلّي نفسه باستفزاز هذا الآغا الخصيّ.. يجد شيئاً يزجي به وقت الرحلة الطويل. لكن دينيـــز قد بدأ يغضب لكل هذا التجاهل. لاحظ ذلك في وجهه.. أو هكذا ظن. لأن العتمة داخل القصر لم تكن بأخف منها في القبـــو. بـــدت قلعة بوخارست من الداخل وكأنها سرداب متعدد الطبقات. جدرانها مبنية من حجارة سوداء لا تعكس أضواء المشاعل بل تزيد للظـــلام ظلمة. التصق الاثنان وهما يجاهدان ليلحقا بالجندي الذي توغل بهما أكثر في متاهة من الممرات حتى وصل بهما لحجرتيهما.

كانت صناديق المتاع والأكياس موضوعة على الأرض الآن وبجوارها وقف خادمان وجارية. تعلقت عينا أورهان بها.. أول أنثى يراها من عشرين يوماً. لم يستطع تبيّن ملامحها التي تراقصت عليها ظلال المشاعل ولا عينيها المرخيتين للأرض. خاطب دينيز الخدم بلهجة آمرة هي من صميم عمله:

- نريد الحمام جاهزاً الآن. ونريد العشاء بعد ذلك مباشرة.

لم يتحرك أحد منهم. اختلسوا لبعضهم نظرات مرتبكة. قبل أن يسألهم دينيز:

- هل يتكلم أحدكم التركية أيها الأوباش؟

همس أحدهم:

- أنا.. قليل!

زفر الخصيّ في تأفف قبل أن تنهمر من بين شفتيه بعد ذلك جُمل ذات رنّة لاتينية.

تفرق الخدم لتنفيذ الأوامر. تابعت عينا أورهان الجارية حتى اختفت في ظلام الممرات.

حين التفت لدينيز مجدداً كان هذا يرمقه ببرود. ابتسم أورهان في كبرياء مقصودة. وكأنه يتفاخر بإيغاله في متعة لن يفهم الخصيّ أبداً معناها.. أو لعله ما عاد يذكر. قال ليغيّر الموضوع:

- ما هذه اللغة؟

- رومانية. يتكلم العوام هنا مزيجاً من اللغات. المتعلمون يجيدون اللاتينية القديمة وستستطيع أن تتواصل معهم لو عثرت على أيٍّ منهم. معظم القرويين أميّون لا أمل فيهم.

- لم أعرف أنك تجيد لغات أخرى.

- أنا أجيد مهارات فوق ما تتصور يا إفندي. تعييني لمرافقتك لم يكن اعتباطياً.

"*هكذا إذاً*"..

فكّر أورهان أن دينيز غاضب بحق وأنه يبحث عن مشاجرة. كان هذا إغراء يفوق قدرته على المقاومة. قال وهو يتشاغل بفك أمتعته:

- أجل.. أنت عُيّنت لمرافقتي ولخدمتي أيضاً. تلك كانت كلمات الصدر الأعظم بالحرف. والآن أرجو منك أن تذهب وتتأكد من تجهيز الحمام لأن أولئك الخدم لم يدخلوا واحداً منذ دهور كما يبدو. ثم اذهب وأسأل لي، يا آغا، إن كانت تلك الجارية معدة لي الليلة أم أن هناك سواها.

وصله صوت الأنفاس الثقيلة والخطوات الغاضبة لدينيز. ارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة واستشعر لذةً بإهانته. لكنه نسي ذلك كله حين ألقى بنفسه على الفراش الوثير الذي لم يلامس مثله منذ ثلاثة أسابيع. وحين غطس جسده في الحشوة الفاخرة أكثر، قرر أن جسده لم يلامس شيئاً كهذا منذ أن ولدته أمه!

لم يكن الحمّام أكثر من قاعة حجرية أخرى وُضع برميلاً ماء ساخن في منتصفها، وتوهجت كومة من الجمر المتقد في ركنها.

أحس أورهان بالخيبة.. لكنه استعجل انسكاب الماء الحارّ على جسده. لم يلبث هو ومرافقه أن غطسا في البرميلين بينما اثنان من الخدم يفركانهما جيداً بقطعتي صابون رخيصتين.

- أنا مندهش يا دينيز. ألم يسكن رادو بيك هذا القصر؟ أهذا حمام والي ولاشيا؟

لم يردَّ عليه. ما يزال غاضباً إذاً. قرر أن يجرب حظه مع أحد الخدم. أدار عينيه في وجوههم المغمورة بالعرق والبخار الساخن. ودّ لو أن تلك الجارية كانت هي التي تفرك له ظهره بالصابونة الآن. تكلم باللاتينية:

- هل يفهمني أحدكم؟

رفع أحد الخدم رأسه وفي عينيه نظرة أقل غباوة:

- قليلاً سيدي.. من الكنيسة.

تطلع لدينيز في انتصار. معلوماتك غير دقيقة أيها الخصيّ ولن أكون تحت رحمة إجادتك للغات الخرافية. زاد وجه دينيز احتقاناً.

- قل لي يا ولد. هل كان رادو بيك يستحم في برميل كهذا؟

بان الارتباك على الفتى. شعره أشقر قصير وعيناه تدوران كعينيّ يعسوب. تبادل النظرات مع رفاقه مرة أخرى. إما أن هؤلاء الخدم لا يثقون ببعضهم أو أنهم متواطئون معاً.

- بل كان يستخدم الحمّام الكبير يا سيدي.

- جميل.. ولماذا لسنا الآن في ذلك الحمّام الكبير؟

- إنها تعلميات الجندي القائد يا سيدي.

"الجندي القائد؟" ..

استرجع أورهان ملامح قائد الحامية الفظّة ونظراته العدوانيـــة. ماذا كان اسمه؟ تيمور أوغلو. سيكون نيل ثقة ذلك الثـــور تحديـــه الأول هنا. لكن لا بأس من بعض التقصي والتحقيق أولاً.

– ما اسمك يا ولد؟

– رادو يا سيدي.

– هه.. مثل اسم السيد السابق؟

يبتلع الخادم المسكين ريقه ويهزّ رأسه بصـــمت. يعـــرف أنـــه يستحضر النحس على نفسه.

– قُلّ لي.. هل كنـــت تعمـــل بالقصـــر حـــين مـــات رادو بيك؟

أحس بالتوتر يسري بين الكلّ كالنفط المشتعل. الخادم الذي عند كتفيه توقف عن الفرك بغتة. حتى دينيز استشعر شيئاً فـــأدار رأسه بينهم كالقط ونقمته تتصاعد لعدم إحاطته بكامل الحـــوار. لكن كل الآذان التقطت عبارة "رادو بيـــك" وفهمـــت مـــدار الحديث.

صمت الفتى للحظة أخرى قبل أن يعود للفرك ويتكلم:

– أنا جديد. لكن..

– لكن ماذا؟

– آلين كان هنا وشاهد الموت.

نقل بصره لهذا الآلين الواقف عند الباب محملاً بالمناشف وقـــد التصقت ثيابه بجسده من شدة التعرق. بين سحب البخار لمح نظـــرة المقت في عينيه لصاحبه الذي وشى به لتوه.

"كيف كنت يا آلين ستعرف أن رادو قد وشى بك لو لم تكن تفهم اللاتينية أنت أيضاً؟ لماذا لم تقل يا آلين أنك تفهم اللاتينية حين سألتُكم منذ دقيقة؟" .

غرف أورهان من ماء البرميل ومسح وجهه. أخذ الصابونة الرخيصة من يد الخادم وشرع يدعك أسفل ذراعيه بإخلاص قبل أن يسأل:

- قل لي ماذا رأيت يا آلين.

لم يصدر الخادم صوتاً لبرهة. اضطر أورهان لأن يحدجه قبل أن يتنحنح ويمسح عرقه برمانة كتفه محاذراً تساقط قطراته على مناشف السادة. قال أخيراً:

- أنا أفضّل ألا أخوض في هذا الموضوع يا سيدي.

"*هذا واحد فصيح*". فكر أورهان أن كل الخدم في هذا القصر متعلمون في الكنائس على ما يبدو.. أو أن دينيز يهرّف بما لا يعرف.

آمرك بأن تجيب على سؤالي بالتفصيل. وإلا فسألقي بكم كلكم في زنازين القصر.

قالها مع أنه لا يعرف يقيناً إن كان بهذا القصر زنازين. لكنه راهن على الاحتمال. استشعر للحظة لذة التحكم بمصير إنسان.. اللذة التي بات يستكشف طلائعها مؤخراً بفضل المنّة السلطانية. انتشى حين لاحظ امتقاع وجه الخادم الذي مسح وجهه بتوتر أكثر بكتفه الثانية. فكّر أورهان أن الحمام الساخن يمثل غرفة استجواب ممتازة. هذا الحر الخانق سيحدّ من قدرة أيّ عقل على المناورة والكذب.

- يا سيدي، لقد لقي رادو بيك مصرعه في الحمام الرئيسي.

تحفز أورهان.. اختلس نظرات سريعة للخدم الثلاثة الذين يحيطون بهم. هذه معلومة لا تبشر بالخير. قُتل في حمّامه إذاً. واصل آلين بدون أن يدرك كم يستفز كلامهُ محدثَه:

- كنت أعمل على خدمته ليلتها أيضا. جهزّت له الماء الساخن ووضعت له المناشف والزيوت ثم انصرفت وتركته لوحده.

ابتلع أورهان ريقه وشرع يعاين ما حوله بحذر أكبر. التشابهُ بين المحكيّ والحاصل كان مثيراً للريبة.. بل للخوف.

- تركته مع خادم آخر؟

- بل تركته لوحده. كان رادو بيك لا يحب أن يراه أحد في الحمام. كان.. كان يخجل من جسمه. هكذا سمعتهم يقولون بين الخدم. لأن المسلمين شوهوه يقولون.

قلّب أورهان الكلام في عقله للحظة قبل أن يخلص لاستنتاج..

"هل يقصد بسبب ختانه المتأخر؟ هل استخدموا عليه موسى قديمة مثلاً؟ هذه معلومة مدهشة!"..

واصل الخادم:

- تركته لوحده ثم بعد دقائق قليلة سمعت الجلبة فهرعت للحمّام. وجدتُ الكثيرين غيري أتى بهم صراخ الحارس الذي دخل عليه بعدما سمع صوتاً غريباً. لكني لمحت المنظر الفظيع من بين الزحام.

سكت آلين. لاحظ أورهان تهدج أنفاسه. لا شك بأن الذكرى فظيعة بحق.

- ماذا رأيت؟

جاهد الفتى ليقمع توتره. تناول أخيراً واحدة من مناشف السادة التي بين ذراعيه وفردها ليمسح بها وجهه. كاد دينيز يقفز ليشتمه لكن أورهان أشار له بأن يصبر وهو يكاد يقذف الفتى بالصابونة ليستعجله.

- حين وصلتُ كان البيك ما يزال يلفظ الروح. عيناه تدوران باتجاه السقف وفمه فاغر بحثاً عن نَفس هواء. تجمهر الخدم والجند عند مدخل الحمام وقد أذهلهم المنظر. لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه لإسعافه.. لم يجرؤ أحد على مزاحمة ملائكة العذ... الموت. كان البيك ما يزال مستلقياً في الحوض أما الماء فصار قانياً من كثرة ما سال فيه من الدم. دم البيك نفسه. خرسنا كلنا فلا تسمع إلا صوت فحيحه بحثاً عن نفَس هواء. لكن هيهات! رأيتُ جوف حنجرته المفتوحة بعينيّ. والوريد من رقبته كان متدلياً ويشخب بغزارة. أحدهم.. شيء ما.. نهش حنجرة البيك. قضمها كأنها تفاحة ناضجة وتركه ينزف حتى النهاية.

سكت آلين أخيراً وقد وصلت الرجفة إلى كتفيه. الفتيان الآخران رسما الصليب في الهواء وعلى جباههما الشاحبة. لم يفت ذلك أورهان ولا دينيز الذي كاد يتدلى من برميله ليهمس:

- ماذا يقول؟ ماذا يقول؟

انشغل عنه أورهان باسترجاع الوصف المريع..

"شيء ما نهشَ حنجرة البيك.. بينما هو مستلق في حوض حمامه بهذه القلعة.. مثلما أنا الآن تماماً. سحقًا! أي نوعٍ من الأفواه.. ذاك الذي يطبق على عنق إنسان فيلوكه؟!" ..

سرَت رعدة باردة في ظهره وهو يتخيل نفسه مكان البيك المغدور؛ جوف حنجرته بادٍ للعيان، الدم ينهمر من رقبته كالشلال ورئتاه تحترقان لأجل شهقة هواء. ارتجف رغم الحرِّ الخانق، ووقر في قلبه أن في استعادة تلك الأحداث الآن مجلَبة للشؤم.

أحسّ بالرعب يلوي أحشائه، حين تذكر أن نافذة هائلة توجد خلفه مباشرة. ما الذي يضمن له أن "شيئاً ما" لا ينظر له الآن من خلالها ويلعق شفاهه؟ ماذا لو تهشم الزجاج لينقض ڤلاد دراكولا ويأكل حنجرته؟ ذهل حين أدرك أنه، هو الآخر، بدأ يصدق ما يسمع!

خيوط العرق الساخن تسيل داخل عينيه، تتسلل لداخل أنفه مع كل نفَسٍ ثقيل. رادو بيك لم يحظّ حتى بنفَسٍ أخير!

صوت دينيز يفحّ في أذنه بنبرة أشد إلحاحاً.. نفخُ زفيره يقع على عنقه مقتحماً أفكاره السوداء:

- أرجوك يا إفندي ماذا يقول هذا المأفون؟ فهمت بعض كلامه لكن...

- إخرس!

صرخ أورهان وقد استفزه إصرار دينيز إلى آخر درجات الاحتمال.

لم يدرِ متى امتدت يده بصفعة مدوية لصفحة وجه الخصيّ الملساء. تحركت اليد لوحدها وعاقبت وجوده اللزج. امتدت لتفرغ كل شحنة توتره المكبوت في صفعة واحدة لاسعة.

ما كاد يفعل حتى غمره الحرج من انفلات أعصابه هكذا.. من انكشاف خوفه للكل. أشار لآلين اللعين ليتقدم ويستره بمنشفة ليخرج من برميل الاستحمام اللعين الذي تخيله معبأً دماً.

التفت فوجد دينيز يحملق به مصعوقاً. عيناه مغرورقتان وشفته السفلى مبعوجة كطفل كبير يوشك على البكاء. لقد أهانه تماماً هذه المرة.. وأمام الخدم. ضربه وكأنه مملوك.

منذ أن التقيا وهو يتعمد الحطّ من شأنه. جعله يكيّسه في الحمامات ويحمل له إبريق استنجائه في الخلاء. لم ينظر له أبداً كندٍ مع أنهما تقاسما الطريق لعشرين يوماً. بالنسبة له فهو مجرّد خادم خصيّ. أحطّ من الجواري حتى ولا قيمة لكل مواهبه الأصيلة. قرأ أورهان كل ذلك في وجه دينيز الشاحب. اعتراه الذنب الشديد لكن إحساسه بالعار كان أعظم. الآن يعرف كل من يعمل بالقصر أنه وقع تحت وطأة الأسطورة هو الآخر.. أنها تمكنت منه وهزّته من الداخل. مبعوث السلطان أطارت صوابه قصة واحدة. لم ينبس أيّمن الخدم بحرف بينما تلفع هو بالمزيد من المناشف. قال لدينيز بدون أن يواجهه:

– أخرج من الحمام الآن. اذهب لغرفتي وتأكد من أنهم قد جهزّو العشاء وجهزّوا إحدى الجواري أيضاً.

"كم أنا وغد!" ..

بدلاً من أن يسارع للاعتذار له ها هو يواصل انتقاصه. لكنه لم يُجد يوماً فن الاعتذار.

تحرك دينيز ببطء. رفع رجله خارج حافة حوض استحمامه البدائي وأتبعها بالرجل الأخرى. لم ينتظر حتى أن يقدم له أيّ من الخدم خرقة يستتر بها نفسه. مشى عارياً لخطوتين وتناول منشفته بيده. وكأنه يتعمد أن يواجههم جميعاً بعاهته.. أن يذكّرهم ويذكّر نفسه بوضعه الخاص في هذا العالم. يتعمد مواجهة أورهان بعاهته ويعطيه مبرراً ليعامله بكل فوقية واحتقار هكذا. خرج لتنفيذ تعليمات سيده وجسده ما يزال يقطر. الأصول كانت تقتضي أن يجففه أحد. لكن لم يعد ثمة مكان للأصول بعدما جرى.

أما أورهان فقد استمتع بحرارة القدح الساخن بين يديه وهو جالس خارج القاعة العابقة بالبخار الخانق. استبقى آلين وسأله بلهجة محايدة وكأن شيئاً لم يكن:

- ألم يعرف أحد من قتل رادو بيك؟

التمعت عينا الفتى بمزيج من الإجلال والرعب. حدّق في وجهه بدون أن يجيب. فهم أورهان أنه لا حاجة للإجابة.. لأن الكل يعرف.. ولا أحد يجرؤ على لفظ الاسم! كم كان السلطان صادقاً. هذه الخرافة متغلغلة في هؤلاء القوم حتى النخاع.

قرر أورهان أن يغير السؤال:

- ألم ترَ شيئاً ذا قيمة؟ ألم يكن هناك سلاح ملقى جوار الجثة مثلاً؟

– لا شيء يا سيدي. لم يكن معه إنسان بالحمام قبل موته و لم يكن هناك إنسان غير الحارس الذي رآه يموت. لم يكن هناك سلاح و لم يُشاهد غريبٌ في القصر ولا حوله ليلتها. حققوا معي كثيراً قبلك وسألوني نفس الأسئلة.

كان يتكلم ويداه تتحسسان كتفيه. هل يكون الفتى، بوصفه آخر من رأى البيك حياً، قد جُلد ليعترف بأيّ شيء؟ من المدهش أن يستمر بالخدمة في القصر بعد ذلك كله!

– لكني أذكر شيئاً غريباً واحداً. قلت ذلك لرئيس الحرس فصفعني. حسبني أسخر منه!

رفع أورهان رأسه في اهتمام للخادم الذي هرش رأسه قليلاً:

– حين سمعت صياح الحارس ركضت باتجاه الحمام مذعوراً. رأيتُ عبر الممر الضيق الناس يتزاحمون عند الباب. قبل أن أصل ضربني جسد ثقيل في وجهي بغتة. كاد قلبي يتوقف من الرعب. ولما لاحقته بعيني رأيت خفاشاً ضخماً.. رفرف بجناحيه عالياً وغاب في الظلمة.

– خفاش؟! ما الغريب في وجود خفاش بقلعة كهذه؟

– أنت سألتني وأنا جاوبت يا سيدي. كان هذا الشيء الوحيد الغريب الذي حصل ليلتها.. إلى أن وقعت عيناي على الجثة. لأول مرة يظهر لي خفاش بهذا المكان.. ويرتطم بوجهي! لم يجرحني لحسن الحظ. أظن أن حجمه كان هائلاً أيضاً كأنه قط مجنّح. ثم تجاهلتُ أمره حين رأيت ما رأيتُ في الحمام.

هزّ أورهان رأسه. كلامٌ كثيرٌ متداخل قد لا يكون له أيّة معنى. أميرٌ ولاشي مفتوح الحلق، وشهود لا يمكن الوثوق بهم، وعقليات غارقة في الخرافة والرمزية.

أراد أن يوجه سؤالاً آخر لهذا الفتى الذي يعرف الكثير كما يبدو حين وثب قلبه لحنجرته في هلع.. أمامه وثب آلين قدماً في الهواء. تطلع الاثنان لبعضهما وركبهما تصطك.

سُكون القلعة شقتّه صرخة أنثوية مدوية.. صرخة محملة بمعاني الرعب والويل والاستجداء!



-6-

لم يعرف أورهان إن كان يرتجف فرَقاً، أم بفعل الهواء الذي يضرب جسده العاري. تشبث بالمنشفة حول وسطه وباطنا قدميه يضربان حجارة الأرضية الباردة. أمامه كان آلين يركض مرتجفـاً هو الآخر باتجاه مصدر الصرخة المريعة.. شفتاه تتمتمان بصلواتٍ خافتة.

فيما هو يركض،أدرك بهلع أنه يعايش ذات التفاصيل التي سمعها منه منذ قليل. دعا الله من أعماق قلبه ألا تتكرر المشاهد بحـذافيرها. لكن ما شاهده أطفأ كل بارقة أمل في نفسه.

فعبر الممر المعتم، كان الزحام ذاته الـذي وصـفه آلـين. لم يتجمهروا هذه المرة أمام مدخل حمام البيك.. بل أمام حجرته هـو! نفس الحجرة التي استرخى على فراشها قبل ساعة محاطـاً بأمتعتـه. نفس الحجرة التي يفترض أن يرتاح بها بعد حمامه ليقضي ليلته بحسب ما رتّب له خادمه ومرافقه دينيز.

دينيز!

أحسّ بحمل مضاعف على قلبه المنهك حين تذكر كيف أخطأ بحقه وأذلّه منذ برهة. إنه مدين له باعتذار حقيقي. دينيز العزيز الذي

رافقه خلال رحلة طويلة موحشة علّمه خلالها الكثير وكـــان نِعـــم الصاحب.

دينيز.. لماذا يفكر فيه الآن الذات؟

توقع أن يفسح له المتجمهرون حين يرونه قادماً. فهذه حجرته بعد كل.. وهو مبعوث السلطان. كلهم يعرف ذلك. لكن أبصارهم لم تتزحزح عن المشهد في الداخل. لم يعره أحد أيّ اهتمام و لم يدروا بوجوده. كانت هناك فقط وجوه مصفرة طافحة بالذعر. شـــهقات ملتاعة والكثير من علامات التصليب والصلوات في الهواء. تشـــبث بالخرقة حول وسطه أكثر واقتحم الأجساد اقتحاماً حتى نفذ لداخل الحجرة. تجاوز الجميع وهو يهتف:

– ابتعدوا.. أنا أور...

ثم لم يتمالك الصرخة الهائلة التي دوّت من حلقه رغمـــاً عنـــه. ارتمى للخلف وهو يشهق والدموع تطفر من عينيه. دمـــوع الهلـــع وعدم التصديق.

أمامه على أرض الحجرة.. كان دينيز يحدق في الفراغ بعيـــنين ميتتين. جسده الصغير مكوم على الأرض. رقبتـــه ملتويـــة بزاويـــة يستعصي على الأحياء تقليدها. وكأن قوة خيالية عصـــرتها عصـــراً. كان دينيز.. المسكين دينيز.. يسبح فوق بركة دم ما تـــزال تكـــبر وتتدفق محتوياتها عبر الشق المريع الذي في جانب رقبته. شـــقٌ بـــدا وكأنه فم ثانٍ فاغر.. شقٌ تكوّن بعد انتزاع قطعة من لحـــم العنـــق وغضاريفه.. فكأن كلابة فولاذية قد أطبقت عليه و لم تغادر إلا وقد اجتزأت كتلة منه.. أو كأن كائناً.. شيئاً ما قد قضم منه قضمة هائلة

بأنياب لا يمكن تخيل حجمها. اندفعت الأفكار في رأس أورهان فيما عيناه الجاحظتان تواصلان تسجيل المشاهد وحلقه يواصل إصدار صرخات الهلع.

الشق المريع يبادله التحديق،يتفجر بالمزيد من الدماء، وبسوائل أخرى هي خليط من كل ما كان سيمر بالحنجرة الممزقة وصار يندلق الآن عبرها خارج الجسد الميت.

وهذه الرائحة، لاذعة وكثيفة. رائحة اللحم الطازج الحار، رائحة حوانيت القصابين وساحات ذبح الأضاحي، رائحة جسد دينيز المفتوح والمكشوف من الداخل.

لم يكن دينيز يتلوى، ولا كانت رئتاه تقاتلان بحثاً عن نفس الهواء الأخير. كان قد مات جداً. بالرغم من أن دمه الذي وصلت حدود بركته لقدمي أورهان ما يزال ساخناً.

تلفَّت أورهان حوله عبر غشاوة الدموع. مسح بظاهر كفه المخاط المتدلي من أنفه وصاح بصوت شوّهه الخوف والارتجاف:

– من فعل ذلك؟ اعثروا عليه. إن القاتل لم يبتعد كثيراً.

لكن أحداً لم يتحرك. كلهم تسمروا في أماكنهم يتطلعون للمشهد في وجوم. لاحظ بين الوجوه فتاة شقراء تنهنه وترتجف أكثر منه. عيناها لا تبارحان الجرح الفاغر، الثاعب بالدم والمكللة أطرافه بمزق الجلد واللحم. زحف على يديه وركبتيه خائضاً في السائل الصدئ. زاد رعبه حين تأمل أكثر في وجه الجثمان. نشج عالياً وهو ينظر في اللسان المتدلي، في الأسنان التي أبرزها تكشيرة معاناة أخيرة.

يا للمسكين دينيز! رفع يده ليغلق الجفنين. أصـابعه تهتـز ولا تطاوعه. وحين شاهد قطرات الدم تتساقط منها.. دم دينيز الـذي يحوطه من كل جهة.. صرخ برعب مجدداً. ثم وقعت عيناه على الزر النحاسي البرّاق.

زرٌّ أكبر من أن يحتمله قفطان الآغـا المتواضـع. زاد ارتباكـه وذعره حين تبدت له المعالم المخيفة لهذا الشيء. ليس زراً.. بل أقرب ما يكون لحلية معدنية. التقطه بأصابع ملوثة. حلية أكبر من الـدينار الذهبـي، منقوشة بمهارة، أقرب ما تكون لتمثال مسـطح. نقـشٌ لثعبان.. بل لوحش.. له خطم وقوائم وذيل.. وحشٌ ذيله يمتد أسفل منه مُكملاً الدائرة ملتفاً حول عنقه.

"بحق الله والنبـي.. ما هـذا؟ مَـن وضـعه علـى صـدر دينيز؟" ..

رفع الحلية على راحته والتفت للجمع خلفه. أراد أن يسأل عن هذا الشيء العجيب. لكن من وسط الزحام برز تيمور أوغلو. علـى وجهه كل غضب الدنيا وقسوتها. حمَله من تحت إبطيه وأوقفه. هزّه من كتفيه بعنف حتى ظن أنه سيخلعهما:

- كن رجلاً وتوقف عن البكاء تباً لك! لا تفضحنا أمام الخدم والعبيد.

ألقى الانكشاري نظرة فاحصة على الجثة المشوهة. أخذ نفسـاً عميقاً ثم التفت للحشد. لم تخرجهم من صدمة رعبـهم إلا سـحنته المخيفة وصوته الراعد:

- من الذي كان هنا أولاً؟ من التي أطلقت تلك الصرخة؟

لم يحر أحد جواباً. لكن بعض العيون تحركت نحو الشقراء الباكية على الأرض. اقترب منها أوغلو. حرّك يده في الهواء فانتصب أحد جنوده أمامه:

- إسألها عن الذي شاهدته بالضبط. ما الذي جاء بها لهنا؟ هل رأت أحداً يغادر الحجرة؟

تدفقت الأسئلة من بين شفتي الجندي بلغة أخرى.. لعلها الرومانية التي أجادها دينيز. لكن الفتاة لم ترفع عينيها عن الجثمان الممزق ولا بدا أنها سمعت شيئاً. تطلع الجندي لرئيسه الذي قطّب جبينه وهزّ رأسه.

في لحظة هبطت كف الجندي على صدغها بصفعة مزلزلة. هوَت المسكينة أرضاً وخيط دم يسيل من طرف شفتها. أدارت رأسها فيمن حولها وكأنها تراهم لأول مرة.. ثم انطلقت في نوبة صراخ مجنون بعدما أعادها الانكشاري غصباً لوعيها. قالت بين نحيبها أن الآغا استدعاها لتجلب العشاء. قالت أنه أمرها بأن تتزين وتُعدّ نفسها لتبيت مع الإفندي الليلة. وقالت أنها غادرت لتنفذ. أوصدت الباب خلفها وحين ابتعدَت بمقدار عشر خطوات هُيء لها أن سمعت صوتاً من الداخل. ظنت الآغا يناديها ففتحت الباب مجدداً لتجده يتخبط في دمه.. لم يكن سواه في الحجرة.

أجهش أورهان مجدداً في نوبة بكاء صامت. أحس بيد باردة تعتصر قلبه وكتلة ندم هائلة تحطّ على كاهله. ياللعزيز دينيز.. المسكين دينيز.. مات وهو ينفذ آخر طلباته.. بالرغم من كل ما حصل!

دوى صوت أوغلو في الحجرة بالأوامر لأتباعه:

- أريد كل الواقفين هنا الآن محبوسين في الزنازين لنأخذ أقوالهم في الصباح. أقفِلوا أبواب القلعة فلا يخرج منها كائن أو يدخلها بدون إذني أنا. أريد من يذهب ويتحقق لي من الحرس على الأبراج إن كانوا شاهدوا أحداً.. أو شيئاً.. يتسلل عبر هذه النافذة المفتوحة. نفذوا!

عاد الحشد للواقع حين أدركوا أن فضولهم قد ورطهم، أنهم سيبيتون ليلتهم في السجن كشهود إثبات. ساقهم الجند غصباً كالقطيع.

انقض أحدهم على آلين الذي كان هو الآخر يحدق في جثة دينيز ويرتجف. يحدق في الظاهرة المرعبة لثاني مرة في حياته وقد اقتنع تماماً بأسطورة الشيطان دراكولا.. هو وكل بني قومه الذين شاهدوا ما شاهد. في اللحظة التي سيخرجون فيها من سجنهم، فإنهم سيعززون الخبر في أنحاء الروملي وما تحتها.. خبر ابن الشيطان العائد من الجحيم.

وجد أورهان من يضع عباءة على كتفيه ويقوده للخارج. رفع وجهه المبلل ليجد أوغلو يحدجه:

- سندفن التعس كما يليق بالمسلمين. أما أنت فستنام بين الجنود. سأرتب أمر عودتك لإسطنبول في النهار.

فتح أورهان فمه ليحتجّ. إلا أن الانكشاري الكهل عصر معصمه بقبضته حتى جعله يتأوه من الألم. همس بلهجة تقطر وعيداً:

– لا ينبغي أن تكون ذكياً لتدرك أن من قتل الآغا إنما كان يقصدك أنت. لا أمان لك هنا. وبكاؤك كالنساء أثبت لي أنك لست أهلاً للتكليف السلطاني. لا أريد أن أقف على جثتك الممزقة فتتعقد مهمتي أكثر.

اشتعل صدر أورهان بالغضب. أراد أن يحرر معصمه وينقض على أوغلو اللعين ليثبت له أنه ليس بالضعف الذي يحسبه. أراد أن يكفّر عن كل إساءاته لدينيز بتهشيم أنف هذا المتغطرس. لكنه في اللحظة التالية انهار تماماً. دخل في نوبة بكاء أخرى حين تذكر الجسد الدقيق وتخيل شكل الشيطان الذي نهشه حتى الموت. أطرق بصمتٍ مُحكماً قبضته على القطعة المعدنية التي قرر أن يحتفظ بها لنفسه.

سار بكل انقياد مع أوغلو عبر الممرات ذاتها. هبط معه للقبو. اثنتان وستون درجة أخذها أورهان نزولاً هذه المرة إلى حيث سيقضي ليلته محاطاً بالحرس المدججين بالسلاح. سيكون هكذا في مأمن إلى أن يضعه قائد الحرس في عربته ويعيده لإسطنبول مكللاً بالعار.

أُفسح له مكان بين مهاجع الجند. تلقته نظرات الازدراء من الرجال الأشداء. وضع رأسه على الوسادة وأغلق عينيه بشدة فطالعه وجه عفريتذي ذي أنياب كالخناجر تنغرس في رقبته هو بالذات. راح يردد المعوذات وينفث حوله.

قرقر بطنه. أراد أن يطلب طعاماً لكنه تصوّر أن ذلك سيجعل الجند يحتقرونه أكثر. وصلته أصوات بعضهم وقد عادوا من مهام مراقبتهم. أحدهم كان يخاطب تيمور أوغلو:

- سيدي لا شيء مريب في محيط القلعة. ومراقبو الأبراج يؤكدون أنهم لم يشاهدوا ما يلفت الانتباه عبر النوافذ. واحد منهم فقط يقول أنه كان ينظر لتلك الجهة بالصدفة قبل أن تصرخ الفتاة، ويذكر أنه شاهد ما يشبه.. الخفاش.. خفاش كبير يخرج من تلك النافذة مرفرفاً في سماء الليل.

في الصباح استقبلته الشمس الكابية ذاتها، ساحة البلدة البائسة ذاتها، والأشجار الجرداء ذاتها. نفس المناظر التي طالعها البارحة، *"البارحة فقط"*، عبر نافذة عربته في طريق قدومه. إنما هذه المرة كان يتأملها بعكس الاتجاه، عائداً من حيث أتى، قابعاً في العربة ذاتها.. إنما هذه المرة بدون رفقة دينيز.

لم يترك له تيمور أوغلو أيّ مجال للمناورة. ما أن استيقظ حتى كان خادمٌ يضع أمامه إفطاراً ويقدم له ملابس نظيفة. تذكر لدهشته أنه لم يأكل أو يلبس شيئاً منذ حمّام الأمس، وأن جسده يفوح برائحة دم دينيز الذي تمرغ فيه البارحة. أفسد ذلك مزاجه تماماً وأفقده كل شهية.

ما أن نظف نفسه، فرك الدم المتجلط عن أظفاره بفرشاة الخيول، وارتدى ثيابه، حتى كان جنديان يقفان عند رأسه. أشارا للعربة التي كان سائسها جاهزاً للانطلاق. عندها كان أوغلو ينتظر ويرمقه في ضجر. لم يتبادلا كلمة واحدة. ما أن استقر أورهان داخلها حتى طرقع

سوط العربجي وتحركت الخيل. هذه المرة لم يغلق أحد عليه باب العربة بقفل، ولم يرافقه سوى فارسين. قدّر أهما سيفارقانه ما أن يعبر الدانوب. لا خطراً حقيقياً سيتهدد مبعوثاً سلطانياً فارّاً.

الشمس الكابية ذاها، ساحة المدينة البائسة ذاها.

عبروها ببطء هذه المرة. أتيح له أن يتملى أكثر في معالمها وفي وجوه الناس. كلهم تركوا ما بأياديهم وراقبوا الموكب الصغير بفضول.

"هل يعرفون أني بالعربة؟ هل يعرفون من أكون؟" ..

لاحظ انتشار عسكر الانكشارية الحمر عبر المدينة. والصلبان المعلقة على أبواب الحوانيت والبيوت. أكثر بكثير من أيّة بلدة مسيحية مرَّ ها قبلاً.

"هل لهذا علاقة بخرافة ابن الشيطان؟" ..

حين استحضر ذكر الشيطان، تذكّر الشيء الذي خبأه بحرص منذ ليلة البارحة. أخرجه وفحصه تحت ضوء الشمس لأول مرة. الحلية المعدنية التي وجدها على صدر جثمان دينيز. يدٌ ما وضعتها هناك عمداً. الشخص.. أو الوحش الذي قضم حنجرته.. تركها عمداً ليراها من سيجد الجثة.

حليةٌ مشغولة بإتقان. نقشٌ لوحشٍ ذي ذيل طويل.. يمتد ليلتف حول عنقه. حملق بالأصابع المخلبية الدقيقة، لاحظ الصليب المرسوم بامتداد ظهر الكائن.. يبدو أشبه ما يكون بتمساح.. ورَل أسطوري ذي ملامح شيطانية.. أو...

غاص قلبه بين أضلعه. كاد يضرب بيده على جبهته.

"يا لي من غبـي!" ..

هذا تنين.. لا يمكن إلا أن يكون تنيناً! حُلية على شكل تنين يحمل صليباً، في قلب قلعة ابن التنين دراكولا، موضوعة على صدر آخر ضحاياه.

تسارعت دقات قلبه ونزَّ عرق الذعر من كل مسام جسده. فقد بغتة كل إحساس بالأمان وتقلصت أمعاؤه. لم يتوقع أن يصل استفزازه.. ذلك القاتل المجهول.. لهذه الدرجة من الصفاقة. كانت إشارة واضحة لكنه لم يستوعبها في معمعة أهوال الليلة الفائتة.

التنين ضرب ضربته مجدداً وترك تذكاراً وراءه. هل ترك مثلها حين قتل رادو بيك؟ الصدر الأعظم قال أن عدة جرائم مماثلة وقعت. هل حمل الضحايا الآخرون ذات علامة التنين على صدورهم؟ من هم القتلى الآخرون؟ ما علاقتهم بفلاد المخوزق؟ رادو كان شقيقه الذي خانه وحالفَ العثمانيين، والذي قتلَ دينيز فعلها وهو يظن أنه يقتل مبعوث السلطان. قتله في أول ليلة له في قلعة بوخارست.. قلعة دراكولا ابن الشيطان سابقاً. كيف عرف بقدومه؟ كيف أتيح له أن ينفذ جريمته بهذه السرعة الخاطفة وبهذا الاتقان؟ هل سيواصل حتى بعد رحيل مبعوث السلطان.. خائباً خاسراً يجرجر أذيال الخيبة؟!

هل يفلح الأحمق أوغلو في استخلاص أيّ اعتراف من الخدم؟ وما شأن الخدم في كل ما جرى؟ إن هم إلا فلاحون فقراء. فلاحون إنما متعلمون جيداً يتقنون اللاتينية! كيف يتفق أن يجتمع هذا العدد من الفقراء المتعلمين في قلعة والي بوخارست العثماني.. حيث وقعت جريمتان منسوبتان لابن الشيطان حتى الآن؟!

وضع رأسه بين كفيه وقد عصفت به الأسئلة. تـــذكر الطلّـــة السلطانية وتذكر ثقة مولانا به. أيّ ابن شهيد هو؟ بل أيّ فاشل هو؟ لم يكد يقضي ليلة في مقر مهمته وها هو يُعاد من حيث أتى.

تطلع من الشباك لجذوع الأشجار العالية المدببة، المنتصبة علـــى جانبـــي الطريق كآلاف الخوازيق. تخيلها كلها محملة بالجثث الدامية المهترئة. تخيّل الأفواه التي اخترقتها منها النهايات المدببة وتخيل محاجر العيون التي ترتع فيها الديدان.. ثم تذكر نظرة الأسى في عيني مولانا. تذكر دينيز.. وتذكر استهزاء الأساتذة بـــه وبمنطِقـــه في المدرســـة السلطانية.

انقشع إحساسه بالخوف والهزيمة وحلت محلهما رغبة عارمة في الانتقام وفي الظفر. يجب أن يعود لبوخارست.. يجـــب أن يعـــرف حقيقة ما يجري.. رغماً عن تيمور أوغلو ورغماً عن الشيطان ذاته.

فتح شباك العربة وتدلى منه. سيعيد الكرّة إنما على نحو مختلـــف هذه المرة.

صرخ بعلو صوته:

- توقف يا عربجي.. توقف عليك اللعنة.. مثانتي ستنفجر!

هذه المرة لم يتكلف الانكشاري عناء حراسته وهو يبـــول. لم تكن لدى هؤلاء ذات التعليمات الصارمة بحمايته في كـــل لحظـــة. اتكأوا على سرُجهم وهم يتطلعون له بضجر. أعطاهم ظهره وتظاهر

بأنه يفك حزامه. ثم توغل في الغابة أكثر لاعناً كل ورق الشجر هــذا الذي يفضح كل خطوة من خطواته.

جاءه صوت أحدهم:

- إلى أين تذهب يا إفندي؟ لا تبتعد وراءنا طريقٌ طويل!

رد عليه بتحدٍ:

- إذا أردت أن تتفرج فتعال.. وإلا دعني أختلي بنفسي وما أفعل.

أطلق الانكشاري سبة لم يتبينها ثم انشغل بالحديث مع صاحبه. لاشك أنهما يسخران منه.. من الفتى الإسطنبولي المخنث الذي يبكي كالنساء أمام منظر الدم! فليذهبا للجحيم.

توغل أكثر بين الجذوع المدببة. وحين بات يسمع صوت حوارهما بالكاد، حين زادت العتمة أكثر بتعمقه بين صفوف الخوازيــق هــذه، التفت وراءه ليتأكد أنه غاب تماماً عن أعينهما.. ثم أطلق ساقيه للريح!

ركض كمن يفرّ بحياته. لم يكن يعرف إلى أين تأخذه رجــلاه. كل ما كان يعنيه أن يهرب فلا يعثرا عليه. تمنى أن يجد كهفاً أو شلال ماء ليختبئ وراءه. ثم خفق قلبه حين تخيل ما يمكن أن يصادفه في غابة موحشة كهذه. ركض وركض وهو يدعو ألا يفضحه صوت رجليــه فوق الورق اليابس. حسب أنه سمع من يناديه فالتفت وراءه. مخيلتــه استحضرت جثة دينيز.. تركض وراءه برأسها المتدلي علــى صــدرها وتنفث الدم من فتحة عنقها. لا بد أن دينيز قد مات بدون أن يسامحه. هل يتحالف هو الآخر مع الشيطان ويعود لينتقم منه؟

الهواء الخريفي البارد آلمه في صدره وهو يجــري كالملســوع. ملامح الغابة المتشابهة جعلته يفكر في أنه قد يجري في دائــرة ليعــود للعربة بدون أن يدري.

سمع اسمه. لا شك في أنهم ينادونه هذه المرة. لو لاحقوه بخيلهم فسيصلون إليه في لحظات. وضع يده في جيبه وقبض على النقش النحاسي. تذكر أنه لم يحمل معه زاداً من عربته.

"غبيّ! غبيّ!" ..

وصله صوت حوافر الخيل تضرب الأرض باتجاهه، ثم لمح شجيرة خضراء ذات أوراق عريضة من بعيد. زاد من سرعته وأحس بحجابه الحاجز ينقبض متشنجاً. ألقى نفسه على الأرض وتمرغ بين الورق الأسود حتى وصل للشجيرة. اختبأ خلفها وراح يعب الهواء عباً. ثم كتم أنفاسه حين لاح له الانكشاريان على صهوات حصانيهما. التصق بالأرض مرتقباً. بدا له مخبأه الآن مفضوحاً ومميزاً في جوف الغابة. فكر أن يركض مجدداً لولا أن رأى مطارديه أمامه مباشرة. يبصرهما ولا يبصرانه. عيناهما تجوبان الغابة في ذعر وحصاناهما هائجان:

- أين ذهب ابن الساقطة؟ هل يكون الشيطان قد نال منه هو الآخر؟

- دع عنك هذا الكلام يا أحمق واهتم بنفسك. إذا لم نعثر عليه فستتمنى أن ينال منك الشيطان مقابل ما سيفعله بك تيمور أوغلو لو عرف أننا ضيعناه!

مكثا حائرين.. لا يفصل مخبأه عنهما إلا ذراعان أو ثلاثة. لم يلبثا أن لكزا حصانيهما وتفرقا في اتجاهين للبحث عنه.

التقط شهقة عميقة أخيراً. أحس بقلبه يدق في حلقه وبثيابه مبللة تماماً بالعرق. هبّ هواء بارد جعله يدرك حجم ورطته. سيحتاج لأن يمشي لساعتين كي يصل لبوخارست مجدداً.. هذا إذا لم يعثر عليه الجنديان.. أو يقتنصه ذئب.."*أو ما هو أسوأ!*".

أصاخ السمع ليتأكد من ابتعادهما. اعتدل واقفاً وتلفت حوله. بحث عن الشمس عبثاً.. كيف سيحدد اتجاهه؟

لعق شفتيه الجافتين. فكر أن يعود للعربة ويعطي العربجي خواتمه الذهبية وكيس دنانيرٍ مقابل كتمان السر وأحد الأحصنة. وفي اللحظة التالية ضربت عقله صاعقة رعب وكادت الروح تفرّ من جسده.

أحاطت بفمه وأنفه يدٌ زرقاء معروقة بقوة مريعة. فرغت رئتاه من الهواء في صرخة مكتومة لم يُكتب لها أن تنطلق. حاول أن يقاوم فاكتشف أن ذراعاً جبّارة أحاطت بساعديه. اتسعت حدقتاه في ذعر وحشي وهو يرى الأظافر المخلبية لليد التي تحبس أنفاسه. قاوم وقاوم بلا أدنى فائدة.

برقت بعقله صورة الشق الفاغر في رقبة دينيز.. ووصفُ احتراق رئتي رادو بيك بحثاً عن نفَس أخير.

لم يلبث جسده أن خذله أخيراً وغامت الدنيا أمامه.



-7-

عندما فتح عينيه مجدداً، كان ما يزال مذعوراً ومختنقاً، وكأنه لم يفقد وعيه لمدة يجهلها.

ظن لأول وهلة أنه انتقل للعالم الآخر. كاد يبكي وهو يتلفت حوله بحثاً عن وجوه الملائكة.. رجا أن يكونوا ملائكة رحمة. لكن عقله ظل يعمل وفق منطق الدنيا. أدرك أنه لم يمت بعد.

فالعالمُ الآخر ليست فيه أعشاب وصخور مثل هذه التي تتتابع أمام وجهه. عالم الغيب.. سواء أكان جنة أو ناراً.. لم يكن ليضم بين حدوده حماراً كهذا الذي يحمله.

"*حمار؟!*"..

واحدٌ ضمن قافلة من الدواب والبشر. رآهم بهيئات مقلوبة في وضعيته العجيبة. كانت هناك بضع عربات كذلك. حاول أن يعتدل في جلسته.. أن يرفع رأسه ليحظى برؤية أفضل. اكتشف أنه ليس جالساً.

كان مُلقى على بطنه.. كالبردعة.. على ظهر حمار. رجلاه متدليتان من جهة ورأسه من الجهة المقابلة. اكتشف أن قدميه مقيدتان، وكذلك معصماه خلف ظهره، وبقوةٍ عرفها من إحساس

الألم الذي نبض بغتة في أطرافه كلها. حين حاول أن يصدر صوتاً عرف أن أحداً قد وضع خرقة ما بين أسنانه وربط طرفيها خلف رأسه.. أيضاً بقسوة استشعرها في أطراف فمه المشدودة حدَّ التمزق.

عاد بذاكرته لآخر ما سجله وعيه. استحضر شكل اليد ذات العروق النافرة. يدٌ تليق بالشيطان ذاته.. الشيطان الذي صار له حضور معتبر في كل تفاصيل حياته منذ حلّ بهذه الأرض الملعونة. لكنه، من خلال وضعيته المهينة هذه، متأكدٌ من أن الشيطان أبعد ما يكون عن تفسير ما يحصل الآن.

الشيطان، لو كان قد استحوذ عليه أو اختطفه للعالم السفلي، لم يكن ليلقيه هكذا على ظهر حمار أجرب، أو يستعين بقافلة من الرجال والنساء المشردين ذوي الهيئات المزرية.. خيالاتهم المقلوبة العابرة أمامه ومن حوله.. روائحهم وأزياءهم أوصلته لهذا الاستنتاج.

"*غَجَرا*"..

عرفهم من ألبستهم ومن الحليّ المكدسة على أطراف كل فرد منهم ويملأ رنينها الهواء. شاهد مثلهم عبر سهل الأناضول وعلى تخوم الشام. كيف وقع في أيديهم؟ ماذا أتى بهم لمجاهل غابات ولاشيا؟

أصاخ السمع مؤملاً أن يقوده كلامهم لمزيد فهم، لكنه لم يفهم كلمة واحدة مما سمع. أما الحمار فواصل خطوه الوئيد على الطريق الذي ازداد وعورة وقسوة. مع كل خطوة كان ظهر البهيمة يصطدم بمعدته ويضغط على ما بجوفه في وضعيته المذلّة. مقلوبٌ هكذا وكأنه سيُجلد على مؤخرته في أيّة لحظة كالعبد الآبق. قدَّر أنه لولا الشيء الوسخ الذي يسد فمه فإنه كان سيستفرغ ما بجوفه. تزايد شعوره

بالغثيان والخوف في كل لحظة. تذكر حارسيه الانكشاريين. ربما يكون قد نجح في الفرار منهما.. لكنه قد وقع في قبضة غيرهما.

رفع رقبته بعيداً عن جسد الدابة المعفّر، وأصدر أعلى حشرجة يسمح بها وضعه. لم يبدُ أن أحداً سمعه أو أحس به. حرك كتفيه وحاول أن يرفس بقدميه المقيدتين معاً. لا شيء. لم يتوقف أحد أو يُبد اهتماماً بهذا الأسير الغاضب.

انتابته موجة سخط هائلة فانتفض بجسده كله كدودة عملاقة. لم يلبث أن أدرك حماقة حركته حين انزلق جسده من فوق حماره وهوى على الأرض الصخرية. أحس بالكتل المدببة ترتطم بأضلعه وجانب وجهه فتأوه بألم مكتوم. نقلت له أذناه أصوات خطوات بشرية تتجمع من حوله فعرف أنه نجح في جذب الاهتمام أخيراً. أراد أن يتحامل على ألمه ويواجه آسريه. لكنه في اللحظة التالية فتح عينيه بأقصى اتساع، وصرخ عالياً عبر كمامته، حين رفعه أحدهم من شعره رفعاً ليجبره على الوقوف على قدميه المخدرتين. أما الوجه الذي طالعه بعدها فجعله يحبس أنفاسه للحظة وشلّ أفكاره.

كان أقبح وجه يراه في حياته، وإن لم يكن وجه الشيطان حتماً. كان وجه إنسان.. رجل.. إنما قبيحاً فوق الوصف. وكأن كل خبث الدنيا وشرّها قد عُجنا في هذه السحنة الحافلة بالتجاعيد والشَعر والحلقات المعدنية. تأوه مجدداً والقبيحُ يشده من شعره أكثر، يقرّب وجهه منه بكُره. رائحة أنفاسه لا تطاق.. لماذا يحدجه ببغضٍ هكذا؟ قلّب عينيه في جمع الغجر الذي تجمهر حوله بعدما توقفت القافلة أخيراً بسببه.

وجوهٌ شوهتها الجروح والقذارات، بالغون وصبية، رجال ونساء متشابهون كلهم. بشراهم لوحتها الشمس وعكرت سطوحها الدمامل. أبأس وأفقر حشدٍ من الرُحّل يمكن تخيّله. أحس بمدى شذوذه بينهم..

"*لكأني وردةٌ في مكب نفايات*"..

وهذه النظرات التي يصبونها عليه.. حتى الأطفال منهم. مزيجٌ من الخوف والحقد، التشفّي والفضول. لماذا يعاملونه بكل هذه القسوة؟ كيف سيتفاهم معهم؟

شلّه الألم وجعل الدموع تقفز من عينيه، فاللعين علّقه من شعره بيد واحدة. ما عادت الأرض تحت قدميه! أدرك أنه في قبضة عملاق له قامة رجلين. قدّر أن الحصان الذي يتحمل رجلاً كهذا لم يُخلق بعد!

صاح العملاق بكلمتين فأطلق الجمع ضحكات عالية. ضحكات ماجنة وعربيدة. تقلّصت أمعاؤه وهو يتخيل ما يمكن أن يقال عنه. أدرك كم كان غبياً حين فرّ من عربته المغلقة والمخفورة بالحرس. هل كان السلطان يعلم بما سيواجهه حين بعث به لهذه الأرض المجنونة؟

عاد الغجري القبيح ليثبت عينيه به. شد أصابعه أكثر حتى ظنَّ أن فروة رأسه ستنقشع في أيّة لحظة. كشّر عن ابتسامة فبانَت أسنانٌ لا تليق بأيّ ابن آدم.. صفراء منخورة أو مفقودة. توجه له بسؤال أو بشتيمة.. لا فرق.. فهو لم يفهم شيئاً. أراد أن يصرّح بجهله أو يجرب أياً من اللغات التي يعرفها، لكنه كان عاجزاً عن الإتيان بأيّ صوت

مفيد، عدا التعبير عن ألمه المبرح، وهذه الخرقة محشورة بين فكّيه حشراً.

فحَصَه القبيح بعينيه من رأسه لأخمص قدميه. مر بأظفاره المخلبية على خده.. كأنه يتحسسه.. تراجع بوجهه فابتسم الخبيثُ في جذل. لو لم يكن فمه مكمماً لبصق عليه.

رأى الخواتم التي تزين أصابع آسره.. نفس الخواتم التي كانت في أصابعه هو.. قبل أن يقع في أيديهم. لقد استولوا على ما عنده إذاً. وَمضت في ذهنه صورة حلية التنين.. نقشُ الشيطان النحاسي. تحركت يده المقيدة عبثاً لتفتش جيبه. لا شك بأنهم استولوا عليه كذلك.

قطع عليه أفكاره صياح القبيح ذي الوجه العكر فيمن حوله:

- Shayla. Aduceţimi-o pe Shayla. Spune-ţi sa vina

لم يفهم شيئاً.. لكنه استنتج أنه يبحث عن شيء ما.. أو أحد ما. لأنه راح يتلفت في الجمع المحيط به، والذي بدأت النداءات تتعالى بين صفوفه:

- Shayla! Shayla!

كان الآن يرتجف. تذكّر بيته الصغير بإسطنبول ووجوه الصبية بمدرسة الفاتح. أين كان وأين صار الآن؟

"ماذا تعني كلمة (شيْلا) هذه بحق الله؟" ..

التفت رغماً عن خصلات شعره التي تتمزق في يد آسره مع كل حركة. هُيِء له أنه يلمح كتلة الغجر تتحرك. لاحظ أن الأعين تتطلع لقادمٍ من الخلف، وأن الاكتاف تتباعد لتفسح له طريقاً نحو المقدمة، نحوَ مسرح الأحداث حيث يقف هو معلّقاً من هامته.

جاهد ليبتلع شيئاً من ريقه الجاف. اقتنع بأن جلاداً ما سيظهر لينهي القصة كلها بضربة واحدة على جذر عنقه.

أخيراً تحرك الصف الأمامي. برَزت له من بين الزحام فتلاقت عيناه بعينيها.. بعينيّ شيْلا.

مُعلّقاً من شعر رأسه، مرتجفاً بفعل الجوع والخوف، مجروح الوجه والكبرياء، مقيد الأطراف وخرقة مشبعة باللعاب تسد فمه، كأبأس رجل على وجه الأرض.. ثبّت أورهان عينيه بعيني الفتاة الغجرية التي ظهرت له من بين الصفوف.

"هاتان العينان.. هذا الوجه.. كيف يصح أن تكون واحدة منهم؟" ..

عبرت ذهنه تلك الخواطر قبل أن يغرق في إحساس الخزي القاسي، مستوعباً قدر انحطاط رجولته أمامها. تلبّسته روح طفل يبحث عمن تشفق عليه. أطلّ ذلك من عينيه اللتين زادتا غوصاً في حدقيتها السوداوين.

تأملَت في هيئته، في الأصابع المخلبية التي ترفعه عن الأرض وحالته المزرية تماماً. توقع أن تهبّ لنجدته كملاكٍ حارس، أن تنهر العملاق القبيح وتخلّصه من بين براثنه، وأن تحوط رأسه بكفيها.. تريح وجهه على صدرها وتخفف عنه معاناته.

غاص في سواد عينيها للحظة أخرى قبل أن يلاحظ اتساعهما أكثر.. ثم تتجلى له الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها السمراوين.

ابتسامة لا علاقة لها بالحنان ولا الشفقة، بـل انعكـس خبثهـا في البؤبؤين الليليين، و لم تلبث أن تجسدَّت عبر الشفتين بضحكة مفعمة بالجذل. أتبع ذلك كله صوتها:

- Urâtă-ți capra asta

انفجر الحاضرون في ضحكة مجلجلة أخرى. حتى الملعون الذي يقبض عليه اهتز ضاحكاً.. ليضاعفَ الألم في جذور شعره المتمسكة بجمجمته حتى الآن.

- Apropie-te Shayla

تكلّم القبيحُ فاقتربت الغجرية. تمشي على الصخر كأنها تخطو فوق الماء. ثيابها الفضفاضة والزينة المعدنية حول جيدها وذراعيها تهتـز مـن حولها كالموكب المرافق لوجودها. في عينيها، المشعتين خلـف خصـل الشعر الثائر، وعلى شفتيها كذلك، كل سخرية العالم وتحديهما.

اقتربت منه حتى التقط أنفه رائحتها واستشعرت روحه هالـة كينونتها.

شيْلا.. وقفت تتأمله بنظرات ليست فيها ذرّة شفقة. عقـدت ذراعيها واقفة كجواد بريّ جموح.

أنصتت لكلام العملاق القبيح ثم توقفت عيناها عنـد الخرقـة المبللة باللعاب بين أسنان أورهان. اتسعت ابتسامتها الشامتة ونقلت نظرها للقبيح مجدداً.

تحركت يده اليسرى وانتزعت الكمامة. عبّ أورهـان الهـواء بعنف عبر فمه وقد أحسَّ بأن فكّيه قد وُهبت لهما حيـاة جديـدة. ارتخت القبضة الممسكة بشعره أخيراً. تأوه في خلاص. جاهد ليقف

على قدميه الملتصقتين بفعل حبل القيد الخشن. انفرجت الشفتان السمراوان مجدداً:

- گواريل يريد أن يعرف من أنت؟ وماذا كنت تفعل في الغابة؟

حملق بها مذهولاً. تتكلم بتركيّة محطّمة.. لكنها تظلّ مفهومة.

"إن عجائب هذه الأرض الملعونة لن تنقضي"..

واجهت نظراته المذهولة بثبات وسخرية أشد. وكأنه تتعمد إدهاشه وتستمتع ببث المزيد من الحيرة لعقله. فتح فمه ليتكلم فقاطعته قبل أن يبدأ:

- لا تكذب وإلا فسيفصل گواريل رأسك عن جسدك. سيصنع من جمجمتك قدحاً لشرابه.

تقلّصت ملامحه في قرف وزاد كرهه لها أضعافاً.. ولهذا الگواريل القبيح ذي الأصابع المخلبية. لماذا تقف في صفهم ضده؟ كيف تكون أحدهم وهي هكذا جميلة نضرة؟ تحذّره من الكذب! وما يدريها إن كان ما سيتفوه به كذباً أم حقيقة؟

وكأنها سمعت ما يدور برأسه.. تكلمت ثانية:

- گواريل والرجال شاهدوا كل شيء. شاهدوك وأنت تجري في الغابة وتختبئ من العسكر. لماذا كنت تهرب منهم؟ لماذا تركت العربة المليئة بالطعام والثياب؟

صُعق لإحاطاتها بكل شيء. نقل بصره ليد گواريل المعروقة المخلبية. هل هي اليد التي كممته أثناء اختبائه من حرسه؟

ذراعها تمتد كغصن سنديان صقيل. تشير لعربته السلطانية التي فرّ منها لتوّه. اكتشف وجودها كألماسة لامعة بين رتل عربات الغجر وبهائمهم. جحظت عيناه في غير تصديق.

"واستولوا على العربة أيضاً؟ ماذا عن العربجي؟ ماذا عن الجنديين؟" ..

صاح گواريل بكلمتين فهرع إليه صبي صغير بكيس قماش ثقيل. تناوله القبيح وقلب محتوياته على الأرض الصخرية. تدحرجت ثلاثة رؤوس لمرافقيه الثلاثة: العربجي.. والانكشاريان. شهق في هلع وفقدت قدماه المقيدتان توازنهما الهشّ. وقع أرضاً وصار وجهه بمستوى الرؤوس المزرقّة الفائحة برائحة الموت.

تعالى الضحك مجدداً.

تكلّمت شيْلا مكررة السؤال:

– من أنت ولماذا كنت تهرب في الغابة؟ إياك أن تكذب!

لم يكن أورهان قد رأى رأساً مقطوعاً منذ دهر.. وها هو الآن يحدق في ثلاثة رؤوس.

ثلاثة وجوه مُصمتة كأنها أقنعة من شمع، كانت قبل قليل مفعمة بالملامح تصدر منها أصوات وأنفاس وتعابير حياة. أحس بحنجرته تتخشب.. وبقلبه يغوص بين رئتيه. تذكر أيامه المريعة في حلب وأول جثة فتحها أمامه المعلم شاول.

اعتدل وعاود التحديق في الكتل الميتة الثلاث. الانكشاريان وسائس العربة. قتَلَهم الغجر الولاشيون وقطعوا رؤوسهم. هل يكون هو السبب في ما جرى لهم؟ ألم تكن له يدٌ في مصير دينيز؟ من سيقنعه بالعكس؟

من حوله تجمهر الغجر يتابعون المشهد المسلي.. بمن فيهم گواريل.. وشيْلا. ينتظرون منه أن يتكلم لتترجم هي.

عيناه لا تفارقان الرؤوس الثلاثة. أبصارها شاخصة لمعارج الآخرة. يتذكر هذه النظرة جيداً ويكرهها. يتذكر ضحكات معلمه اليهودي الساخرة منه.. من بكائه كطفل أمام أول جسد أطلعه على أسراره. ماعت الرؤية أمام عينيه، وأحس بثقل شديد على صدره. اختلط عليه الزمان والمكان. ضحكات المعلم شاول الحلبية القديمة امتزجت في رأسه بقهقهات غجر ولاشيا.. كأنها كلها قادمة من بئر عميقة تردد الصدى ألف مرة.

أراد أن يبكي وأن يصرخ. أن يمزق قيوده ويجري متحرراً وأن يبصق في وجه الموت الذي يلاعبه بكل قسوة بدون أن يسدد له ضربة قاضية حتى الآن. أراد أن ينقض على شيْلا هذه.. يمسح غرورها وسخريتها بلطمة رهيبة تُذكّرها بأنها مجرد امرأة.. وتذكّره هو برجولته الممتهنة.

أراد أن يكون في إسطنبول الآن،أن يمسح الماضي بإصبع مبللة بالريق كما يمسح خطأ كتبه على ورقة، أن يعود للسلطان ويقبّل الأرض بين يديه.. يترجاه لأن يسامحه ولا يغيّر نظرة الرضا التي أنعم بها عليه يوماً.

قلبه يدق بعنف فيحس بحنجرته ترتجف مع كل نبضة. السلطان؟ ماذا لو يراه الآن؟ ملقاً على الأرض مربّطاً بالحبال وحوله ثلاثة رؤوس عثمانية، وبيد مجموعة من الغجر. حفنة من رعاع البراري والأفاقين تذل مبعوث السلطان العثماني وتمرغ كرامته في الوحل.

صدره يضيق أكثر.. أو أن ما يعتمل بداخله ينمو ويكبر حتى يكاد يفيض. شعور عارم بالنقمة.. بالرغبة في الانتقام.. وبالغضب. غضبٌ هائلٌ أسود. لا يمكن أن يجعله يصل لعقله. سيبقيه محبوساً بين أضلعه وسيستخدم عقله ليتحرر من هؤلاء.. لينتقم منهم.. أو ليستفيد منهم في إنجاز مهمته التي لم ينسها ولم يتخلَ عنها بعد!

عاد للواقع حين سدد له گواريل ركلة لصدره بباطن قدمه. قاوم بكل ذرة في جسده لئلا يقع بجذعه على الأرض ووجّه له نظرة فيها كل غلّ الدنيا.

"ستكون هذه آخر إهانة أتلقاها منك يا ابن الغجرية!"..

- Ț-ia furat limba frica?

– گواريل يسأل إذا كان الخوف قد أنساك الكلام؟

جاءه صوتها فحرك عينيه المترعتين بالكره نحوها. خيّل له أن ابتسامتها المستفزة قد انكمشت.

"تريدون أن تعرفوا من أنا وماذا أريد؟ هاكم الحقيقة يا حثالة الأرض. ليس عندي ما أخبئه ولا ما يدعوني للخوف من ثلة قطّاع طريق مثلكم"..

أخذ نفساً عميقاً قبل أن يهتف بها وبمن معها:

– أنا أورهان إفندي، مبعوث مولانا السلطان العثماني محمد خان الفاتح. وقد جئتُ مكلّفاً بالقضاء على من يزعم أنه عاد من الدار الآخرة.. على دراكولا.

انتظر أن تترجم لهم ما قاله. لكن شفتيها ظلتا مطبقتين، والابتسامة التي كانت عليهما تبخرت تماماً. حتى گواريل انقلبت

سحنته وتراجع خطوة للوراء مقلّباً عينيه بينهما، حتى الحشد الغجري من حوله سرى القلق بين أفراده. توقفوا كلهم عن الضحك وما عادوا مستمتعين بالعرض. لمح اثنين أو ثلاثة منهم يرسمون الصلبان في الهواء وعلى أجسادهم.

لم تترجم شيْلا أياً مما قاله.. لكنه عرف أن الكلّ التقط إحدى كلماته وفهمها جيداً.. "دراكولا"!



-8-

واصل الحمار خطواته المتعثرة على الأرض الصخرية. هذه المرة تشبث أورهان بالبردعة جيداً بإحدى يديه المتحررتين. باليد الأخرى. كان يقضم تفاحة في نهم. ثالث تفاحة بعد رغيفين وقدح حليب. رجفة جسده خفّت كثيراً الآن. مبررات الجوع والخوف والبرد خفّت.. إنما لم تختفِ.

حماره يتبع بملل العربة التي رُبط إليها. تحت مظلتها المزقة جلست شيْلا. أرخى رأسه كي يحظى برؤية أوضح لتفاصيل ظهرها وكتفيها البارزين عبر الرداء واسع الجيب.

"كيف تحتمل هذا البرد؟" ..

إلى جوارها كان گواريل يوّجه الحصانين. هو الآخر لم يلتفت له ولم يتوجه له بكلمة منذ تحرر. كل هؤلاء الغجر من حوله صاروا يتحاشون الاقتراب منه، يتجاهلونه وكأنه غير موجود، أو كأنه مصدر وباء يحاذرون مقاربته.

أدار رأسه باحثاً عن العربة السلطانية التي صارت أسيرة مثله. ودَّ لو كان جالساً داخلها الآن مستمتعاً بالدفء والحشايا الوثيرة. لكنه قرر أن يساير هؤلاء الغجر. يكفي أنهم فكّوا قيده وأطعموه

وجلبوا له معطف فروه. سيسايرهم ويسمع لهم طالما سيأخذون بيده بين متاهات هذه الأرض الكريهة.

خرج اسم دراكولا من فمه فتملّكهم ذعرٌ حقيقي. لم يتوقع أن تكون الأسطورة قد وصلت حتى لهؤلاء الهائمين على وجوههم في البراري. كان سيُسمعهم خطبة عصماء تنتهي إما بتحريرهم إياه خوفاً من غضبة السلطان العثماني، أو بقتله بتهمة الكذب الفجّ. لكن كلمة "دراكولا" وحدها كانت كافية لإرعابهم.

"ماذا يعرفون عنه؟" ..

نقلت لهم شيْلا أخيراً كامل جملته. دار حوار ساخط بينها وبين گواريل. لم يلبث أن اشترك فيه آخرون. دخل گواريل بعد ذلك لواحدة من العربات. تكلم مع من كان فيها وبعد دقائق خرج وملامحه تنطق بالغضب. أطلق تعليماته بصوت سمعه كل أفراد القافلة. توترُ أورهان وصلَ حينها لذروته وكل هذه المجاهيل تحصل أمامه بدون أن يعرف معناها. انفضّ الجمع من حوله وشرع الكل يتجهزون لمواصلة المسير الذي قطعه هو بالذات حين أفاق من غيبوبته.

كانت شيْلا ما تزال واقفة عنده. نظر لها گواريل وهتف بعدة كلمات. ارتسمت على ملامحها تعابير الخيبة.. ظل وجهها جميلاً. استلت من بين ثيابها خنجراً ذا نصل صدئ. اتسعت عيناه في غير تصديق وقد حسب أنها النهاية. ستكون نهايته على يد امرأة! لكنها انحنت عليه وبضربتين قطعت قيوده:

- گواريل نقلَ كلامك للحكماء وقد قرروا أنك سترافقنا. أنت صرت لي من الآن فصاعداً.

– لكِ؟.. ماذا تقصدين أيتها الـــ..

بلمح البصر صار طرف الخنجر الصديء عنـــد رقبتـــه وقـــد ألصقت وجهها بوجهه وعيناها تقدحان شرراً. ابتلع لسانه مركّزاً في رائحة أنفاسها وهي همس:

– أنت تابعي من الآن فصاعداً وسأقتلك لو أسأت الأدب. والآن ستعود لحمارك. لا تفكر في الهـــرب. لـــو فعلـــتَ فلـــن نرسل أحداً خلفك. ستتكفل بك الغابة ووحوشها.. أو ما هـــو أسوأ.

مشت مبتعدة بخطوات واسعة وتركته يلتقط أنفاسه.. قلبه يخفق بشدة بعد ذلك الاقتراب البديع. نسي للحظة أنه تحول من إفندي إلى تابع.. *"مملوك؟"* وأنه مأخوذ رغماً عنه إلى حيـــث لا يدري.

لعل الله تعالى ينتقم منه بجريرة ما فعله في دينيز؟

راقب الشعرَ الطائر حول هامتـــها كرايـــة جـــيش عرمـــرم، وتضاريس جسدها إذ تدبر مبتعدة:

– على الأقل.. قولي لي إلى أين ستأخذونني؟

بدون أن تلفت جاءه صوتها المشحون بالغضب:

– تقول أنك تريد أن تقضي على دراكولا؟ نحن ســـنأخذك إلى مسقط رأسه.. إلى ترانسلڤانيا.

لم تحطّ قافلة الغجر رحلها حتى حلّ الظلام تماماً. قبل أن تلفظ شمس اليوم الكابية آخر أنفاسها، كان گواريل يصـيح بالتعليمـات مجدداً. توقفت الدواب بعرباتها وتحرك الأفراد في كل اتجاه.

خلال ساعة واحدة كانت قرية مـن الخيـام والبيـوت ذات العجلات قائمة. اقتيدت عدة خرفان لطـرف المعسـكر وذُبحـت. أُشعلت عدة نيران والتأمت قبيلة الغجر في دوائـر كـبيرة حولهـا. انشغلوا بالثرثرة وباختلاس النظرات القلقة لأورهان الذي تسمّر على صهوة إتانه يقاوم البرد ويدرس هؤلاء القوم.

قرر ألاّ يتحرك وينتظر ما سيفعلونه به. إنهم لن يضـروه، لـو أرادوا لفعلوا ذلك مبكراً بدل أن يصطحبوه معهم لعمـق الغابـة في رحلتهم إلى تلك الـ "ترانسلڤانيا".. يتذكرها من خريطـة دينيـز. لكنه لم يعرف أن ڤلاد المخوزق قد وُلد هناك.

حاول إحصاءهم.. *"أربعون فرداً"* .. يزيدون أو ينقصون. إنهـم لا يفترون، ولا سبيل لحفظ أشكالهم في هـذه العتمـة. وجـوههم وأسمائهم متشابهة. هُيء له أن المزيد منهم وصلوا آتـين مـن جهـة الجنوب.. قفزوا عن خيلهم واختفوا داخل هذه الخيمة الكبرى الـتي بزغت قبل غيرها.

"آتون من جهة بوخارست؟ قادمون جدد؟ أم كشّافة يحملـون أخبار الطريق؟" ..

لا سبيل لأن يعرف على وجه التحقيق. لا أحد هنا ليسأله.

بحث عنها بعينيه. سيميّز قوامها بين ألف غجري. تـنعكس نيران الليل على ملامحهم فتضفي عليها ظلالاً مرعبة. أعينهم تلمع

في الظلام كالقطط فيعرف حينها إن كان أحدهم يرميه بنظرة مُختلَسة.

لمحها خارجة من الخيمة الأكبر. ثبّت عينيه بها وهو يسأل نفسه:

"هل أكرهها حقًا؟" ..

لم يتحرك من فوق حماره حتى صارت أمامه. عادت الابتسامة القاسية والنظرة المتحدية لعينيها:

- ماذا تفعل عندك؟ لماذا لا تنزل عن هذا الحمار؟ أم أنكما تتبادلان الكلام المسلي؟

"بالتأكيد أكرهها.. وأود لو أصفعها.. لكن صبراً" ..

- المملوك لا يتحرك بغير إذن سيده. وأنتِ لم تأذني لي و لم تأمريني بشيء.

سلّطت عينيها عليه لهنيهة قبل أن تندلع في ضحكة لم يعرف كيف يصفها. لكنه في تلك اللحظة لم يملك إلا أن يحدق بها كالأبله.. وهي ضحكت وضحكت قبل أن تسترد قسوتها:

- أنت أحمق لا تعرف شيئاً عن شعب الرومَن ولا عاداته. نحن يا هذا أحرار ولا نقبل لأنفسنا وغيرنا سوى الحرية. نحن لا نعرف العبودية ولا نمارس الاستعباد. أنت لم تكن يوماً عبدي ولن تكون.

- لكن.. أنتِ قلتِ..

- قلتُ لك أنك لي. أي أنك سترحل معي. ستكون واحداً منا على ضماني وتحت رعايتي.

جمع أصابعه في قبضة أراد أن يسددها لابتسامتها.

"متى تنتهي هذه اللعبة السخيفة؟" ..

أشارت بحركة من رأسها للخيمة الكبيرة:

- الحكماء سيقابلونك الآن. إنهم هم الذين قرروا أن تصحبنا ويريدون أن يسمعوا منك. تعال معي. وتذكر.. إياك أن تكذب!

تبعها بين العربات وحِلق النيران. فتحت أمامه أبواب عالم الغجر المستغلقة في وجه الدخلاء أمثاله. غريبٌ عثماني يقتحم عالم الرومَن المحفوف بالأسرار. حيثما تلاقت عيناه بعيني غجري، قابله ذات مزيج الخوف والكره. ثم يجيء حضور شيْلا الباهي، ويعيد الطمأنينة لنفوس الغجر. ما أن تطل هي حتى تختفي نظرات الكره، يحل محلها فرحٌ كامن وتفاؤل بالحياة. حيثما تلتفتُ شيْلا، تزهر حدائق السعادة في نفوس أشتات الغجر، فيعودون لقرع الكؤوس.

تخطرُ في ليل الغابة بين حلقات النيران متبوعة بأورهان. كلما مرّت بحلقة عزفَ رجالها موسيقى أكثر جنوناً، ورقصوا بنسائهم وأطفالهم وكأنهم يحيون أبداً. كلما ابتسمت شيْلا في وجه جماعة ضحكوا عالياً وكأن الحياة قد خلَت من أسباب الكدر.

"لِمَ هي محبوبة هكذا وذات تأثير كالسحر؟" ..

- لا تلتفتْ ناحية گواريل!

سمعها متأخراً. أخذ عقله وقتاً ليتخلص من تفاصيل المناظر ويحلل معنى كلماتها. وحين فهم كان قد تأخر كثيراً. وقف مبهوتاً أمام القبيح الذي اعتزل ركناً قصياً وانشغل بقدرٍ عظيمة تغلي محتوياتها على نار أعظم.

"لماذا هو جالس لوحده؟ لِمَ لا يأكل مع الآخرين؟" ..

ما أن أبصره الغجري القبيح حتى صرخ كقطٍ بري عملاق. ألقى نحوه بملعقة من حديد مرت أمام أنفه. سحبته شيْلا من يده متعثراً بفعل الظلمة والذعر:

- أنت غبي وبطيء الفهم.

وصلوا أخيراً للخيمة الكبرى. أزاحت ستائر مدخلها واختفت عبرها بدون أن تنتظره.

لبثَ للحظة وحيداً في عراء الغابة. أصغى لصوت سكونها المخيف والراسخ على الرغم من طقطقة النيران وضجيج الراقصين. كل هذه النيران لا تكفي لتبديد ظلمة الغابة السرمدية. وقف على الحدّ بين عالمين رهيبين، عالم الغجر الذين يعرف أنهم يتفحصونه بأعين لا تغفل، وعالم الغابة التي لا يشك بأن أعيناً خفية تتملى فيه عبر ظلمتها. هزّته رعدة فتقدم للخيمة مفضلاً مواجهة المجهول الذي بداخلها.

ابتلعه ظلامها وصمتها. وحين بدأت المرئيات تظهر له، أبصر في منتصفها كومة جمر تبث شبح إضاءة وبعضاً من الدفء. حولها تجمع بضعة شيوخ. أربعة.. بل ثلاثة.. فشيْلا

جالسة بينهم وابتسامتها تكاد تشع كما الجمر. أما البقية فبقايا بشر؛ شيوخ فانون لم يبق حياً فيهم إلا أعينهم التي تبرق بدموع متجمدة. شهقات رئاهم العتيقة تملأ فضاء الخيمة. شعورهم الرمادية تتدلى بلا حياة من ربطات رؤوسهم الحائلة. ملامحهم متشابهة؛ كتل من الجلد المجعد، أنوف وآذان معمرة كبرت حتى غطّت ما وراءها.. تتدلى منها عشرات حِلق الحلي المتراكمة عبر السنين.

"هؤلاء هم الحكماء الذين تكلّمت عنهم؟ إن أصغرهم قد بلغ المئة بلا شك!"..

- تقدم يا إفندي.

صدرَت العبارة بالتركية من أحد الشيوخ، وبصوت أهكته الحياة فبات مسموعاً بالكاد. سمع وفهم وبانت دهشته على وجهه. أبصرت الأعين الكليلة ذلك:

- لا تندهش. نحن الرومَن مشينا فوق كل أرض وتحت كل سماء. أسطورتنا تقول أن رب الأرباب غضب على أحد أولاد آدم فكتب على ذريته الهيام في الأرض. الأرض كلها وطننا. وحيثما حللنا أجدنا لغة القوم واكتسبنا عاداهم. نحن الحكماء بالذات مررنا بديار لا حصر لها ونطقنا بكل لسان.

جلس قبالة هذا المتحدث الذي يبدو رئيس الجماعة.. بحذر كي لا تصطدم ركبته أو مرفقه بأحد هؤلاء فيتهشم أو يتحول لغبار!

- أنا.. أشكركم على حسن ضيافتكم.

تمتد يده لتتحسس فروة رأسه المتورمة، والسحجات على وجهه. على الأقل ما يزال رأسه فوق كتفيه وهذه تستحق الشكر!

يثبت عينه بوجه شيْلا المفعم بالحياة ليفر ببصره من كل نقائضها الذين حوله.

- گواريل قال لنا أنك مبعوث من السلطان التركي، وأنك تروم القضاء على.. الذي لا يُسمّى.

- تقصد دراكولا؟

ارتفعت زمجرات المشايخ. بقايا الأرواح التي في أجسادهم استُنفرت وجعلتهم يهتفون بصوت واحد، ويشيرون بأصابعهم الأحفورية نحوه في وعيد. فرّ الدم من وجهه وهو يحدق في سحناتهم المجعدة التي زادها الغضب قبحاً. بصوت خارج من أعماق صدره هتف به شيخ الرومَن:

- لا تذكر اسمه.. ويحك! لا تذكر اسمه والقمر في طور الاكتمال.. ونحن سادرون في مملكته الليلية. أنت جاهل غرّ وستجلب علينا الهلاك بجهلك!

ابتلع الإهانة وصمت. يُخرجِ الشيخ قطعة معدنية تنعكس عليها نيران الخيمة. يعرفها أورهان فوراً.. نقش التنين الذي وجده على صدر دينيز. يلقيها الغجري فتطير فوق كومة الجمر الفاصلة بينهما وتقع في حجره:

- وجدوا هذه معك.

يقلبها أورهان بين أصابعه. لكأن عينيّ النقش تحدقان به.

– وجدتها حيث وقعت آخر ضحية لـــ.. الذي ليس له اســـم! ظننته في البدء تصويراً لوحش أو للشيطان.

يهتز المشايخ الفانون في أماكنهم. يضحكون لنكتته الســـاذجة. الابتسامة على شفتي شيْلا تتسع وبريق السخرية بـــه وبكلامـــه في عينيها يزيد.

– الشيطان يا بني لا يبدو هكذا.

– وكيف تعرف؟ هل رأيته؟

لا تثير نبرته المتحدية غضبهم. يرد عليه أكبرهم بلهجة المشـــفق عليه من الجهل:

– رآه وعايشه أجدادنا الأوائل ونقلنا عنـــهم الوصـــف عـــبر الأزمان. خلقة الشيطان مزيج من كل الشرور.. له قرنا ماعز ووجه كلب. ثديا امرأة وجناحا خفاش. ولأن قصره فوق الماء فإن نصـــفه السفلي نصف حوت. للشيطان قضيب ذكر وفرج أنثى. وإذا نكـــح نفسه خرج مع برازه بيض يفقس عن مَرَدة وعفاريت يسلطهم على البشر لينشروا بينهم الخوف والمرض.

"بمَ يهذي هذا الخرف؟ ما هذا الوصف المقرف؟"..

– وماذا عن الذي لا يُسمى؟

– هو سفير الشيطان لهذه الدنيا. باع روحه له في حياته كـــي يعيده من الجحيم ليواصل نشر الويل والشرور.

– شرور؟ وماذا تسمي جريمتكم بحق جنود مولانـــا.. هـــه؟ وسائس العربة المسكين الذي قطعتم رأسه ما ذنبه؟ أليســـت هـــذه شروراً تليق بالشياطين؟

يرمقه الحاضرون ببرود. يحس أنه تهور وتمادى في الكلام مع أنه ليس في أيّ موقع قوة.

– لو أن سيوفاً عثمانية هي التي قطعت رقابنا هل كنت ستعتبره شراً؟ الشر والخير يا بني خاضعان لهوى اليد التي تحمل السيف. جيوشكم تسفك الدم باسم الله كما تقولون. سلطانكم يريق أنهار الدماء قرباناً لربه.. ونحن سفكنا الدم لنحمي أرضنا وعيالنا. أيّنا الخيّر وأينا الشرير؟ أما الذي لا يُسمّى فهو لا يخدم سوى سيد الظلمات الأكبر.. إنه تجسيد للشر في دنيانا.

يأخذ أورهان نفساً عميقاً ليتمالك نفسه:

– إسمع أيها الشيخ. لستُ هنا لأجل أن أحاسبكم على خطاياكم ولا لأتفلسف معكم. أنا رجل مسلم. أؤمن بأن الله وحده يحيي ويميت. وأؤمن بأن البعث لن يكون إلا يوم الحساب. لا شك بأن أحداثاً عصية على التفسير قد وقعت. أما أن يعود ڤلاد من الجحيم ليشرب دماء أعدائه، فهذه تتنافى مع ما أؤمن به. وإذا تركتموني أعود إلى بوخارست فسيسعني حينها أن أحقق في الأمر أكثر وأكشف سرّه.

يتطلع المشايخ لبعضهم. التماعات أعينهم تشي بحركتها. يتكلم الشيخ الأكبر أخيراً:

– گواريل قال أنّ عربتك جاءت من جهة بوخارست. وأنك هربت من عسكر العثماني. إحكِ لنا قصتك.

يفكر أورهان أن هذه ليلة ستطول. لكن لا مانع من تزجية الوقت بالقصّ. ليس عنده خيار وهؤلاء القوم يمسكون بمصيره بين أصابعهم.

يأخذ نفساً عميقاً آخر ويحكي كل ما مر به منــذ أن وصــل ولاشيا.



-9-

ساد الوجوم في الخيمة بعدما فرغ أورهان من الكلام. حتى هو استولى عليه الخوف مجدداً وقد استحضر مرة واحدة كل الأهوال التي عايشها. في أعماق قلبه هتف بحمد الله الذي نجاه من ذلك كله.

جاءت عيناه في عيني شيْلا. لم تكن تبتسم هذه المرة.

قال له كبير الحكماء:

- أنت رجل شجاع جداً.. ومحظوظ جداً. لا شك بأن السماء قد كرّست ملاكاً حارساً لحمايتك واختارتك أنت بالذات لمناجزة الشيطان. إننا لا نعرف آدمياً راغ من تحت أنف الذي لا يُسمى كما فعلتَ أنت. إن شئتَ الحق؛ فوجودك هنا فيه خطر كبير علينا. فهو قد تعرّف عليك وسينال منكَ.. طال الزمان أو قصر. أنت يا بني هالك لا محالة. لا أحد يفر من قبضة الذي لا يُسمى. بل إنك في طريقك لعرينه إن كنت لا تدري.

ارتعشت أطرافه. ردد في عقله أن ما يقوله الشيخ كلام فارغ. لكن ما وقر بقلبه جعل شعر جسده يقف.

- هل.. هل تتخلون عني إذاً؟ هل تتركونني في الغابة لتتخلصوا من نحسي؟

- بالعكس..

قالها شيخ الرومَن وعيناه تتسعان للحظة.. صار شكله خلالها مرعباً أكثر:

- بالعكس يا بني. نحن سنأخذك في دربه. من يدري فلعلك تنتصر عليه. إن بيننا وبين الذي لا يُسمى ثأراً.. وأنت بحظّك الخارق قد تناله لنا.

- أيّ ثأر؟

- شيْلا ستخبرك بكل شيء. نحن سمعنا وقلنا أكثر مما يجب. نحن متعبون، وما بقي لنا من عمر أغلى من أن يضيع في الكلام. لقد اخترنا لك شيْلا لتكون عينك وأذنك بيننا. وهي ستنقل لك ما نريدك أن ترى وتسمع. فالزمها جيداً.

سارا معاً بصمت بعدما خرجا من الخيمة. تلقاهما عزف الغجر ورقصهم الجشع. أما هي فكانت ساهية عن كل ذلك. ابتسامتها خبت وصارت شاردة.

"ما الذي بينها وبين أسطورة ڤلاد المخوزق؟ أهي خائفة من رفقتي لأني صرت مُستقصداً من ابن الشيطان؟"..

نسي مخاوفه ونسي معسكر الغجر كله. نسي عجائب اليومين الفائتين وتربُص إبليس به كما قال له حكيم الرومَن. سمح لنفسه بأن يستغل شرودها ويتأمل في جانب وجهها البديع. سمح لعينيه بأن

تجولا بين الشفاه والنحر وما دون ذلك. سمح لأنفه بأن يقتنص رائحة جسدها المختلطة بعطر الصنوبر.

كادت يده تمتدت لتكلل ذلك كله. لولا الظل الذي برز بغتة من بين الأشجار وغطاهما معاً.

حلّقت عينا أورهان لتبحث عن آخر الجسد المكسو بالشعر الذي بزغ أمامه. طار صوابه لمنظر القوائم المنتهية بمخالب معقوفة.. والزئير المدوي الذي لم يكن أعلى منه إلا عواء رعبه هو.

لم يكن يحلم أو يهذي. ما ظهر له من بين الأحراش كان وحشاً حقيقياً. واقفاً على قائمتيه الخلفيتين ويزأر.. أو يخور.. عيناه تبرقان في الظلام.

"الشيطان له وجه كلب وثديا امرأة.. ليس هذا.. هل يكون الذي لا يُسمى؟" ..

حين تقدمت شيْلا لتعانق الوحش.. كاد عقله يطير. لابد أنه عوى بفزع أشد. سيمزقها إرباً! الغجرية الجميلة تفديه بروحها وتلقي بنفسها بين ذراعي مسخ الليل الرهيب!

لكنها عوضاً عن أن تتساقط أشلاءً مرّغت وجهها في صدر الكائن الكثيف.. وهيء له أنها تربت على أعضاء من جسده لا يصح أن تمتد لها يد.

أما الوحش ذاته فخارَ بصوت أقل شراسة.. ثم انعطف عليها بخطمه.. برز لسانه الطويل ليلعق وجهها ويديها قبل أن يهبط على قوائه الأربعة وتتضح ماهيته.

دُبّ! دبٌّ بريٌّ راحت هي تلاعبه وتلاغيه جالسة على ركبتيها. تتحسس ظهره الهائل قبل أن تلتفت لأورهان المستلقي على الأرض ذاهلاً في غير فهم، وتنفجر في ضحكتها المفعمة بالألوان.

ها قد عادت السعادة لروحها ومحياها، ولكل الغجر الذين انفلتوا في ضحكة مسعورة محملة بروائح الخمر وأهوال الليل المكبوتة.

- يا لك من شرير يا بالدو.. لقد أرعبتَ ضيفنا! مبعوثُ السلطان العثماني الذي سيعيد ابن الشيطان لقاع الجحيم.. يخاف من دب ظريف مثلك!

تحامل على ساقيه المرتعشتين. سيتوقف قلبه لا محالة لو تتالت عليه الفواجع هكذا. جمع شتات كبريائه وبحث عن ركن قصي يداري فيه عاره. الضحكات لا تنقطع وما حصل له ضخ المزيد من البهجة لعروق القوم.

أين كان هذا الدبّ الملعون وكيف لم يره من قبل؟ استعاد الآن منظر فمه الخالي من الأسنان. دبٌّ مستأنس.. وثأرٌ مع ابن الشيطان.. لا شك أن لله حكمة لن يحيط بها جمعت قدره بهؤلاء المخابيل.

أدار ظهره وخطى مبتعداً. أطبقت أصابعها على معصمه:

- لا تغضب هكذا يا أورهان. بالدو لن يهاجمك بعد الآن. أعدك.

- ناديني بالإفندي. ماذا تريدين مني؟

- ظننتك أنت الذي تريدني.. يا إفندي.

تنظر إليه بدون أن ترمش. يسحب يده بعنف:

- أتركيني وشأني.

- ليس باختياري ولا اختيارك. لقد تقررَ أن نكون معاً. نسيت أني عيناك وأذناك هنا؟

لا يرد. تدور وتتلوى بجسدها حول هيكل دبّها الأليف. تنحرف عيناه لما تحت ردائها المتطاير.

- إبقَ وحدك إن شئتَ. أما أنا فسأستمتع بالرقص مع بالدو حول النار. ما زال بالليل رمق.

- ترقصين مع دبّ؟ أنت مخبولة!

- وأنت العاقل.. يا مَن تطارد شبح قاتلٍ مات من سنين؟!

تتمسح بجسد الحيوان وتتلاعب أذنيه وعاتقه.

- إن كنت لا تعرف فبالدو خيرٌ من عشرة رجال مثلك.

تثير نبرتها فزعه. يفضل تخيّل المواجهة مع دراكولا المخوزِق على الخوض في معاني ما ترمي إليه.

مع ذلك يتجاهلها ويمشي مبتعداً. يقصد العربة السلطانية التي كانت بيته لعشرين يوماً عبر غابات البلغار والأفلاق. يصعد على متنها المهجور. هنا كان يجلس السائس وإلى جواره دينيز. الأول قطع الغجر رأسه والثاني قضم شيءٌ ما عنقه! لا تدري نفسٌ بأيّ أرض ولا كيف ستموت.

فتح باب العربة فقابله خشبُها الصقيل. لا حشايا ولا صناديق أطعمة ولا متاع. الغجر الملاعين نهبوا كل شيء. قاوم غصةً وتمدد على السطح الخشبي البارد. تذكر بيته الصغير بإسطنبول ووجه أمه، وتذكر النهار الشريف الذي قضاه في رحاب مِلك البرّين والبحرين.

كبرت في حلقه الغصة.

وصله صوت الخطوات. ستة قوائم تتقدم ناحيته.. شيْلا ودبها الأهتم تبعوه. لن تتركه وحده. وهو لا يريد أن يظل وحده. دقيقةٌ واحدة داخل العربة المهجورة كشفت له مقدار خواء قلبه.

تجلسُ على صخرة ناتئة. يتمرغ بالدو في الأرض جوارها. كفّها تغوص في فرو بطنه الأشهب.

يستقيم جالساً داخل عربته السلطانية، متدثراً بمعطفه الذي بقي له:

- إحكي لي عن ثأركم القديم مع ڤلاد المخوزق.



-10-

– تريدُ أن تعرف، يا إفندي، عن ثأر الرومَن القديم مع ڤلاد تسيبيش[1]؟ تسألُ عن دراكولا؟ ابن التنين؟ ابن الشيطان؟ لاحظتَ كم لقباً مريعاً له؟ نعوته الشريرة متنوعة بتنوع ضحاياه وكثرتهم. لم تعرف أرضنا روحاً شريرة كروحه. ولا سفكَ طاغية من الدماء بقدر ما سفك هو.

إن الأقدمين يقولون أن أشجار ترانسلڤانيا تصيح بنداء لا تسمعه إلا البهائم والشياطين.. تتوسل سقيا الدم. لو أخذتَ قبضة من ترابها وتنشقتها لشممت رائحته الصدئة. سفكُ الدم هو في صميم طباع الناس هنا. لكن تسيبيش فاق السفّاكين كلهم. تفنن في القتل، وتفنن في كبح جماح الموت وجعلِه ينالُ من منحوسي الأقدار ببطء وروية. تفنن في حلبِ ضرع الألم. الألم؟ ليست في قواميس البشر كلمة تفي بوصف الهول الذي عاناه ضحايا تسيبيش قبل أن ترتاح أجسادهم بمفارقة أرواحها!

يُسمونه (المُخوزِق). هذا اسم الشهرة. وإلا فإنه قد أبدع في بتر وسلخ وطهي وتقوير ومسمرة أجساد أعدائه.

---

1 Țepeș: أي المخوزِق بالرومانية القديمة.

تسألني، يا إفندي، من هُم أولئك الأعداء؟ كلُّ حيّ وضعه قدره بطريق تسيبيش.. حتى وإن لم يملك نية العدوان. ثأرنا القديم معه هو جزء صغير من دَين أكبر. دينٌ سيتقاضاه منه يوماً البويار الساكسون، وبنو عمومته الذين نازعوه الملك، والعوام من سكان ولاشيا وترانسلفانيا، ومجهولو الهوية والأصل أمثالنا، وجنود مولاك السلطان إن شئت. كل أولئك يدينون له بقطعة من الجحيم الذي نصبه على هذه الأرض من أشلائهم.. وما يزال يفعل كما تعرف.

كم ضحية رأيتَ أنت؟ واحدة؟ واحدة من مئات الآلاف؟ واحدة جعلتك تنتفض كورقة الخريف ما إن تسمع به.. الذي لا يُسمى.. أو يظهر لك كلبٌ أو دبٌ من بين الأحراش؟ إن الرجال والنساء في هذه القافلة.. وفي بوخارست وتورگوڤيتشه وبراسوف.. قد عاينوا وهم بعد أطفالٌ الأجساد المخوزقة وهي تنزف دم الحياة على مدى أيام. شاهدوا في ساحات المدن جلود نبلاء البويار المسلوخة معلقة على أبواب الكنائس، وأجساد نسائهم تُسلق في قدور ڤلاد الرهيبة.

أيّة أسطورة جئت لتهدم يا إفندي؟ تريد أن تقنع الولاش والترانسلفان بأن تصديق عودة تسيبيش من الجحيم، سفيراً للشيطان على هذه الأرض، هو كفر وهرطقة؟ يا لك من ساذج. إن لم يعد مثله.. فمن سيعود؟

كانت لتسيبيش أكثر من عودة لعلمك، جاءت بعد أكثر من غياب. لكنه كان وقتها حياً مثلي ومثلك. غيبته الأولى كانت في أراضيكم أيها الأتراك. أخذتموه رهينة لم يتجاوز الحادية عشرة. يعلم

الله ما فعلتم به وبأخيه؟ سمعنا أنكم غسلتم دماغ رادو وجعلتموه يكفر بيسوع المخلّص، ويمرغ وجهه ناحية صندوقكم الأسود الذي في الصحراء البعيدة. وسمعنا أن ڤلاد رفض أن يؤمن برب الترك على الرغم من العذاب الذي ساموه إياه.

أرى وجهك ينكمش وكأنك ترفض هذه المزاعم. ستقول لي أن دينكم دين الرحمة؟ وأنكم لا تجبرون أحداً على اعتناقه؟ حتى لو صدقتك أنا.. فماذا عن كل الأنفس التي تعيش هنا؟ الأنفس التي استقبلت ڤلاد دراكولا كالبطل يوم عاد من سجنه العثماني.

أليست هذه بداية مدهشة للقصة؟ لقد أقسمَ الصبيُ ڤلاد على الانتقام من العثمانيين الذين كسروا هيبة أبيه.. لكن الأب: دراكول، التنين الأكبر، يلقى مصرعه على يدي بارونات بلاطه. يقع ضحية مؤامرة نفذها البويار. لا تعرف من هم البويار؟ إنهم هم المتحكمون بكل أموال ولاشيا وتجارتها. تجّار من أصل ساكسوني. مهاجرون قدماء صار لهم نفوذ مكّنهم في النهاية من اختيار من يحكمهم بشروطهم. هؤلاء البويار، بتحريض من ملك المجر، ثاروا على ڤلاد الأب قبل ثلاثين عاماً أو أكثر[1]. قتلوه وقبضوا على ابنه الأكبر ميرتشا. أدخلوا في عينيه أسياخ الحديد المحمى ثم دفنوه في التراب قبل أن يموت.

وحشية بالغة؟ معك كل الحق يا إفندي. لعلها تفسر شراسة انتقام تسيبيش الذي تواصل طيلة عشرين سنة. لكن دعني أخبرك شيئاً مذهلاً. فڤلاد لم يعد من أدرنة على رأس جيش جمعه بنفسه،

1 قُتل في 851هـ - 1447م.

ولا هو كان سيد نفسه أصلاً. إن الذي مدّه بالعسكر والمال وأجلسه على كرسي أبيه لم يكن سوى السلطان العثماني! نفس السلطان الذي أخذه رهينة وأذل ناصية أبيه قائد لواء التنين، حامي مجد الرب على هذه الأرض.

هل تتخيل مهانة فوق هذه يا إفندي؟

هل يسعك أن تتخيل مقدار اليأس الذي حاق بالشاب دراكولا وقتها؟ حين استوعب أن يداً بشرية، مثل يده بالضبط، تتحكم بمصيره، فتذلّه وتعزه كما يروق لصاحبها. لا تكتفي بأن تكون سبب بؤسه، بل وتوغل فتصنع له مجده أيضاً.

أنتم المسلمون تستعيذون بالله من قهر الرجال. لا تنظر لي هكذا فأنا أعرف أكثر مما تتخيل، ولا تجعلني أحيد عن القصة. المهم إن ڤلاد تسيبيش قد ذاقَ قهر الرجال حتى كاد قلبه ينصهر وهو بعد في الثامنة عشرة. لا أستبعدُ أن تكون تلك هي لحظة اتصاله بالشيطان.. اللحظة التي أقسم فيها والكتاب المقدس تحت رجله على أن يبيع روحه لسيّد الظلمات مقابل الانتقام من كل من قهروه.

لعله حينها أقسم أيضاً على أن يكون السباهية والانكشارية الذين أرسلهم السلطان معه، هم آخر أتراكٍ يدخلون ولاشيا آمنين.

لكن قبل التفرغ لمحاربة العثمانيين وصدّهم عن ولاشيا، كان عليه أن يتغلب على منافسيه الكثر، وأن ينتقم ممن انقلبوا على أبيه. لقد كان الولاشيون هم أول ضحايا ابن الشيطان يا إفندي.. لو كنت لا تدري.

ما يزال الناس يتذكرون ما فعله ليلة عيد القيامة سنة 1459. أحصى البويار كلهم، مع نسائهم وعيالهم وعبيدهم وقرابتهم، نحو الثلاثين ألف إنسان، ممن ثاروا على أبيه ومن لم يفعلوا. ممن كانوا يخططون للتآمر عليه، كما وصل لعلمه، وممن بقوا على إخلاصهم له. لا فرق. كان قد عزم على تصفية تلك الطبقة بأسرها. لم يكونوا في نظره سوى حفنة من الأجانب النافذين. لعله قرر أن أموال ولاشيا يجب أن تعود لجيوب الولاشيين.. أو تستقر بجيبه هو فينفقها بمعرفته. لن نعرف أبداً ما استقر عليه عقله المريض.

أنا لم أكن هناك. حصل هذا قبل أن أولد. لكن ولاشيا.. أوروبا كلها.. تعرف بما فعله تسيبيش بالبويار بعد أسبوع الآلام من عام الرب 1459.

يقال أنه استضاف كبراءهم في قصره. قدم لهم ما لذ وطاب وأظهر لهم الود. ثم طرح عليهم سؤالاً عابراً: أن يذكروا له أسماء أمراء ولاشيا.. أولئك الذين حكموها في العشرين سنة الأخيرة على الأقل.

لم يكن الجواب صعباً، ولا كان هو يجهله. فقد تعاقب على ولاشيا أمراء كُثر. بعضهم لم يستقر في الحكم لأكثر من شهر. جُلّهم قتلوا أو عزلوا بتدبير من البويار أنفسهم. كانت الإجابة على السؤال هي أكبر دليل إدانة. وكان دراكولا قد أصدر حكمه باكراً.

– تسألني يا إفندي كيف أعدمَ ثلاثين ألف إنسان؟ لم أكن لأعرف الإجابة لولا أن نقلوها لنا عبر الأجيال. قالوا أنه بدأ بزعماء البويار الذين ثبت تآمرهم ضد أبيه. بضعُ مئات منهم فحسب. أخذ هؤلاء وخوزقهم خارج أسوار عاصمته تورگوڤيتشه.

لعلك تزعم أنك تعرف كيف تتم الخوزقة يا إفندي. أنتم الأتراك وقفتم لاحقاً على نماذج من جنون دراكولا. لم يقوَ سلطانكم المرهف على التوغل في ترانسلڤانيا بعدما رأى آلافاً من أشجار الموت تلك منصوبة في استقباله. لكن أنا سأتحداك، وسأزعم بأنك تجهل تفاصيل الخوزقة على طريقة دراكولا!

تصرّ على أنك تعرف؟ قل لي إذاً.. كيف تتم العملية؟

أرأيت؟ أول ما يخطر ببالك أنهم "يأتون بعمود مدبب". يا لك من مسكين! أتظن أننا نتكلم عن سفاح عادي؟ إنه دراكولا يا إفندي! هل تحسب أنه احتفظ باللقب حتى بعد ذهابه للعالم الآخر عبثاً؟

الخوزقة على طريقة دراكولا يجب أن تضمن أقصى درجات المعاناة.. أبطأ طرق الموت على الإطلاق. خوازيق دراكولا، يا حضرة الإفندي المبجل، لم تكن مدببة ولا حادة الأطراف.. بالعكس! كانت أطرافها مفلطحة ومبرومة بما يكفي لإيلاجها في المؤخرات وحسب. ولتسهيل ذلك كانوا يغمرونها بالزيت الزلق. تلك كانت أقصى رحمة ينالها المتخوزق.

لا تنظر لي هكذا وكأني مجنونة. لا تتظاهر بالأدب والكياسة وتُبدِ دهشتك لأن امرأة، وإن كانت غجرية بلا أصل، تتكلمُ في

هكذا تفاصيل. هل تعرف طريقة مؤدبة لوصف خوزقة إنسان؟ إخرس وأنصت إذاً!

يأتون بالمحكوم، رجلاً كان أو امرأة، وينكسونه على وجهه. بكل دقة وعنف يدفعون طرف الخازوق بين إليتيه حتى يستقر داخله بمقدار قبضتين. ثم يرفعون العمود الخشبي الطويل بحمله المرفرف كالراية.

سيتلوى المسكين ويولول كثيراً.. لكن بلا فائدة. لعله سيكتشف بعد فترة أن المزيد من التلوي سيجلب عليه المزيد من الألم!

تُرى.. هل يظل المتخوزق واعياً حتى النهاية؟ هل يسعه أن يفكر ويقرر؟

يتركون العمود يواصل مشواره داخل الجسد هكذا. البعض كان الألم يقتله سريعاً.. خلال ساعتين أو ثلاث. لكن الأغلب كانوا يقاومون.. امتحنهم الرب بلعنة قوة التحمل. هؤلاء كانوا يبقون أحياء ليوم كامل.. وأحياناً ليومين. رويداً رويداً تنزلق أجسادهم عبر العواميد الخشبية المغمورة بالزيت وعصارة الأحشاء. تدخل الأعمدة عبر أدبارهم وتتوغل في أجسادهم. لو كانوا محظوظين فإن الجوارح التي ستقتات على وجوههم ستصل بمناقيرها لأدمغتهم سريعاً. أو أن الخوازيق الغائرة فيهم ستخترق أخيراً قلوبهم وتريحهم. لكن إن حَكَمَت مشيئة الرب بمزيد من التطهير، فستخطيء الخوازيق قلوبهم لتخرج من ظهورهم.. أو تواصل طريقها حتى تبرز من أفواههم أو حناجرهم.. وقد لا يموتون فوراً مع ذلك.

ما بك زاغت عيناك هكذا واصفرّ وجهك؟ هل تشعر بالغثيان أيها المسكين؟ هذا مجرد حكي فما بالك بمن أبصرت عيناه محتويات الأجساد الحية تندلق على متون الخوازيق؟ وسمع أصوات انسكابها مختلطة بعواءات العذاب وشم بأنفه روائحها الطازجة؟

قالوا أن دراكولا كان يُشرف بنفسه على كل عملية خوزقة. خاصة إذا كان المتخوزق من الضالعين في الانقلاب على أبيه. حينها يبقي واقفاً حتى يتأكد بنفسه من موته. قالوا أنه كان يدير شؤون مملكته ويأكل طعامه على طاولة موضوعة بين الخوازيق. ولما استهلكوا كل الأعمدة التي عندهم أمر بباقي الخونة فقطّعت أوصالهم بالفؤوس والسواطير وجمعت أكواماً أكواماً عند مداخل تورگوڤيتشه.

لا يعرف أحدٌ كم قتل يومها. ربما خمسمئة. تسألني عن البقية؟ هذا سؤال وجيه. وجوابه المختصر هو أن ڤلاد المخوزِق، وقد صار ذاك لقبه الأثير عن جدارة، قد تسلّى بهم خلال السنوات التاليات.

سأشرح لك أكثر.

بالنسبة لرجال البويار الذين لم تثبت عليهم تهمة الخيانة، بل حامَت حولهم الشبهات وحسب، فقد جمعهم وأوقفهم داخل قدور عظيمة صنعها خصيصاً لهذا الغرض. الواحد منها يستوعب خمسة بالغين. يملأ أحدها بالماء.. أو بالزيت.. حسب المتوفر، ثم يضع فوقها أغطية بفتحات تسمح لرؤوس من فيها بالبروز خارجاً. كان تسيبيش يجلس وفي يده قدح شراب معتّق ليتفرج على وجوه مَن في القدر إذ ينضجون على النار.

أوه! أرى أن مقاومتك قد وصلت منتهاها. لا بأس لا بـــأس.. تهوَّع وتقيأ كلَّ ما في جوفك. أحسنت. من الجيد أنـــك لم تـــتعشَ بعد. لا تريد أن تتعشى؟ كما تحب.. سأغرب عـــن وجهـــك مـــع بالدو.

أرجو أن تنام قليلاً. ستشرق الشمس بعد سويعات وسنواصل رحلتنا. أعرف أني لم أجاوب على سؤالك بعد. سنستكمل القصـــة غداً.

تصبح على خير يا إفندي!



-11-

ما أن فتحَ عينيه حتى امتدت يده لتتحسس مؤخرته. لا أشلاء ولا خوازيق من تحته. كان الأمر مجرد كابوس إذاً.. كابوسٌ ذو تفاصيل مريعة في دقتها.

لعن َشيْلا في سره واستعاذ بالله من إبليس وأعوانه.

مشى كالتائه بين معسكر الغجر الضاجّ بالحركة، والبهائم تُساق في كل اتجاه لتربط بالعربات تأهباً للرحيل. لا أحد ينظر ناحيته ولا هو يكترث لأحد. فهم أنه بالنسبة لهم محض شبح.

أين هي؟ عيناه وأذناه؟ سيتدبر أمره على الرغم منها.

أقبل على مربط للدواب. هشّها بعيداً عن حوض الماء القذر. تأمل فيه ملياً وقررّ في النهاية أنه لا يرى أيّة نجاسة طافية على سطحه. فليتقبل الله. توضأ بدون إسباغ ولا مضمضة عميقة. قاوم قرفه وقد استرجع مذاق القيء العالق بحلقه منذ ليلة أمس.

"لعنة الله عليكِ يا شيْلا" ..

عاد لعربته مرتجفاً. بردُ الفجر يجمّد الماء على الأطراف. تطلّع للأفق المكللّ بقمم جبال الكاربات المريعة. درس اتجاه العربات. إن كانوا يقصدون ترانسلفانيا فهم سائرون شمالاً.. قدّر الجنوب الشرقي ما وسعه

الاجتهاد. ليتقبل الله. استقبل قبلته وكبّر. قضى الصلوات التي فاتته كلها. دعا الله في سجوده أن يعيده لبيته سالماً ولا يخذل ثقة مولانا السلطان به.

سلّم من آخر صلواته ليجدها واقفة عن شماله. على شفتيها الابتسامة المستفزة ذاتها:

- هل دعوتَ ربك بإخلاص؟ ألا يدهشك أننا لا نهرع لله إلا بعدما نيأس من أنفسنا؟

- بل إن ربي في قلبي دوماً. وسينصرني عليكم وعلى خرافة الشيطان.

سواد حدقتيها يتسع ولذعة السخرية في صوتها تزيد:

- تستعين بالله رب الأكوان على "خرافة"؟ عارٌ عليك يا إفندي! وعارٌ أن تعتبرنا في صف الشيطان ضدك.

تلوّح بالسلة التي في يدها:

- كيف أكون ضدك وقد أحضرت لك إفطارك؟

ينقض على السلة. يزدرد الجبن والفجل الذي بداخلها بدون مضغ. يطحن بضروسه وبسقف حلقه الخبز القاسي كالحجارة. تلتقي أعينهما وهو يغرز قواطعه في العجينة المتيبسة. لا يعرف إن كانت تحملق به مشفقة أم هازئة. لا يعرف إن كان الذي على وجهها تعاطف أم ازدراء. يواصل الأكل ثم يعب من قربة ماء قدمتها له. طعمه لا يختلف عن الذي في دلو البهائم.

ربطوا له حصانين بالعربة السلطانية. قفزت شيْلا على متنها. ارتجّ جسدها وصلصت حليها وهو تستقر في المكان الذي طالما شغله دينيز ملوحة له:

– تعال. ستقود عربتك السلطانية بنفسك إلى براسوف. ما رأيك؟ أقنعتُ گواريل بأنك لن تأتي بأية حماقة وستسير مع القافلة بهدوء.

أدار عينيه حوله. المعسكر انفض تماماً والكل انتظم في الصف الطويل المتحرك عبر الطريق الجبلي.

– تبحثُ عن گواريل؟ لا تخف إنه بعيد في المقدمة. كما أني لم أرَ بالدو اليوم. لعله عثر على قفير نحل وسيلحق بنا فيما بعد.

اعتدل جوارها على منصة العربة وقبض اللجام بيديه:

– أنا لا أخاف من گواريل ولا من دبّك الأحمق.

تقترب منه. يحس بحرارة جسدها، بالتصاق جانب ردفها به، بثقل الكلمات التي تزحف من بين شفتيها لتحطّ في أذنه:

– ليس هناك من يستحق أن تخافه هنا.. سواي أنا.. يا إفندي.

تتلاحق أنفاسه. يتذكر خوازيق دراكولا ويستحضر وصف سلسلة جهنم التي ذرعُها سبعون ذراعاً.

يغمض عينيه مستعيذاً بالله من إبليس وأعوانه مجدداً، ثم يصيح بالحصانين ليجرّا العربة السلطانية عبر جبال الكاربات.

سألها مستشعراً متعة ركوب عربة ملكيّة وسط قافلة غجر:

– ماذا عن براسوف التي نقصدها؟ ماذا يوجد فيها ولماذا تذهبون إليها؟

- تقام فيها سوق كبيرة. سنرقص ونقدم ألعاباً في الشوارع. هكذا نكسب رزقنا.

- ولماذا لا تقدمون ألعابكم في بوخارست؟

- لن يسمح لنا جنود مولاك السلطان. بوخارست صارت مدينة كئيبة يحكمها الرعب.

- بسبب خرافة ظهور دراكولا؟ لاحظتُ ذلك حين مررتُ بساحتها.

- بسببها وبسبب قسوة الأتراك المفرطة. منذ أن قُتل رادو بيك وهم يقبضون على الناس بالشبهة. يجلدون ويحبسون باحثين عن أيّ اعتراف، وكأن دراكولا مختبئ ببيت واحد من السكان. إن الذعر قد استولى على عقول قومك يا إفندي.

هزّ رأسه.. قد قالها له مولانا من قبل..

"الخوف هو أسوأ أعدائك، لا تستطيع أن تعتقله أو تقهره بجيش"..

- لكن لماذا يخاف الأهالي من أسطورة دراكولا؟ ألم يعد من الجحيم كما يظنون لينتقم من العثمانيين وأعوانهم؟ ما شأن العوام بانتقام دراكولا؟

- وهل تحسبُ أن انتقام ابن الشيطان قد اقتصر على رادو ومن حوله؟ هل تعرف كم إنساناً قُضم عنقه منذ ظهرت الأسطورة؟

- أعرف اثنين: رادو بيك.. ومرافقي المسكين دينيز.

- بل أنتَ المسكين. لا تعرف شيئاً وتزعم أنك ستكشف المستور! لقد قتلَ جيشُ دراكولا ما يزيد على المئة إنسان يا إفندي خلال العام الفائت.

- يا خفيّ الألطاف!

- ولِمَ تحسب الرعب استولى على الناس عبر ولاشيا بطولها وعرضها؟ ابن الشيطان حلّت لعنته على الوالي العثماني، وعلى باشوات بلاطه وقادَة عسكره. حتى التجار الذين يبيعون العلف لإسطبلاته، حتى سائسو خيله عثروا على بعضهم منهوشي الرقاب ممزقي الحناجر. في بوخارست وفي توركوفيتشه وفي براسوف كذلك. كل من له أيّة صلة بالراية العثمانية أو قدّم لها أيّة خدمة مهما كانت صغيرة هو عرضة للانتقام. لقد نشأ جيل كامل من الولاشيين تحت ظل الحكم العثماني. وبكلام آخر، فإن أحداً بات لا يأمن أن يكون قد لوّث صحيفة أعماله بالتعامل مع الكفرة الأتراك فتطاله بسبب ذلك غضبة دراكولا.

حدجها بنظرة نارية. هزّت كتفيها:

- سواء أعجبك الكلام أم لم يعجبك. هكذا بات الناس يفكرون. ولهذا يهاجرون جنوباً عبر الدانوب فارين عن مملكة دراكولا التي اغتصبتموها منه. إنهم يظنون هكذا أنهم بعيدون عن أنيابه. لكن سلطانكم أمر بوقف هذه الهجرات غصباً وإلزام الناس ببيوتهم وأعمالهم حيث هم.

- سمعتُ عن ذلك. الهجرات الفوضوية ستؤدي للاقتتال على الموارد والأراضي وسيختل النظام.

- النظام قد اختل في عقول الناس وأرواحهم وانتهى الأمر. لم تعرف هذه الأرض نظاماً حقيقياً إلا أيام تسيبيش. أما أنتم فترغمونهم غصباً على الوقوف في وجه الشيطان الذي استعمر قلوبهم. حكماؤنا

يقولون أن الولاش لو خيّروا بين السلطان والشيطان، فسيختارون صفّ الشيطان حتماً.

هزّ رأسه ثانية وقد استوعب مبررات قلق مولانا.

لكن هل أحاط السلطان بمدى وحشية المخوزق.. حياً وميتاً؟

هل نقلوا له كيف مات رادو؟ وهل وصله خبر موت دينيز؟

تُرى.. هل يبحثون عنه الآن؟ هل انتشر في بوخارست نبأ اختفائه فزاد الخوف من دراكولا بين أهلها؟

– لم أقضِ في بوخارست إلا ليلة واحدة. لكني أذكرُ أبوابها الموصدة والمكللة بالصلبان.

– ألم أقل لك أن الناس لا يهرعون إلى الله إلا إذا ما لاح لهم الهلاك. يحسبون أن تعليق الصلبان وفرك أجسادهم بالثوم كفيلان بحمايتهم من غضبة ابن الشيطان.

– الثوم؟ الذي نأكله؟

– هو بعينه. شاع الاستطباب بالثوم أيام الطاعون وفي مواسم البعوض. لكن الجهّال يحسبون أن المرض ومرَدة الجنّ يأتون من البئر ذاتها في جهنم. هكذا تجدهم يضعونه في كل طعامهم ويفركون صغارهم ودوابهم به ويعلقونه على الأبواب أيضاً حتى شحّ من الأسواق.

– إن شئت الحق فهذا كلام فارغ لكني أفهم مبناه. فالثوم معروف كمُطهرٍ قوي. كما وأن المصابين بالسعار والكَلَب يكرهون رائحته لعلّة مجهولة. لعل البسطاء قرنوا بين عضّة دراكولا وعضّة الذئب المسعور.

رازته بنظرة فاحصة قبل أن تسأله:

- كيف تعرف كل هذا؟ هل أنت طبيب؟

- رافقتُ طبيباً في مكان بعيد، لكني لم أمارس الطبَّ. ولا يبدو أن بوخارست بأسرها بها طبيبٌ عاقل واحد يعيد للناس صوابهم.

- لقد عبث الخوف بعقولهم. حتى دربُ الربِّ ضيعوه. كثيرٌ من الأهالي الذين أسلموا واستقاموا في مذهب الترك ارتدوا وعادوا مسيحيين متعصبين خوفاً من انتقام دراكولا.

- الله أكبر! ماذا تقولين؟

- كما سمعتَ. لعلمك فأول الهالكين لم يكون رادو بيك، بل كان إمام مسجد بوخارست. وجدوه ممزقاً في محرابه. حسبها الناس جريمة قتل عادية والبعض زعم بأن كلباً هاجمه داخل المسجد. لكنهم مع الأيام عرفوا وربطوا التفاصيل ببعضها. لقد كان دراكولا واضحاً جداً منذ البداية. هذا المسجد الآن يتجنبه المسلمون قبل المسيحيين.. بات مهجوراً.

- لعنة الله على الكفر والكافرين. كيف لم يخبرني دينيز بأيٍ من هذه التفاصيل؟

- لعله لم يعرف حينها. لكنه يعرف جيداً حيث هو الآن. وبما أنه دُفن بمقابر المسلمين فلن يضعوا عند رأسه صليباً يقيه العدوى الشيطانية. فلتدعُ ربّك أن يكونوا قد دفنوه على الأقل مقلوباً.. وجهه ناحية الأرض.. وإلا فإنه سيكون ملعوناً آخر ينضم لجيش الظلام.

- بماذا تخرفين؟ أيّ عدوى وأيّ جيشٍ هذا الـــذي تذكرينـــه مراراً؟

- هل تمزح؟ لا أصدق أنك لا تعرف!

تهزّ شيْلا رأسها الجميل في إشفاق حقيقي متلقية نظرته البلهاء. تأخذ زفرة عميقة قبل أن تُكمل في تسليم:

- إنك أجهل مما كنا نتخيل. لقد عقدوا عليك آمالاً أكبر مـــن قدرك. ألا تعرف أن نهشة دراكولا معدية؟ وأن من يهلك بســـببها يُكتب عليه الضياع في البرزخ.. لا هو بالميت ولا هو بـــالحيّ. أنـــه يبعث من قبره بعد أربعين يوماً جندياً في جيش دراكـــولا المـــتعطش للمزيد من دم البشر.

يحدق فيها لبرهة غير مصدق. ظنها أعقل من ذلـــك. أطلـــق ضحكة عصبية رغماً عنه. تصوّر دينيز يبعثر التربة بازغاً من تحـــت الأرض كالنبتة الشيطانية.. أنيابه طويلة بارزة من شدقيه.. له قرنـــا ماعز وثديا امرأة.

- إضحك كما تشاء يا إفندي. لكن اعلم أني وقفتُ بنفســـي على هذه القبور التي فرّ منها ساكنوها بعدما استيقظوا من غفـــوات الموت الأبدية.. ملبّين نداء الذي لا يُسمى.

انقطعت ضحكته حين أضافت:

- بل إني رأيت أحدهم بعينيّ.

تعالى الصهيل حين شدَّ أورهان اللجام بأقصى قوتـه. تراجـع الحصانان مذعورين عدة خطوات للخلف علـى الممـر الصـخري المنحدر. ارتطمت العربة السلطانية بما خلفها وشاعت الفوضى عـبر القافلة. توقف الرتل الذي وراءهم تماماً.

هتفت فيه شيْلا:

- أيها المجنون ستقتلنا.

صاح بصوت أعلى وأشد حدة:

- بل سأقتلك بيديّ إن لم تتوقفي الآن عن اسـتغفالي. مـاذا تظنيني يا امرأة؟ طفلاً أخرق أم مرفوعاً عنـه القلـم؟ تكـذبين في وجهي؟ رأيتِ ميتاً يُبعث من قبره؟ أيّ كفر صراح هذا؟

هتت لغضبته التي لم تعاينها قبلاً. وحين تكلمت خرج صـوتها كحدّ السيف:

- أقسم على قبر أمي أني لا أكذب!

لم يعرف بِمَ يرد عليها؟

"إنها مقتنعة بأن ما رأته حقيقي"..

تابعت بدون أن تحيد ببصرها عن وجهه:

- حصل هذا في بوخارست.. الربيع الماضي. حدّادٌ كان يصنع الدروع للحامية العثمانية قُتل. وجدوه مبقور البطن، مُجتزأ الحنجرة، وشقٌ مريع ممتد بين الجرحين على طول جسده. يقولون أن زوجتـه دخلت عليه فوجدته يمشي وبلعومه متدلٍ على صدره قبل أن يسقط ميتاً عند قدميها. عرف الكل أن ابن الشيطان قد زار ذلـك البيـت ونحسَه للأبد. خيمت قافلتنا خارج المدينة في يوم أربعينـه. عرفنـا

بقصته حين مرّ أحدنا بالسوق وسمع بها. عاد إلى گواريـــل واقتـــرح عليه أن نقوم بزيارة للقبر. كان متأكداً من أننا سنعثر علـــى بضـــعة أسنان ذهبية على أقل تقدير.

تداخلت ملامح وجهه اشمئزازاً فيما واصلت هي:

– إسمع.. لا تنظر لي هكذا. إن حياتنا نحن الرومَن صعبة جـــداً والكل يعاملنا كما لو كنا جرذاناً. أحياناً نضطر لأن نقوم بأعمـــال عجيبة كي نعيش. لقد كان الرجل ميتاً على أيّة حال ولن يضره أن نقلع له أسنانه الذهبية أو نستولي على الثياب التي دُفن فيهـــا. مـــن حسن الحظ أننا لا نشتغل بالسحر وإلا كانـــت عجائزنـــا فعلـــن العجائب بجثمانه!

– حسبـــي الله ونعم الوكيل.. تنبشون القبور؟ تباً لكم من قوم مجرمين.

احتشد الدم في وجهها لكنها تابعت:

– ذهبنا نحن الثلاثة للمقابر في الليل. لم نحضر حـــتى مشـــاعلنا واكتفينا بضوء البدر في السماء. رفيقنا.. كان اسمه ستيفان.. ليرحمه الرب.. كان قد سأل وعرف موضع القبر تماماً. لكننا عندما وصـــلنا إليه صُعقنا حين اكتشفنا أن هناك من نبشه قبلنا. كـــان صـــندوق الكفن محطماً، أما الجثة فلم نجد لها أثراً!

تنحنحت وأكملت بصوت فيه رجفة:

– لبثنا نتلفت حولنا بدون أن نفهم. لم يخطر ببال أيّ منـــا أن يحصل ما حصل. بغتة.. سمعنا صوتاً مريعاً في الظلام. وحين التفتنا.. كانت جثة الحداد تنقض على عنق ستيفان وتغرس أنيابها بها.

تتراقص عضلة خدها في توتر. يلمح أورهان ذلــك ويلمــح الشفتين المزمومتين. لا يملك إلا أن يلين قلبه لها. *"هــذه فتــاة ذات أعصاب من حديد"* ..

تذكر ما حلّ به حين برز له الدبّ الغبــي. لو أن ذلك حصل بين المقابر لشاب شعر رأسه ولانفتحت حجرات قلبه الأربع علــى بعضها هلعاً!

ظهرت لهم في تلك اللحظة سحنة گواريل الكئيبة. لو يعــرف الغجري أنهم يستعيدون قصة هو أحد أبطالها. صرخ في وجه أورهان ملوحاً بسوطه في الهواء. ردت عليه شيْلا بنبرة قاطعة. تطلع لها بغيظ ثم تبادل مع أورهان نظرات البغض المحض قبــل أن يعــود لمقدمــة القافلة.

- إنه غاضب لأنك قد عطّلت نصف القافلة. يجــدر بــك أن تتحرك قبل أن يغضب أكثر.

لاحظ ارتجافة يدها والالتماعة الخائفة في عينيها.

- هل گواريل هو.. رجلك؟

ابتسمت بركن فمها:

- ولماذا تقول ذلك؟

- لا أدري. إنه يبدو أقوى رجل في العشيرة.. وأنــت كنــتِ جالسة إلى جواره بعربته البارحة.

- وها أنا جالسة إلى جوارك أنت اليوم.

لم يعرف بِمَ يرد. أراد فقط أن ينسيها شيئاً من خوفها. أغاظه أنها تملك جواباً مسكتاً لكل سؤال.

قالت وهي تتنشق الهواء البارد:

- أنا ليس لي رجلٌ.. ولا أنا امرأة أحد. أن روحٌ حُرة.. ابنة الغابة.. ابنة النبع والشجر والجبل. أنا كالنحلة.. أحطّ على الزهرة التي تعجبني.

لم يستطع أن يخفي امتعاضه. أما هي فاستعادت شخصيتها المتنمرة في لحظة:

- أرى أني بتّ لا أعجبك. هل تحسب نفسك قديساً أو نبياً؟ ثم تعال هنا أيها المسلم التقي؛ لو أني كنتُ ضمن حريم مولاك السلطان، وأهداني لك، ألم تكن ستقبل بي وتعاشرني بكل تفانٍ مع أني تقلبت بين أحضان الرجال قبلك؟ هل ما أُجبر عليه لو كنت مملوكة حلال، وما أفعله باختياري وأنا حرّة حرام وشنار؟

قلّب عينيه في ملل:

- هلاّ أكملتِ لي قصة الحدّاد الميت الحيّ الذي برز لكم بين المقابر بعدما حلّت عليه لعنة الذي لا يُسمّى؟

- أتسخر مني؟ قلتُ أني أقسم برحمة أبي أن هذا ما حصل. في لمح البصر أطبق فكيه على رقبة ستيفان. سمعتُ فقرات عنقه تنسحق بأذني. أنا وگواريل أطلقنا ساقينا للريح و لم نتوقف حتى وصلنا لمخيم العشيرة. وحين ذكرنا ما حصل للحكيم الأكبر قال لنا أننا شاهدنا واحداً من جنود إبليس.

- أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق!

- هكذا قال. سمعنا بقصص مماثلة فيما بعد. يقال أنه بعد أربعين يوماً وإذا لم تدفن الجثة على وجهها، أو يُدق صليب في قلبها،

فإن ضحية دراكولا ستخرج من قبرها وتهيم في الدنيا لتكمل مهمة سيّدها.

– لكن هذا فظيع يا شيْلا. إن معنى كلامك أن هناك مئة دراكولا على الأقل موزعون على أنحاء أرض الروم.. وأنهم كلما شربوا من دم أحد أو أكلوا لحمه حوّلوه إلى واحد منهم.

– ظننتك تعرف كل ذلك.

صمتَ مسترجعاً كل كلامها قبل أن يسألها:

– صِفي لي الوحش الذي رأيته.

– إنه.. وحشٌ كما قلت. هائل الضخامة بضعف حجم بالدو. أطول قامةً من گواريل حتى. جسده مكسوّ بالشعر وله أنياب ذئب. ومخالب رهيبة في يديه. كانت الظلمة دامسة وحصل كل شيء بسرعة. لكني أقسم أن القبر كان منبوشاً.. وأني رأيت أنياباً تخترق رقبة ستيفان. أحياناً يُهيأ لي بأني رأيت أنيابه في يديه.. لا في فمه! قد يبدو هذا خيالاً سخيفاً لكن الأمر كله لا يحيط به إدراك. الحكماء يقولون أن الشياطين خلقهم مختلفة عن المألوف.. وربما كانت لهم أعين في صدورهم أو أفواه في ظهورهم!

– وكيف تجزمين بأن ذلك الوحش هو مسخُ الحداد القتيل؟ لماذا لا يكون دباً أو حتى عفريتاً من الجن؟

ارتج عليها للحظة، قبل أن تمده بإجابة جاهزة أخرى:

– لأن آخر ما صاح به ستيفان قبل أن يموت كان: "إنه هو". البائس كان يحذرنا قبل أن يتحول هو الآخر لتابعٍ لدراكولا.. ليرحم الربّ روحه. گواريل أكدّ لي ذلك. قال أنه لمح وجه الوحش وأنه

هو وجه الحداد.. فهو الآخر تعامل معه من قبل. ثم إن القصة تكررت أكثر من مرة منذ ذلك الحين. وكم من امرأة مضت لتزور قبر زوجها كي تستنزل الرحمات على روحه، ليبرز لها منه وقد تلبسته روح الشيطان، وينشب نواجذه في جسدها ليضمها لجيش تسيبيش العائد من جهنم.

ثبَّت أورهان عينيه على الطريق. مطّ شفتيه وسرَح بخاطره بعيداً.

"موتى يخرجون من القبور؟.. إنما كوحوش مسعورة تقضم الحناجر وتشرب الدم؟! سلالة كاملة من الموتى الأحياء.. كلهم ينتسبون لدراكولا المخوزق؟ أيّ هراء؟ أيّ كفر؟" ..

أدرك سوء مأزقه. إنه، والحال كذلك، يتهدده فكّا دراكولا من الجهة، وسيف جلّاد السلطان من جهة أخرى.

بأيّ خبرٍ سيعود لمولانا؟ إنه بدلاً من أن يُبطل خرافة رجلٍ واحد، قد اكتشف أن الخرافة لها مئة نسخة. خرافةٌ لا تفتأ تنتشر.. تتوالد وتتكاثر.. كما يتكاثر الخمَجُ على الرغيفِ الفاسد.

قطعَت عليه شيْلا حبل أفكاره حين سألته:

– أنت لا تصدقني!

عاد ليتأملها.. نظر لعينيها اللتين تلمعان غضباً.. أو غيظاً. تملّى في وجهها.. الشبيه بوجه بحيرة. راكدٌ ومتقلبٌ في آن. تحتار لتعرف في أيّ اتجاه تدفع الريح أمواجه أو ما يخبئ تحته.

"كيف أصدق وجهاً كصفحة الماء؟ وكلاماً لا يقبله العقل؟" ..

قرر أن يكون مهذباً هذه المرة. تذكر دينيز في سرّه وترحم عليه:

- أنتِ صادقة بلا شك. لكن ما تقولينه عصي على الفهم، بل يناقض المشاهد والمحسوس، والمعلوم من الدين بالضرورة.

زادت الالتماعة في بؤبؤيها. أحس بأنها تغوص داخل عينيه وتنفذ لأعماقه بنظراتها الثابتة. هل فهمت ما قال؟ أم أن كلامه المنمق لم يكن سوى اتهام مكشوف بالكذب؟

اعتدلت في جلستها وتطلعت ناحية الطريق هي الأخرى. عقدت ذراعيها أمام صدرها. قاوم رغبة ملحّة لاستراق النظر لكتلتيه. تبخرت الفكرة من رأسه حين بادرته بلهجة قاسية:

- ومن تكون أنت في الأصل؟

أُخِذ لبرهة.. قبل أن يسأل:

- ماذا قلتِ؟

التفتت ناحيته ثانية لتكرر السؤال بحدة أكثر:

- من أنتَ؟ من تكون ليرسلك السلطان.. السلطان العثماني بعظمته.. كي تكشف سر تسيبيش.. دراكولا العائد من الجحيم؟ أنت؟ إنك لست فارساً سباهياً مظفّراً.. ولا أنت باشا واسع النفوذ. أنت لا تعرف شيئاً عن هذه الأرض.. ولا تعرف حتى كيف تحمي نفسك أو تردّ على من أهانك. فمن تكون بالضبط يا.. يا إفندي؟!

جاهد ليرسم عدم الاكتراث على وجهه. فكّر أنه لو دفعها برجله فستسقط أرضاً من فورها. وقبل أن تفهم ما حصل فستكون عجلات العربة السلطانية قد مرّت فوق جسدها وأراحته منها للأبد.

"من تكون يا إفندي؟ ذاك هو السؤال حقًا!"..

تذكّر الطلّة السلطانية البهيّة. تذكّر وجهيّ أمه ودينيز. مرّت أمامه كل الوجوه التي تعلّق بها بين أدرنة وحلب.. وتذكر إسطنبول العظيمة. استحضر حياته بها.. وانغماره التام في دقائقها التافهة قبل أسابيع قليلة مضَت.. ضحكات التلاميذ بالمدرسة.. وأحقاد أنداده المدرسين.

استولت على عقله بغتة، وفي تلك اللحظة بالذات، تفاصيل حكايته مع الشيخ نور الدين. تتابعت عليه الصور بكثافة عزلته عن الواقع.. فكأنه يراها أمامه رأي العين.

احتوته تلك الذكريات وهو يردّ على شيْلا بعبارة واحدة.. هي السِرّ وهي مفتاحه:

– أنا.. لا أحد!



-12-

حصل ذلك في الصيف قبل الماضي.

هل مرّ عام ونصف حقاً؟ عام ونصف فقط؟ لِمَ يحسُ وكــأن دهراً يفصله عن تلك الأحداث؟ وكأنه عاشها في حياة ماضية؟

لا غرو! إذ أين كان؟ وأين ألقت به يد الدهر الآن؟

كان في إسطنبول، جوهرة الدنيا، عاصمة السلطنة، مصــداق البشارة، يحيا حياة بسيطة إنما مستقرة. إفندي محترم يعلّم الصــبية في مدرسة جامع الفاتح.

مضى وقتها على عودته من حلَب أقل من عام. رحلته الطويلة إلى مكّة لم تكتمل. ما استطاع سبيلاً للحجّ. أنفق كل ماله وما زال الطريق إلى بيت الله طويلاً. نفدت آخر دراهمه على تخوم الشام.. في حلب. انتزعها منه قائد القافلة قبل أن يلقي بكيس متاعه في وجهه.

حذّره من العودة قبل جلب المزيد من المال:

- سنتوغل في صحراء العرب، وسنحتاج لدفع أتاوات للقبائل وإلا نهبونا غصباً. إذا رجعتَ بدون مال فسأقيّدك وأبيعك لهم!

كلامٌ لا يليق بقائد قافلة حجيج. لكن الحياة لا تقبل أنصــاف الحلول.

استقبلته حلب بحضنٍ موصد. قصد السوق من فوره. توقف عند دكان حبوب. الكثيرون يجيدون التركية هنا لكن بلهجة مختلفة نشرها المماليك الغزّ الذين يحكمون هذه النواحي. سلّم على صاحب الدكان وسأله إن كان عنده عملٌ لواحدٍ مثله. نظر الرجل لقامته الهزيلة شزراً وقال أنه بحاجة إلى عتّال. فهم أورهان رسالة الرفض وانصرف.

لم يتحسّن حظه طيلة اليوم. اقتنع بأنه سيبيت الليلة على قارعة الطريق.. لأول مرة في حياته. قرر أن يسأل عن وقف للمشردين.. إن كان في حلب واحد. بينما هو في تيهه أخذته قدماه لسوق الورّاقين. أحس بفرحة صبي في صباح العيد. هوذا عالمٌ يعرفه جيداً.. هنا تنتهي غربته.

دخل أول حانوت. رائحة الحبر والورق بدت له أطيب من المسك. أما الحروف العربية فبدت له كزخارف مقدسة تنزّلت من تحت العرش. يعرف كيف ينطقها. تعلم ذلك في الكتّاب ليقرأ القرآن بدون أن يفهمه. ساقته عيناه لأول غلاف فهمَتاه. تناول الكتاب وقرأ العنوان:

"Divinum Comoediae.. الكوميديا.. السماوية؟ الكوميديا الربّانية؟"..

تلفت حوله في قلق. هذا عنوان خطير كيفما تُرجم. دُهش لأن كتاباً كهذا يباع في قلب ديار الإسلام. تحفز حين أقبل عليه صاحب الحانوت. لكن ابتسامته العريضة طمأنته:

- هل أُعجب الشيخ بالكتاب؟ لن تجد نسخة أجود منه في حلب كلها ولا حتى في دمشق.

"شيخ؟ لقد تاقت نفسي للاحترام حقاً.. لكن ليس لهذا الحد!"..

- هل تعرف بأيّة لغة هو؟ وما محتواه؟

بانَ الحرج على الورّاق.. حاول أن يداري جهله باختلاق قصة:

- إنه.. هو كتاب في الفلك.. مكتوب بالرومية.

ثم قطّب حاجبه وقد أدرك أنه ورّط نفسه:

- هل تعرف أنت؟

ابتسم أورهان في تواضع وهو يقلب الصفحات:

- إنه مكتوب باللاتينية.. يبدو أنها مجموعة قصص.. أو شيء من هذا القبيل. لكنه لا علاقة له بالفلك أؤكد لك.

اختفت ابتسامة الوراق وأورهان يضيف:

- إن أردتَ فيمكنني أن أترجمه لك إلى التركية. أنا أجيد اللاتينية و..

انقضّ الورّاق على الكتاب لينتزعه من يديه. الابتسامة تحولت الآن إلى تكشيرة غضب:

- هل تسخر مني يا ولد؟ إن أردتَ أن تشحذ عملاً فلا تتذاكَ عليّ. اشترِ الكتاب أولاً ثم ترجمه.

وقف أورهان خجلاً في منتصف الحانوت يتلقى نظرات المقت من النسّاخين. لا يرون فيه إلا منافساً لهم على لقمة العيش. لا مفرّ من المبيت في الشارع كما يظهر. قرر أن يستجمع شتات كبريائه وينصرف حين أتاه صوت من خلف كتفه:

- ما أسرع ما تحولتَ من شيخ إلى ولد!

التفت مندهشاً. كان محدثه يتكلم اللاتينية. تنبه فوراً لطاقية اليهودي التي على رأسه، وللجرس المعلّق على حزامه. كيف لم يسمعه يتسلل من خلفه؟

- اعذرني يا بني.. إن تركيّتي ليست جيدة. لكني فهمت ما دار بينكما. لعلك تجيد العربية؟

رازه أورهان بنظرة أخرى. ليكُن الحوار باللاتينية إذاً:

- لا بأس يا سيدي.

أشار اليهودي للورّاق الذي أولاهما ظهره:

- لا عليك به. إنه جاهل. هل قرأت ذلك الكتاب من قبل؟

- الكوميديا الإلهية؟ لم أسمع به قبلاً.. والعنوان لا يبشر بخير.. إن مجرد التلفظ به كفيل بوصمك بالتجديف.

انفجر اليهودي في ضحكة مجلجلة. صارا الآن محط أنظار الجميع.

- ليس لهذا الحد. إن دانتي إلييگري.. الإيطالي الذي كتبه.. قد استوحى الكثير من مادته من أحاديث الإسراء والمعراج الإسلامية. هل تعرف بأنها قد تُرجمت إلى اللاتينية؟

كانت تلك مقدمة حوار طويل، ورفقة امتدت يومها عبر شوارع حلب ومقاهيها. تبادلا قصص حياتهما. عرّفه اليهودي بنفسه: شاول بن ميمون.. غرناطيٌّ حطّ الرحال في حلب أخيراً.

- كانت حياتي في الأندلس خيراً من هنا. على الأقل لم يجبرني أحد هناك على أن أعلق جرساً وأنتحي من الطريق جانبه. لكن

الأندلس ضاعت.. غرناطة ستقع في قبضة النصارى لا محالة. لا يجرؤ أحد على التلفظ بهذه المخاوف لكن الكل يوقن بأنها ستتحقق عاجلاً أو آجلاً. لو انتصر القشتاليون فسينكلون بنا نحن اليهود. أنا قررت أن أستبق الزمن. غادرتُ غرناطة باختياري.. هذا أفضل من أن أغادرها طريداً.. أو داخل تابوت.

خلال ساعتين صارا صديقين. نمَت بينهما ألفة لا تكون إلا بين الأرواح المتعارفة. عرض عليه المعلم شاول أن يقضي الليلة في منزله بلا مقابل. لم يعرف أورهان أن إقامته ستطول لأشهر. سيعلمه اليهودي العربية ويلقنه أصول الطبّ، وسيفتح له نافذة على عالم من الأسرار. لن يطيق أورهان صحبته بعدها. سيهرع عائداً إلى إسطنبول ليعتني بأمه المريضة.. وليكن الحج في عام آخر لو أذن الله.

حين رجع لإسطنبول، اقتنص فرصة لاحت له كالحلم. وجد وظيفة كمدرّس حساب في مدرسة جامع الفاتح. عملٌ سهل يُجري عليه راتباً من الوقف السلطاني.. ويوفر له حُجرةً بالمجان. ترتيب ممتاز لولا أنه كان مكروهاً من كل مَن حوله.

قيّم المدرسة، ومعلمو القرآن والفقه، كلهم استكبروا أن ينضم لهم فتى أعزبٌ بلا أصل ليعلم الصبية شيئاً لا يمتّ للشريعة ولا للعربية. ولما تكشّف لهم ماضيه في دراسة علم الكلام، ترسّخت مخاوفهم وأشاعوا بين الناس أنه يلقن أبناءهم أصول الزندقة.

سعوا لطرده أكثر من مرة.. لكن القرار لم يكن بأيدي أي منهم لحسن حظه. فقد اقتضت الإرادة السلطانية أن يتعلم التلاميذ أساسيات الحساب والعلوم إلى جانب القرآن والشريعة. ثم إن محبة تلاميذه له قد أكسبته رضا أهاليهم.

في ذلك اليوم، الذي يستحضر ذكراه الآن، انفضّ درسه في منتصف النهار. انطلق الأولاد كسرب النحل إلى الشوارع، كلٌّ في طريقه لبيته. وحده أورهان إفندي يسمح للصبية بإثارة هذا القدر من الضجيج. سببٌ آخر يجعلهم يحبونه، وسببٌ آخر يجعل بقية المعلمين يكرهونه.

جمع أغراضه في كيس علّقه على كتفه. ما إن صار في الخارج حتى بهرته شمس الصيف الصاهرة. فكّر أن يشتري شراباً بارداً لأمه. غشيته كآبة.. يعرف أن السلّ لن يمهلها طويلاً.

تنبه لأحد تلاميذه يقبل نحوه. يده في يد امرأة.. لعلها والدته. في يدها الأخرى طبقٌ مغطى بقماشة مزركشة. وقف في مكانه حتى صارا أمامه. تطلع له التلميذ بفخر. أما المرأة فجاءه صوتها من وراء الخمار:

- السلام عليكم يا إفندي.

ثبّت نظره بالأرض.. بعدما لمح عينيها الزرقاوين من وراء الغلالة الرقيقة. ربط بينهما وبين لهجتها. رومية؟ من سبي الغزو هي الأخرى.. مثل أمه؟

واصلت الأم الشابة الكلام.. صوتها مفعم بالصبا:

- ابني مصطفى يذكرك بالخير عند أبيه. صار ماهراً في الحساب بفضلك.. أبوه صار يعهد له بدفاتر الدكان.

- الشكر لله يا خاتون. وابنكم ذكي ومؤدب أدباً عالياً.

تمد الأم الرومية يدها بالطبق:

- يقول مصطفى أنك لست متزوجاً.

تصمت وتحدق به من وراء الخمار. يحس أورهان بوقع عينيها على وجهه.

- لعلك تشتاق للحلوى المبردة؟ إن الحر شديد. هذه هدية بسيطة مني لك.

"هدية منها لي.. لا بأس"..

لم يجد حرجاً في الأمر. فقد اعتاد المعلمون على تلقي الهدايا.. لكن أمهات التلاميذ لم يكنّ صاحبات المبادرة غالباً. فكّر أورهان أنه لا يرتكب جناية خاصة وأن الأمر يتم عياناً جهاراً على أبواب المدرسة.. لكنه لم يلبث أن اكتشف خطأه.

ما أن أحس ببرودة الطبق على أطراف أصابعه حتى دوّت صيحة جعلته يجفل ويسحب يده من فوره. السيدة، أم مصطفى، ارتعبت هي الأخرى فأفلتت الصحن الذي هوى على الأرض مهشماً مبعثراً محتواه.

كاد أورهان يطبق أصابعه على عنق الشيخ نور الدين الذي برز لهم من العدم.. وجهه محتقن ولحيته البيضاء تهتز من الغضب فيما صياحه يدوي عبر الشارع مستجلباً اهتمام المارّة والفضوليين:

- الله أكبر! الله أكبر! هكذا أمام باب بيت الله ودار العلم؟ بلا خجل ولا حشمة؟ جلبت العار علينا كلنا أيها الخبيث!

هرولت الأم المفزوعة مبتعدة، وكأنها خاطئة ضُبطت متلبسة، تجرجر ابنها في يدها. أما أورهان فتأمل في الصحن المهشم بخيبة قبل أن يرفع عينيه للشيخ الذي أقبل عليه يرغي ويزبد متكئاً على عصاه.

الشيخ نور الدين.. القيّم على مدرسة الفاتح.. وأكثر من يبغض أورهان على وجه الأرض.

لطالما احتار أورهان في الكيفية التي صار فيها خَرِفٌ ضحل المعرفة، مثل نور الدين، قيّماً على المدرسة السلطانية بأسرها. أقنع نفسه بأن حكمة الله، التي يسّرت سبيله هو بالذات، ليست أضيق من أن تشمل أمثال نور الدين كذلك. حكمة الله لا يدرك حدودها سواه.

"الصبر.. يجب أن أتحلى بالصبر. لو تهورتُ ودفعتُ هذا الرجل في صدره فسأقتله من فوري"..

فكّر أن الشيخ يستحق الجلد على الأقل، لا سيما وقد راح يصرخ أكثر:

– تتودد للنساء على قارعة الطريق يا عديم الشرف! هل طال خبثك وشرّك أمهات الصبية كذلك؟ ألا يكفي ما تفسد به عقولهم وعقائدهم من الفلسفة والهرطقة التي تدسّها لهم بين الدروس؟

أخذ أورهان نفساً عميقاً. استنزل أقصى مراتب الحلم وهو يقول:

– اتقِ الله يا شيخ فيما..

قاطعه العجوز ملصقاً وجهه به حتى أحس بالرذاذ المتطاير من فمه:

- أتقي الله؟ تقول لي أنا ذلك؟ يا فاجر.. يا زنديق.

التأم حولهما جمهور أكبر ليشهد المشاجرة بين الأستاذين. قرر أورهان أن يقلب الطاولة في وجهه خصمه. رفع يديه في الهواء وهتف:

- تتهمني بالزندقة؟ أتسمعون يا ناس؟ ويحك! والله لأشكونك للقاضي.

- بل أنا الذي سأقيم عليك الحجة والحدّ. ألست تتعاطى الفلسفة والمنطق ولا تنكر ذلك؟ "من تمنطق فقد تزندق". هذا قول حجة الإسلام الغزالي.. أم أنك تستهزئ كذلك بفتاوى علماء الإسلام وما أجمعت عليه الأمة؟

ضرب أورهان كفاً بكف:

- رحم الله مولانا الغزالي. لو درى على أيّ لسان سيجري كلامه من بعده لأحرق كتبه. ولو أن كل ببغاء ردَّدتْ حِكَمه لصارت حجة إسلام هي الأخرى. ألا نأتي ببغاء تحفظ المتون ونضعها مكانك في المدرسة؟

تعالى ضحك بعض الرعاع. احتقن وجه الشيخ أكثر حتى خشي أورهان أن يقع ميتاً بالفعل. رفع عصاه في الهواء وهدد:

- إلزم حدَّك يا ولد.. فأنت لا أحد. إن أنت إلا مدرس حساب يمكننا أن نستبدلك بأيٍ كان.

صعد الدم لرأس أورهان. عرف ألا شيء يمنعه من انتزاع العصا وتكسيرها على هامة الشيخ إلا هؤلاء الشـهود المحتشـدون. قـرر التمادي في إغاظته أكثر:

– ولماذا تأتي بأي كان؟ لَمَ لا تحلّ أنت محلـي يـا مولانـا الشيخ؟ ألست موهوباً في الحساب أنت الآخر؟ كيف لا؟ وأنـت تقضي جلّ وقتك في تحصيل عوائد أراضيك وإحصاء ما تجبيه من فلاّحيك.

قفز حاجبا الشيخ الأبيضان لطرف عمامته. عرف أورهـان أنه قد أصاب وتراً حساساً حين كشف السر الـذي لا يعرفـه الكثيرون.

فالشيخ نور الدين يمتلك أراضٍ شاسعة قرب بورصة. لا يعرف أحد كيف تسنّى لقيّم مدرسة مثله أن يصل لهذا القدر من الثراء. قيل أنه ورثها على كبَر، وقيل أنه عقد صفقة مشبوهة مع أحد إقطـاعيي السباهية. سرَت شائعات كثيرة لكنها بقيت محصورة داخل جـدران المدرسة. وصل بعضها لأذن أورهان وعرف قبل يومين أن الشـيخ متغيب عن الدروس ليتفرغ لاستقبال الفلاحين الذين جـاؤوا لـه بمكاسب الموسم.

جزّ العجوز على أسنانه:

– تحسدني في رزقي الذي ساقه الله إليّ؟ زنديق وحسود أيضاً؟ والله لأنتقمن منك ولن تأخذني فيك رحمة.

لوح أورهان بذراعه في الهواء. قرر أن ينهي المشاجرة منتصراً. قال وهو يدير ظهره وينصرف:

- إستبقِ رحمتك للقرويين المساكين، مَن تقصم ظهورهم بالأموال التي تقتلعها من قوتهم اقتلاعاً. إرحم أولئك الضعفاء أولاً ثم تعال وادّعِ الصلاح أمام الناس.

ترك الشيخ يشاجرُ الهواء واتجه ناحية بيت أمه. زاد حزنه لما رآها وعاين الدم الذي تسعله من صدرها. دعا في سره على العجوز الذي أفسد مزاجه.

قضى مساءه في مقهى مزدحم. تسلى بشرب القهوة والاستماع لقصص الحكواتية. بعد العِشاء مشى عائداً لحجرته الملحقة بمجمع المسجد. فكّر أن الغد سيحمل له مواجهة جديدة مع الشيخ الوغد.

لكن القدّر لم يمهله إلى الغد. من البعيد لاح لأورهان التجمع الغفير حول المسجد.. زحام المشاعل وضجيج الناس. همهم لنفسه:

- خيراً إن شاء الله.

غذّ السير حتى اقترب من جمع الناس الفوضوي والمذعور. ما أن صار بينهم حتى ارتعب حين لاحظ تسلط نظراتهم عليه وتهامسهم لرؤيته. فوجيء بوجود كل زملائه المدرّسين. حدجوه هم أيضاً بنظرات الشرّ والشماته. انقبض قلبه وبلغ توتره منتهاه.

"ما الذي جاء بهم في هذا الليل؟"..

توغل في الزحام حتى صار في مواجهة ثلة من جند المستحفظان[1]. وسطهم على الأرض كان رجل يبكي ويلطم..

---

1 وجاق (فرقة) من أوجاق الانكشارية. تولت في الغالب مهام الشرطة في المدن العثمانية الكبرى.

عرفه أورهان حين انقض عليه بغتة وشرع يوجـــه لـــه الصـــفعات ويصيح:

– لعنة الله عليك.. يا عدو الله.. يا قاتل.. قتلت أبـــــي يـــا ملعون.

لم يكن ذلك سوى ابن الشيخ نور الدين.



-13-

وجدوا جثة نور الدين وقد مزقتها الطعنات. غلامه غاب ليتوضأ ثم دخل عليه ليذكّره بصلاة العشاء فعثر عليه جثماناً غارقاً في الدم.

انقلبت المدرسة، والحيّ بأسره، رأساً على عقب. هرع للمكان ذوو الفقيد وجند المستحفظان.

لم يرَ أحدٌ الفاعل، ولم يُشاهَد متسللٌ يغادر المكان. لم يكن للشيخ الجليل أعداء. لكنه اليوم بالذات تشاجر مع مدرّس شاب يقال له أورهان إفندي. أرسل آغا المستحفظان من يأتي بأورهان هذا من حجرته. لم يجدوه.. لا شك في أنه قد فعلها وهرب! غير أنه لم يلبث أن ظهر لهم.. رجع إليهم ماشياً على قدميه.

تركوا ابن الشيخ نور الدين يمرّغه في الأرض قليلاً قبل أن ينتزعوه من فوقه انتزاعاً. عمامته انفرطت وداستها الأقدام. أحس بكدمة مشتعلة على إحدى وجنتيه. صرخ بهم وصرخوا به.. تبادلوا الزعيق كالقرَدة قبل أن يرفع آغا المستحفظان، قائد الشرطة، يديه في الهواء ويجبرهم كلهم على الصمت.

بقي أورهان على الأرض، أشعث أغبر، يلتقط أنفاسه ويحاول أن يفهم سر هذا الجنون الذي يحيطه. إن آغا الشرطة بنفسه هنا.. لا

شكّ بأن الخطب جلَل. يقولون أن نور الدين قد قُتل منذ قليل.. ويتهمونه هو. بدأ يستوعب أبعاد مصيبته.

غير أن الآغا تطلع له بنظرة لم تخل من الخيبة. وكأنه عرف بمجرد النظر إليه أن هذا ليس مطلوبه، وأن القضية لم تُحل بعد.

دار حوله وكأنه خروف يتفحصه قبل أن يشتريه. حاول أورهان أن يقف ليواجهه إلا أن الآغا ثبّته للأرض بدفعة واحدة. يريد أن يُبقيه مخزياً. هكذا سيضيف هماً لهمّه ويسهل عليه استجوابه.. هكذا سيشفي غيظ ذلك الابن الأحمق الذي لم يكفّ عن الولولة.. وهكذا ستزيد هيبة المستحفظان في نفوس الدهماء الذي يتفرجون على المشهد.

سأله أخيراً:

- أين كنتَ يا إفندي؟

يبحث أورهان عن ريق ليبتلعه. لسانه جاف كالحطبة. قال من بين أنفاسه المتلاحقة:

- في المقهى بآخر الشارع. من بعد المغرب إلى الآن. جئت من هناك إلى هنا مباشرة.

يمط الآغا شفتيه. بنظرة واحدة يهب أحد جنوده إليه. يهمس الآغا في أذنه بكلمتين فينطلق الجندي لا يلوي على شيء.

يعبث الآغا بشاربه المفتول ويفكر. هذا الفتى النحيل ليس قاتلاً. يبدو رخواً وأضعف من أن يقدم على ثمة عمل. كما وأن الجثة ساخنة لم تجف دمائها بعد، والفتى جاء بثياب نظيفة ومن جهة

المقهى فعلاً. ثم إنه لا يبدو غبياً بما يجعله يعود لموقع الجريمة في هــذا الوقت بالذات.. وقد علم أن الحيّ كله شهد مشاجرته مع الشــيخ قبل ساعات.

تعالى صياح ابن القيّم مجدداً. صوته رفيع كأنه عنــز وهبها الله القدرة على الكلام:

- ماذا تنتظر يا آغا؟ خذوه وليُقطع رأسه. أريد القصاص. أريد الثأر لدم أبــي!

حدجه الانكشاري المعتق بنظرة أخرسته. لم يلبث الجندي الذي أرسله أن رجع راكضاً. قال من بين لهاثه:

- كما قلتم يا آغا. قضى الليلة كلها هنــاك وشــهد بــذلك صاحب المقهى والحكواتي وأكثر من عشرة آخرين.

هزّ الآغا رأسه في تسليم. قُضي الأمر إذاً.. الإفندي برئ من دم الشيخ.

التفت إليه:

- إنهض.. تستطيع العودة إلى دارك.

لم يصدق أورهان أذنيه. ولا صدقهما ابن الشيخ الذي انتفض وأمسك بتلابيب الآغا:

- ماذا تقول؟ تتركه ينصرف؟ تسمح لقاتل أبــي بأن يهرب؟ هل جننت؟!

نزلت كفّ الآغا المستحفظان على وجهه. في طرفة عين صــار مكوماً على الأرض إلى جوار أورهان. هدر قائد الشرطة مديراً عينين مشتعلتين في وجوه الحشد المحيط:

- الإفندي برئ. الشيخُ قد مات خلال الساعة الماضية وحسب. والإفندي قضى الليلة كلها بعيداً وعنده شهود. أما القاتل الحقيقي فسأقبض عليه ولو تحول إلى قملة واختبأ في ذيل حمار. لا أحد يعلمني عملي!

ثم التفت لابن الشيخ نور الدين الذي راح يفرك موضع الصفعة:

- لله ما أخذ ولله ما أعطى. اهتم بجثة أبيك. أيقظ مغسّل الجامع وجدَّ في البحث عن كفن. إن إكرام الميت في دفنه. يسعُكَ إن استعجلت أن تصلّي عليه الفجر.

عاد أورهان لحجرته الصغيرة أخيراً. تكمكم على نفسه فوق حشية فراشه وأغمض عينيه. ما يزال ذاهلاً.. عقله مشتت بين الأحداث.

انفجر بغتة في نوبة بكاء مكتوم. لم يعرف من أين أتت هذه الدموع. استشعر فجأة كم هو ضعيف وحيد ومكشوف. أحس بأنه تعرض اليوم بالذات لقدر من الإهانات يفوق أيّ احتمال. في البدء نال القيّم من شرفه واتهمه أمام الناس، وحتى بعد أن مات.. تسلّط ابنه عليه وفضحه. والأدهى أن الكل يصدقهما. ارتاع حين أدرك أن أياً ممن حوله لا يجد غضاضة في اتهامه بالقتل وبارتكاب الموبقات. كل الاحترام الزائف الذي يكنونه له كإفندي لم يكن لينفعه لو أنه قرر أن يمضي الليلة إلى جوار أمه. لقد أنقذه لطف الله.. وشهادة رواد المقهى.. لا أكثر! ولولا ذلك لجلَد الآغا قدميه إلى أن يقرّ بالفعلة.

مات الشيخ نور الدين إذاً.

"فليذهب للجحيم"..

ما أن واتته الخاطرة حتى اعتراه الندم وأحس بيد باردة تعتصر قلبه. إن هذه الدنيا لا تستحق! كما وأن رحيل الشيخ لن يحل له أياً من مشاكله. على العكس. من يضمن له أن الناس سيصدقون براءته؟ من يضمن له بأن نظرة الصِبية له لن تتغير؟ سيجدها أنداده المدرسون فرصة لينفثوا المزيد من السم في سيرته.. متفلسف وقاتل!

لن ينال حقه إلا بانكشاف القاتل الحقيقي. لكن هل يفعلها آغا المستحفظان؟ إنه يبدو صارماً.. لكن هل هو ذكي كفاية؟ سمع أن الشيخ نور قد طُعن حتى الموت؟ هل عثروا على النصل الذي قتله؟

حاول أن يتخيل جسد الشيخ الهش وقد اخترقته الطعنات. شكلُ الجثة المسجاة في ذهنه عاد به لأيام حلب، ولذكريات دروس التشريح مع المعلم شاول. كان اليهودي لا يتورع عن شراء جثامين المتسولين والموتى الذين ليس لهم أهل من المشافي. فتحَ أكثر من جسدٍ أمامه. عانى أورهان كثيراً في البداية.. ثم واتته الشجاعة وغلبه فضول المعرفة آخر الأمر.

لو يعرف الآغا أنه قد شرّح أجساداً آدمية واستكشف مجاهيلها بيديه، أكان يغيّر رأيه فيه؟ يجدد شكّه به؟

ارتعد حين تذكر قدرة شاول على استنطاق الموتى. ليتهم يجيدون فحص جثة نور الدين قبل دفنها. الفحص الدقيق سيكشف كثيراً من أسرار الوفاة. غلبه اليأس. إن أحداً لن يجرؤ على العبث بجسد الشيخ. سمع الآغا يحث ابنه المأفون على دفنه بعد الفجر.

سيبقى الجثمان في ميضأة الجامع، على بعد خطوات من حجرته هذه، إلى أن يصل المغسّل. سيوارونه الثرى وستختفي معه أدلة لا تحصى على حقيقة ما حصل.

زفر بتعب وقد قرر أن يفرّ لملكوت النوم. استكان للحظات قبل أن تنفتح عيناه على اتساعهما. قفز من فراشه كالملدوغ. وضع قدميه في خفيّه قبل أن يغيّر رأيه ويخلعهما.

المشي حافياً أفضل. هكذا لن يحس به أحد وهو يتسلل ليعاين الجثة بنفسه.

هدوء عجيبٌ لفّ مجمّع مسجد الفاتح. مشى في الظلمة عبر الممرات الخلفية التي يعرفها جيداً. لم يصله سوى صوت نواح النساء من بيت الشيخ اللصيق بالمسجد هو الآخر.

عبرَ الساحة المكشوفة ركضاً ونبضُ قلبه يسابق وقع قدميه. لو كان أحد سيعثر عليه فسيحصل ذلك الآن. لكن أحداً لم يعترضه. وقف عند باب الميضأة واسترق نظرة داخلها. لا أحد حيٌّ هنا. لا يوجد إلا الجثمان المسجى على ظهره تحت خرقة بيضاء لوثتها بقع الدم. الجراح طازجة وما تزال تنزف إذاً.

أخذ نفَساً عميقاً وعبر عتبة الميضأة بخطوة واسعة. صار الآن في مواجهة الجثة التي كان صاحبها يتوعده في النهار. خنقته غصة.

"دنيا زائلة لا تستحق"..

رفع الغطاء عن وجهه بحزم. كشفه إلى ما دون سرته بقليـــل. حبسَ المنظر أنفاسه للحظة. لا يزعم أنه اعتاد مناظر الجثـــث. رأى آخر واحدة قبل أشهر. ومنظر جثمان من تعرف، من كـــان حيـــاً أمامك منذ سويعات، يظل مذهلاً. أما رؤية جسد شيخ كبير مشوهاً هكذا فمثير للاشمئزاز حتماً.

لكنه تمالك نفسه. لا وقت لديه يضيعه. عليه أن يعود لحجرتـــه بنفس السريّة التي جاء بها. تحركت عيناه بسرعة الـــبرق تســـجلان المشاهد.

أربعة جروح كبيرة مزقت الجلد الأبيض الرقيق واللحم الضئيل الذي تحته. جروح طويلة وليست طعنات. الطعنات كانت ســـتترك فتحات ضيقة عميقة. أما هذه فتبدأ كطعنات.. ثم تمتـــد كشـــروخ طويلة تحزّ اللحم حزّاً. كأنها أفواه غيلان على وشك الانفغار. النصل الذي استُخدم حاد بلا شك.. مشرشر وغير مستوي الحدّ.. تشـــي بذلك طريقة تمزق الجراحات وأشكال حوافها. لا يمكن أن تكـــون ضربات سيف والحال كذلك.

أربعة جروح، أحدها على الذراع اليمنى تحت جانـــب الكتـــف مباشرة. وأحدها أسفل الثدي الأيمن بعرض عضلة الصدر. الثالث علـــى الجهة اليسرى، ممتد من موضع الكلية إلى ما قبل السرّة. الجرح الرابع هو الذي قتله غالباً.. حيث يلتقي العنق بالكتف.. من الجهة اليمنى كذلك.

ثمة كدمة زرقاء على الجبهة. لعلها ضربة بمقبض الســـلاح.. أو لعلها من أثر سقوطه على الأرض. كيف لم يسمعه أحد؟ قـــالوا أن غلامه تركه ليتوضأ. تخيّل الشيخ وحيداً في خلوته.. أكان منـــهمكاً

بقراءة وِرد مسائه؟ أم بإحصاء ما حصّله من أجرائه حين فاجأه القاتل وقضى عليه؟

ترى.. هل سرق منه شيئاً؟

خطر له أن يتفقد ظهر الجثة.. لعل جراحاً أخرى توجد هناك. أخذ نفساً آخر ومد يديه للجسد البارد، المتخشب والثقيل. أماله على شقه الأيسر. سمع السوائل تقرقر حُرّة في الجهاز الهضمي الميت. تمالك تقززه وتأمل في الظهر ولوحيّ الكتف. لا شيء! كان القتل مواجهة من الأمام إذاً.

حقائق كثيرة.. انهمك تماماً في ربطها وتحليلها وهو يعيد الجثمان لظهره.

كانت يداه ما تزالان ممسكتين به حين التفت لمدخل الميضأة ليجد ابن الشيخ نور الدين واقفاً مع مغسّل الأموات وآخرين، كلهم يحدقون به وقد فتحوا أفواههم واتسعت أعينهم في ذهول.



-14-

لم يعرفه آغا المستحفظان حين رآه هذه المرة. تزاحمت آثار الضرب على وجهه المنتفخ. ثيابه تمزقت وبانت المزيد من الكدمات الزرقاء تحتها.

أخذته شفقة بالفتى فعدل عمّا انتواه. كان سيجلده أو سيحبسه على الأقل. ما إن أوى لفراشه وتحسس جسد امرأته إلى جواره حتى طرق بابه أحد الجند. جاءه بخبر مشاجرة جديدة اندلعت في المدرسة السلطانية. أقارب الشيخ نور الدين ضبطوا أورهان يعبث بجثة فقيدهم فأوسعوه ضرباً. لم يمنعهم عن قتله إلا رغبتهم في رؤيته مداناً معدماً بحكم من القاضي.

أدرك أن هذه الليلة السوداء ستطول. هذا الأورهان مثير للمشاكل. تحركت الشكوك في صدره.. أتكون فراسته قد خذلته؟ هل أخطأ حين برأه من التهمة؟ ما فعله لا يُعد دليل إدانة.. لكنه مثير للريبة حقاً.

كانوا قد قيدوا الفتى وأجلسوه إلى جوار مصطبة غسيل الموتى. رسم الآغا على وجهه ملامح القسوة. ما أن ظهر حتى انفلت أقارب الشيخ في الصراخ مطالبين بحقهم. أسكتهم وأمرهم بأن يغربوا عن وجهه.. سيستجوب أورهان وحده.

خرجوا وهم ينقلون أبصارهم بينهما في شك. هؤلاء قوم أعماهم الغضب. توقع أن تصل شكاوى بحقه لديوان القاضي.. وللصدر الأعظم أيضاً.. بمجرد أن تطلع الشمس.

سلّط عينيه الصارمتين على أورهان. الفتى ينظر له بثبات لكن حنجرته ترتجف. إنه خائف لكن عنده كلام كثير. هل سيعترف أخيراً؟ يود الآغا أن يعرف كيف فعلها حقاً.. إن كان هو القاتل.

عقد كفيه خلف ظهره ونفش صدره. خرج الأمر من تحت شاربه الكثّ:

- تكلّم.

قطب أورهان حاجبيه وتنحنح بشدّة. لعلهم ضربوه على حلقه. لو أحس الآغا بأنه يكذب عليه فسيجعله يشتاق لدعابات أولئك النفر الغاضبين.

قال أورهان:

- كنت أدرس الجثة. أردت أن أعرف كيف مات وبأيّ سلاح؟

ارتفع حاجبا الآغا رغماً عنه:

- هكذا إذاً؟ وما شأنك أنت؟ وكيف كنت ستجد ما تبحث عنه.. يا مدرّس الحساب؟

- لي خبرة في الطب والتشريح. أعرف أن لكل ميتة أثراً خاصاً تتركه في جسد صاحبها.

يسكت ليتأوه قليلاً. لعلهم كسروا فيه عظمة ولعل القيد يوجعه. لا يكترث الآغا لأيّ من ذلك إزاء المعلومة الجديدة

الصاعقة.. له خبرة في التشريح؟ هل يقصد أنه فتح جثثاً وعبث بمحتوياتها؟ تجلّد وقاوم الرجفة التي كادت تهزّ شاربيه. أيعقل أن يكون هذا الفتى التافه قد مارس السحر الأسود يوماً؟

يواصل أورهان:

- تسألني ما شأني؟ وكيف يهنأ لي عيش بين جنبات هذه المدرسة وقد التصقت بي التهمة؟ أتعتقد أنهم يصدقون أني بريء؟ أنا مدان ولو حلفت على المصحف، ولو شهد لهم كل سكان إسطنبول بأني لم أفعلها. إن شرفي وسمعتي معلقان بالعثور على القاتل الملعون.

- أنت لا تثق بي إذاً.

لا يرد أورهان. ولا يجد الآغا مبرراً للغضب. إنه في الواقع تائه، ولا يملك خيطاً يقوده للحقيقة في هذه المسألة. لكنه لن يعترف لأحد بذلك.

يثني ركبتيه ليواجه أورهان. تبدو له إصابات وجهه أكثر سوءاً من هذه المسافة.

- ماذا أفعل بك الآن؟ هه؟ لو تركتك تعود لحجرتك فسيقتلونك قبل أن يدفنوا ميتهم. الزنازين عندي ملأى ولا مكان لدي لتبيت فيه. ماذا أفعل بك؟

يقاوم أورهان آلامه. يحدق في عيني الآغا ويخرج صوته حاسماً:

- ثق بي يا آغا. طاوعني فيما سأطلبه وسيكون القاتل عندك قبل ظهر الغد بإذن الله.

تأخذه المفاجأة. هل يهزأ به الفتى؟ تكاد العزة تأخذه بالأثم. ماذا يعرف هذا الغرّ وغاب عن ملاحظته هو.. وقد تعتق في وظيفته هذه لسنين.

لا يترك له أورهان مجالاً:

- سأراهن على ذلك بحياتي. أقبلُ بأن أتحمل التهمة لو فشلت. أما الآن فلكل لحظة قيمتها. طاوعني يا آغا واجمع كل القرويين الذين وفدوا على الشيخ من بورصة. أسرع قبل أن يفرّ القاتل فتتحمل أنت وزره إلى يوم القيامة.

دُفن الشيخ نور الدين بعد صلاة الفجر مباشرة. سكب المعزون أنهار الدمع في جنازته وأرعدو وأبرقوا من جديد. طالبوا برأس أورهان الذي خبأه الآغا عنهم.

مع شروق الشمس تم اقتياد كل القرويين الذين جاؤوا ليؤدوا إتاوات الأرض للشيخ نور الدين إلى السجن. انتشلهم جند المستحفظان من فرشهم في الخانات وجرجروهم عبر الشوارع. طاردوا اثنين منهم كانا قد شدّا الرحال عائدين لبورصة. ربطوا قيديهما بالخيل وسحبوهما وراءهم لقلب إسطنبول.

جيء بأورهان مقيداً هو الآخر. بدا في حالٍ خير من حال الفلاحين المساكين الثمانية، الذين طارت قلوبهم شعاعاً وأوقفوا في ساحة السجن كالعبيد.

استعرضهم الآغا بصلف. قرر أن يساير أورهان حتى النهاية. ليس لديه ما يخسره. لو ثبت أن الفتى يتلاعب به فسيجعله يتمنى سيف الجلاد.

أشار أورهان بعينيه لقيده الحديدي. زفر الآغا وأمر بأن يُحرر. فرك الفتى معصميه قبل أن يخاطبه:

- أريد متاعهم. أحضروا كل شيء ولا تهملوا قطعة واحدة.

نظر له الآغا في غيظ. متى تنتهي هذه اللعبة؟ لكنه أمر جنده بأن ينفذوا.

- أريد أيضاً منضدة.. وأوراقاً وأقلاماً ودواة.

انفجر الآغا:

- هل تستخف بي يا ملعون؟ هل جئت بهؤلاء لتعقد لهم حلقة درس في سجني؟

صمت أورهان. ليس عنده شيء ليقوله الآن. لقد وعده الآغا بأن يثق به وهو لا يطلب سوى ذلك.

واجه القرويين الثمانية. أعينهم تدور في محاجرها وقلوبهم بلغت الحناجر. بعضهم شرع في البكاء. لا يفهمون أيّ مصيبة هذه التي حطت على رؤوسهم من حيث لا يحتسبون.

أمر أورهان كل واحد منهم بأن يكتب اسمه على ورقة. نظروا لبعضهم في ضياع. قفزوا في الهواء حين صرخ بهم الآغا:

- أنجزوا طلب الإفندي يا أبناء البائسات.

تكلم أحدهم أخيراً.. قال بصوت باكٍ:

- ولكن يا سيدي.. أنا لا أجيد الكتابة و لم أدخل الكتّاب.

رد عليه أورهان:

- لا بأس.. ارسم لي دجاجة إن أحببت. أرني كيف تمسك بالقلم وحسب.

تتابع البائسون الثمانية على المنضدة. أمسكوا بالأقلام وخربشوا على الورق. كتَب أحدهم: "يا منجي يا الله".

همس أورهان في أذن الآغا:

- لا حاجة لنا بهؤلاء الستة.. قاتلنا هو أحد أولئك الإثنين.. القصير.. أوالنحيل ذو العمامة الزرقاء.

تأمله الآغا بنظرة طويلة من رأسه لأخمص قديمه. أوداجه منتفخة وعيناه محمرتان من قلة النوم.

- لن أفعل شيئاً حتى تطلعني على الذي يدور في رأسك.. أياً كان.

تنهد أورهان وتنحنح. هرش قفاه ثم واجه الآغا بما عنده:

- معظم الضربات في جسد الشيخ نور جاءت في جانب جسده الأيمن.

- وماذا يعني ذلك بحق الشيطان؟!

- يعني يا آغا.. أن القاتل كان يمسك بسلاحه باليد اليسرى.

اتسعت عينا الآغا وأشرق نور الفهم فيهما. القاتل أعسر. بملاحظة ذكية واحدة قلّص أورهان عدد المشتبه فيهم للربع.. من ثمانية إلى اثنين وحسب. فتى ذكي بحق.

- ولكن.. ما الذي جعلك تشتبه في هؤلاء الآتين من بورصة بالذات؟ لماذا يكون القاتل أحدهم؟ إن إسطنبول فيها مئة ألف أعسر.

- صدقت. لكن الجراحات التي في جسد الشيخ.. كما عاينتُها.. لم يُحدثها سلاح تقليدي. إنها ليست ضربات سيف ولا طعنات خنجر.. ولا حتى خروقات بإزميل نجّار. بل هي جراحات طويلة ذات بدايات عميقة. جراحات أحدثتها أداة حادة معقوفة ذات حدّ مشرشر.

لم يتمالك الآغا الابتسامة التي قفزت لشفتيه وأورهان يكمل:

- جراحات لا يحدثها إلا منجل حصّاد يا آغا. منجلٌ في يد فلاحٍ غاضب طفح به الكيل.

استخرج الجند منجليّ الفلاحين من متاعهما. تأملهما أورهان بحرص وقلبهما بين يديه. شم نصليهما بأنفه.. ثم تمادى ولعقهما بلسانه! التصق به الآغا محاولاً أن يفهم.

قال له أورهان وهو يقلّب الأداتين:

- ألا ترى معي يا آغا.. أنه من المدهش أن تكون أداتا زرع كهاتين.. نظيفتي النصل هكذا.. وكأنهما غُسلتا جيداً ليلة البارحة وحسب!

حرّك الآغا رأسه في فهم. لكنه عاود ارتداء قناع السخط وهو يرمق الفلاحين الذين وقفا مرتجفين غير بعيد تحت شمس الصباح:

- الملاعين. هل تعتقد أنهما اشتركا في قتله؟

- لا أظن. لكننا سنعرف يقيناً بعد قليل.

- هل تريدني أن أجلدهما حتى يقرّا؟

تطلع له أورهان بنظرة باردة. بادله الآغا مثلها. قال أورهان:

- سلاح القوة لا يغني من سلاح العلم شيئاً. كم بريئاً كنتَ ستعذب أنت لتصل إلى مدانٍ واحد؟ أنا بمنهج العلم سآتيك به بدون أن أظلم أحداً.

أخذ المنجلين ووضعها على الأرض في منتصف ساحة السجن. عاد ليتولى إلى ظل حائط بطرف الساحة ويعلن للجميع:

- لا يقتربن أحد من المنجلين. ما أن تصليهما نار الشمس حتى يعترف أحدهما من ذاته.

صبَّ عليه جند المستحفظان نظرات الاستهجان. لم يكترث، بل أسند ظهره للحائط وراح يتحسس إصابات وجهه:

- بالله عليك يا آغا.. مُر لي بماء بارد.. وبشيء أفطر عليه.. أنا وهذان المسكينان.

قاوم الآغا رغبته في أن يركله في معدته. رفع أورهان عينيه إليه وطمأنه:

- لننتظر فقط إلى أن ترتفع الشمس ويكثر الذباب.

شك الآغا فيما سمعه:

- قلتَ الذباب؟

ابتسم أورهان في إرهاق. اكتفى بالقول:

- ما يعلم جنود ربك إلا هو!

أكل أورهان وشرب. لبث في مكانه لساعتين أو يزيد. لم يتحرك الآغا في وقفته خلالهما. كاد الملل يحرق أعصابه لكنه صبر.

جدد في سرّه القسم بأن يكون انتقامه من الفتى النبيه شنيعاً لو ثبت تلاعبه.

نهض أورهان أخيراً.. مشى ناحية المنجلين. وقف على بعد خطوات منهما وتأملهما. أشار بإصبعه ناحيتهما في انتصار:

- ماذا ترى يا آغا؟

حملق الآغا لحيث يشير. كاد يذهل لما رأى:

- ذباب.. ذبابٌ يطير حول المنجلين.

- بل إن أكثره يحط على منجل واحد. ألا تجد هذا مدهشاً؟

- شيء يطير بالعقل. لكني لا أفهم.

- لقد غسل القاتل منجله مما علق به. لكن مهما سكب عليه من الماء.. فإن بقايا دقيقة من اللحم والدم ستظل عالقة به لا محالة. آثار لا تراها عين الإنسان.. لكن يراها الذباب ويلتقط رائحتها.

بُهت الآغا. نظر لأورهان في غير تصديق. تضاربت في صدره مشاعر الإعجاب والغيرة. لقد وفى الفتى بما وعد وحل له لغزه.

التقط الأداة من الأرض وصاح بملء رئتيه في الفلاحين المرتعدين:

- منجلُ من هذا؟

تكورت عينا القروي القصير. برزت أسنانه في رعب وخرجت الكلمات من بينهما غصباً:

- منجلي أنا يا سيدي.. لكني بريء.. أحلف بالله أني بريء.

أفرغ الآغا كل حنقه في صفعة هوى بها على وجه الرجل:

- لا تحلف كذباً يا عدو الله. والله لأسلخن ظهرك حتى تقرّ بما جنيت.

مد أورهان يده وقبض على معصم الآغا. همس في أذنه:

- رويدك.. سأجعله يعترف. أحتاج لدليل أخير كي أقطع الشك باليقين.

- ماذا ستفعل الآن؟ هل ستستنطق المنجل؟

- تقريباً.. مُرّ جنودك ليوقدوا لنا ناراً في كومة فحم.. وليأتوني بشيء من الخلّ.. ليكن من الصنف الممتاز.

تعلقت عينا الفلاح المذعورتان بالجمر المتقد. لم يماطل الآغا هذه المرة. راقب أورهان وهو يمسك بمقبض المنجل ويدفن نصله في الجمر آمراً جنوده:

- انفخوا.. أريد النصل أحمراً مشتعلاً.

تخبطت ركب المتهم وارتعدت فرائصه حين تقدم أورهان ناحيته بالمنجل المتوهج. قرّبه من وجهه حتى كاد يلامسه به. طفرت الدموع من عينيه وهو يردد:

- مظلوم.. مظلوم يا سيدي. أيعقل أن تكذّب إنساناً وتصدق بضع ذبابات؟

صاح فيه أورهان:

- اعترف خيرٌ لك. لن يكترث الجلاد لو قطع رأساً ذا وجه مكوي.

عضَّ الفلاح على شفتيه والعرق ينهمر من كل مسام وجهه.

صاح أورهان مجدداً:

- إليّ بالخلّ!

ناوله الآغا القنينة وهو يسأله:

ماذا ستفعل؟ هل ستحرق عينيه؟

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي أورهان. قرر الآغا أن يتحمله للنهاية.

- لا فائدة من قاتل أعمى.

ثم التفت للفلاح:

- أتعرف يا هذا أن الخلّ منظّف ممتاز. فيه مادة حمضية.. تتفاعل مع الدم على نحو عجيب فتزيله عن أيّ قماش. وحده الخلّ يفعل ذلك.

رفع المنجل بيد وسكب بالأخرى بضع قطرات من السائل الأسود على الحديد المحمى فطشّت عليه وهو يتابع:

- أما على غير القماش.. فإن تفاعل الخل والدم يترك أثراً قد لا تبصره العين.. لكنه يكون ظاهراً على الحديد الحامي.

انفردت سحنة الآغا في انبهار. أما القروي فجحظت عيناه في رعب حين تبدت لهما البقع البيضاء على حدّ المنجل.. آثار دم الشيخ نور الدين.

"اعترف يا بن اللعينة.. كي أستعيد حريتي"..

لم يلبث رأس الفلاح أن انهار على صدره. أجهش بالبكاء وهو يقول:

- سوّد عيشتي بالمكوس والجبايات. لم يرحم حاجتي أو يرأف بعيالي. أخذ كل قرشٍ عندي فأخذت روحه!



-15-

عندما انتصف النهار، ماعاد بوسع قافلة الغجر أن تتقدم أكثر.

إذ لم تلبث ريح الكاربات أن سفّت في الوجوه ذرّات المطر المتجمدة. حبيبات كأزاميل البلور تخدش كُرات العينين فتحظر على أيّ ابن إنسان التحديق في الأفق. وحين غطّت تلك القطرات المتجلّدة سطح الممر الجبلي، صيّرته زلقاً كسطح المرآة.

خرج الرجال ليدفعوا العربات التي باتت تتزلج بعجلاتها على الأرض المنحدرة، وليساعدوا الدواب التي راحت تضرب بقوائمها في الجليد. بعضها انزلق فتهشمت مفاصلها على الأرض الصخرية التي ما عادت تتشبث بنتوءاتها الحوافر.

جمد أورهان في محله متخلياً عن اللجام. تقوقع حول نفسه يرتجف برداً وهلعاً داخل فروته التي يبّسها مطر الكاربات الجليدي.

"ويلي.. جليدٌ في الخريف؟" ..

جاءه صوت شيْلا مختلطاً بصفير الريح وصياح البشر والدواب:

- تعال وساعدنا يا ابن أمّك. هل تظن أننا عبيدك؟

تجاهلها تماماً. سيُقر أمامهم لاحقاً بأنه ابن أمه وسيقدم لهم أيّ اعتذار يطلبونه. أما الآن فلن يجرؤ على لمس هذه الأرض المنحوسة التي لا يثبت فوقها جرم. لا يريد أن يقطع عليه أحد أذكاره ودعواته الحارة، ولا أن يفتح عينيه فيبصر تلك الهوة السحيقة التي ليس بين حافتها ودولاب عربته إلا قدمٌ أو أقل.

ثم إنه يعاون بما يقدر عليه.. ها هو يدعو من قلبه للرجال الأشداء الذي يدفعون العربة من الخلف، وتدفع معهم شيْلا. يسألُ الله بجاه نبيّه أن يمدهم بمدد من عنده فلا ينتهي به الحال مبعثراً إلى جانب حطام العربة السلطانية في قاع الوادي.. تطمر جثمانه الثلوج وتنهش رفاته الضواري. تكاد الصورة تتجسد في مخيلته فيغلق عينيه أكثر ويرفع صوته بآية الكرسي فوق عواء الريح.

تحركوا أخيراً. تقدموا بما يكفي ليبلغوا منطقة أوسع. جمعوا العربات وصنعوا منها حاجزاً في وجه العاصفة. بينها وبين الجدار الصخري كوموا الدواب والبشر.

على الخشب الصقيل داخل العربة السلطانية، أغلق أورهان وشيْلا الباب على نفسيهما.

شرعت تنفض قطرَ الرذاذ والعرق عن جسدها. خدّاها متوردان بفعل البرد والإجهاد وصدرها يعلو ويهبط مع كل نفَس:

- هل تسمي نفسك رجلاً؟ تتركنا ندفع العربات وأنت متربع كالسلطان على عرشه؟ حقيقٌ بكواريل أن يلقي بك في الوادي.

يزفر في صبر.. ويصرف عينيه عن قميصها الذي ألصقه البلل بما تحته..

"لو كنتُ الرجل الذي يجدر أن أكون"..

يزفر ثانية مستعيذاً بالله ويسألها:

- هل أطلقتِ بارودة في حياتك؟

- بماذا تهذي الآن؟ هل أصابتك الحمى؟

- لو أنكِ لم تطلقي بارودة من قبل، وأدخلوكِ معركة بدون أن يعلموك كيف تستخدمينها، فإنها قد تنفجر في يدك فتقتلك وكل من حولك. الذي لا يجيد القتال لا يصح أن ينزل لأرض المعركة وإلا نكبَ من معه. من الخير لهم وله أن يكتفي بالفرجة. هل فهمتِ؟

لم تردّ عليه. عيناها الساطعتان كقمرينِ أسودين تفحصتا جسده المرتجف في معطف فروه الغارق بالبلل.

أخرجَت من كيسها قربة وعبّت منها عدة جرعات. مسحَت فمها بكف يدها ثم مدتها له:

- اشرب. سيجعلك تحس بالدفء أسرع.

- ما هذا خمر؟ لا! أعوذ بالله.

ارتفع حاجباها. كأنها تعاين طفلاً يترفّع عن قطعة حلوى:

- كما تريد. أعرف طريقة أسرع لتدفئتك.

وقفت داخل العربة بالكاد محنية رقبتها تحت السقف المنخفض. انحنت عليه فامتلأت عيناه بتكويرتيّ صدرها. امتدت يدها نحو معطفه فنزعته عنه وكوّمته جانباً. ألقت جسدها على حِجره وأحاطته

بذراعيها. أراحت رأسها على كتفه. أنفاسها تقع على أذنه وتتـردد داخل نافوخه فتنسيه الكلام وتنسيه موقعه من العالم.

- ماذا تفعلين؟ قومي من فوقي يـا امـرأة. أعـوذ بـالله.. أعوذ بالله!

ترفع رأسها وتنظر في قاع عينيه. يهتز وجدانه. وجهها تصطرع عليه الملامح.. بغضٌ وشغف.. توقٌ وحقد. تقوم وترجـع لمقعـدها مقابله. تشرب المزيد.

- أقسم أنك لست رجلاً!

يغلق عينيه ويستجمع شتات نفسه. لو أنها بقيت فوقه للحظـة أخرى لوقع المحظور. يخشى أن يفتح جفنيه فتجوس عيناه جسـدها الفائر ويغلبه شيطانه.

"الشيطان.. السلطان.. الله"..

يستعيذ بالله من شر الوسواس الخنّاس.. ومن النفس الأمّارة بالسوء.

"كيف ستواجه الأهوال التي تنتظرك وأنت مدنّس يا أورهـان؟ بأيّ وجه تقابل ربك وقد نجاك من كل ما مرّ بك فتقابل أنت رحمته بالمعصية؟"..

فتح عينيه أخيراً فوجدها ما تزال تحدق فيه بكُره. لن يستغرب لو غرزت خنجرها الصدء في أمعائه الآن. وجهها متوهج كقنـديل من لحم ودم.

- هل أنت سكرانة؟

- طبعاً لا. أسكَرُ من رشفتين؟ هل رأسك أنت خفيف لهـذه الدرجة؟

– أنا لا أتعاطى هذا القطران ولا شأن لكِ برأسي.

نظر عبر النافذة. بياضٌ تام. لن يتحركوا قريباً على ما يبدو.

– بما أنك ما تزالين في وعيك؛ أكملي لي قصة ڤلاد المخوزق. لماذا تخافون أيها الغجر من اسمه؟ ما الثأر العالق بينكم وبينه؟

قالت شيْلا:

– بعد مذبحة البويار، اعتمد تسيبيش سياسة الإرهاب لفرض الأمن فرضاً على ولاشيا. لقد كانت البلاد غارقة في الفوضى. لم يهتم أحد من الكونتات السابقين لأمر الناس، كلٌّ منهم كان منتهى همّه جنيُ المكوس والقضاء على منافسيه. والذي لا يموت بسيف غريمه يقتنصه رمح العثماني أو سهم ملك المجر. ولاشيا كانت مستنقعاً للفقر والخوف. جاء ڤلاد فقرر أن بلاده يجب أن تخرج من ذلك المستنقع. وليحقق ذلك غمرها بشلال من الدم.

– كان دموياً في حكمه لشعبه؟

– دمويّ؟ بل قُلّ كان مخبولاً! شاع عنه أنه كان لا ينال شهوته بالنساء بل يستعيض عنهن برائحة الدم وسماع غرغرات الروح في أفواه الميتين.. شرط أن يكون موتاً بطيئاً مؤلماً! جمع لذته السوداء بطموحه في تطبيق العدالة: من يسرق حصاناً يتخوزق.. هو والحصان على وتدٍ واحد. من يقتل يستخرجون أمعائه في

الساحة بعد موعظة الأحد ويجعلونه يتفرج على كلاب الشوارع تلتهمها. المرأة التي تحمل سفاحاً يقطع ثديها ويخيط مكانـــه رأس الوليد الذي جلبته بالحرام. لم تبقَ عائلة في ولاشيا وترانســلفانيا وإلا وسُلق أحد أفرادها حياً أو قُطّع أو عُلّق من ساقيه ونُشر من بينهما بالمناشير.

– نسأل الله ألا يكِلنا لغير وجهه الكريم!

– لكن الولاشَ لا يفهمون إلا هذه اللغة. لو أنصفنا لقلنـــا أن أسلوب تسيپيش قد نجح، حتى قيل أنك في عهده لو تركت كـــيس ذهب على قارعة الطريق لعدتَ ووجدته حيث هو في اليوم التالي.

– إن الله ليزَعُ بالسلطان ما لا يَزعُ بالقرآن.. ولا بأيّ كتـــاب مقدس!

– حقق تسيپيش الأمن لشعبه.. أو لمن بقي منهم حياً معـــافى. لكن الفقر بقي معضلة. ثروة البلد كلها كانت بيد البويار. وهـــؤلاء كانوا تجاراً بالوراثة. فكّر تسيپيش أن تجارة ولاشيا يجـــب أن تظـــل حية. فقرر أن يحكم قبضته على طرق البضائع التي تصلها بـــالبحر. كهذا الممر الجبلي الذي نحن محصورون به الآن.

– كيف يحكم قبضته عليها؟ إننا نمر به بالكاد والموت يتخطفنا من كل جانب!

– لكن من يغلق هذه الممرات سيحبس الـــدم عـــن قلـــب ولاشيا. لم يكن تسيپيش ليسمح لسواه بهكذا نفوذ. بنى على قمم الجبال عدة حصون، وفي پوناري وبران وبوخارست التي أسسها هو كمنفذ تجاري.

– بنى قلاعاً فوق هذه السفوح؟ كيف بحق الله فعل ذلك؟ إننا لا نكاد نتقدم بينها دون أن نــزلّ، وهو نقل ملاطاً وجلاميد صخر وسقالات عبر هذا الجرف الهار؟

– لو كانت السماء صافية لأريتك قلعة پوناري[1] غير بعيد عن هنا. بناءٌ قائم على صخرة واحدة مهولــة. إن المســالك لحصــون تسيپيش وعرة لدرجة أن أحداً لم يتجشم عناء سكناها من بعده. أما كيف بناها، فبالبقية البقية من سلالة البويار. نحــو العشــرين ألفــاً استعبدهم كلهم. الشيوخ والنساء والأطفال. أرغمهم علــى البنــاء مقابل أن يعيشوا. وأيّة حياة عاشوا؟ اشتغلوا في السخرة حتى تقطعت الثياب التي عليهم وقضوا بقية أعمارهم عرايــا يحملــون الصــخر والقرميد إلى قمم الجبال. ولما انتشر بينهم الوباء قطَع عنهم الطعــام ليجبر الأحياء منهم على أكل الميتين. ومن لم يؤكل خلطوا جســده بخلطة البناء أو رصّوه مع حجارة الأسوار. حرمهم مــن الــدفن في القبور حتى لا تبقى لأنسابهم شواهد.

انكمش أورهان مكانه في ذهول:

– فعل كل ذلك.. و لم يثُر عليه أحد؟!

– قلتُ لك أن أهل هذه الأرض لا يفهمون إلا لغة الدم. ڤلاد تسيپيش كان فقط أشد قسوة ممن سبقوه. كما وأن النــاس ســأموا توالي الثورات، وأفرحهم ما وقع للبويار الظَلَمَــة. لعلــهم رضــوا بتسيپيش بعدما ذاقوا طعم الأمن غصباً ففضلوا طاغية واحداً علــى عشر طواغيت.

1 Poenari Citadel.

توقفت لترشف من قربتها الأثيرة ثانية:

- رضي الناس بحكم تسيپيش أول الأمر على مضض. ثم أحبوه وهتفوا باسمه حتى صاروا يرونه قديساً يمشي على الأرض.

- ما سبب هذا التحوّل؟ هل صبٌّ في جيوبهم الذهب المصهور؟

- يا هذا.. أنسيت أنه قبل أن يصير (تسيپيش)، فقد كان (دراكولا)؟ كان ابن التنين؟ بعدما تمكن من عروش ولاشيا وترانسلڤانيا فقد استرجع لقب قائد فرسان التنين خلفاً لأبيه.

يخفق قلبه في صدره وهي تصل بالقصة للجزء الذي بدأ به القره مانلي باشا في ذلك النهار الشريف:

- لما طالبه سلطانك الفاتح بالجزية المتراكمة، لم يقبلها ڤلاد على نفسه. تمرد على سيده القديم ونفض عن ذاته أغلال الماضي. رفع سفراء السلطان على خوازيق عالية تليق بمكاناتهم بعدما مسمر عمائمهم إلى رؤوسهم. أشهرَ سيف التنين في يد والصليب في اليد الأخرى وأعلن الحرب المقدسة على الكفرة الأتراك. باركته ممالك أوروبا الخائفة من السيل العثماني، وباركه البابا واعداً إياه بمقعد دائم في الجنة. مع أن الجنة كانت آخر آماله. فڤلاد كان يفعل ذلك كله وفاءً للعقد الذي بينه وبين الشيطان، ولأجل المزيد من الدم!

قالت شيْلا وقد استويا على سطح العربة مجدداً وواصلت القافلة المسير:

– لا شك أنك تعرف أكثر مني عن الحروب التي خاضها قومك ضد تسيبيش. هل سمعت عن غابة الموت التي نصبها للسلطان محمد؟

جال بعينيه بين وجوه الغجر.

"لابد أنهم قد لاكوا سمعتي.. سيقولون عني الأقاويل وقد اختليت بواحدة منهم داخل العربة. سيختلقون القصص العجاب وتجري ألسنهم بالإفك.. الملاعين!" ..

لم يمنعه همّه من أن يجيب على سؤالها:

– ثلاثة وعشرون ألفاً، وثمانمئة وأربعة وثمانون خازوقاً. قيل لي أنه خوزق حتى الرضّع والشيوخ في قرى البلغار التي اجتاحها!

– أيّ بلغار؟ إن الذي نقل لك الخبر كان يهزأ بك. فؤلئك العشرون ألفاً كانوا كلهم أسرى من جيش سلطانك المظفّر.

تجمّد أورهان في مكانه وعقله يقلّب كلامها. حدّق بها دون أن تطرف عيناه وهو يقارن بين القصتين ومصدريهما. في النهاية طرقع بسوطه فوق رأس الخيل لتتحرك بعربته السلطانية التي أتت به من أرض النور والحق.

قال والعربة تتهزهز بهم على الطريق الوعرة:

– ما زلتِ تحجبين عني خبركم أيها الغجر مع ڤلاد. مللت وأنا أنتظر هذه القصة.

تشخص ببصرها لآخر قافلة الرومن. تسرح مفكّرة.

"هل تستعيد الأحداث أم تتأمل في مآلاتها؟" ..

قالت أخيراً:

- ماذا تعرف عن شعب الرومَن يا إفندي؟

- أقل القليل. لم أعرف أنكم تسمون أنفسكم بهذا الاسم قبلاً. و لم أعرف أنكم تعدون أنفسكم شعباً. شاهدتُ الغجر في رحلاتي عبر آسيا الصغرى وعلى حدود الشام. والحقُ أني فوجئت حين ظهرتم لي هنا في غابات الروملي.

- بل نحن شعب عظيم مقطع الأوصال كُتب عليه التيه. الأرض قبلت بنا لكن إخواننا البشر يستكثرون أن يشاركونا الهواء الذي يتنفسونه ولقمة العيش. حيثما حللنا فنحن منبوذون مستحقرون. مع أننا أسهل تشكلاً من الطين اللازب. نحن الرومن تجدنا في مصر.. قديمون بقدم الأهرامات. تجدنا عبر أوروبا وآسيا وتجدنا متوغلين داخل صحراء العرب. نتكلم العربية والهندية القديمة ولغات أوروبا كلها.. ندين بدين الناس حيثما حللنا ومع ذلك لا يقبلون بنا. يستقذروننا كأننا حشرات ولا يستشرف الرجل في قومه أن يتخذ أحدنا خليلة حتى.

"توجه لي الصفعات بين الكلام.. لا بأس!" ..

تركها تتابع:

- وذلك كان ديدن تسيبيش معنا أيضاً لم يحد عنه بل أوغل في امتهاننا. وماذا تتوقع من وحش بشري مهووس بالانتقام؟ لقد اعتقد أنه من سلالة مختارة من قبل إرادة عُليا لتحكم العالم. تسليته الأثيرة

كانت في القتل البطيء.. فماذا تحسبه فعل بجماعات الغجر التي ألقاها الحظ العاثر بين يديه؟

حاول عبثاً أن يتخيل أشكال عذاب أشنع من التي سمعها منها. وفّرت عليه عناء الخوض في الكوابيس حين أكمَلت:

– عشيرتنا هذه.. قبل عشرين سنة أو أكثر مرّت بهذا الدرب. في طريقها لتورگوڤيتشه.. العاصمة القديمة. لم أكن قد ولدتُ بعد لكني سمعتُ القصة من الكبار حتى حفظتها. كان تسيپيش مقيماً وقتها في حصن پوناري فوق الجبل. أبصر القافلة تتقدم عبر الوادي فأنزل عليها ثلة من جنده اقتادوا كل أفرادها إليه صعوداً. الطريق إلى القمة فيه ألف وخمسمئة درجة، حفرها عبيده البويار بأياديهم، ومشت عليها كلها أقدام أولئك الغجر.. بعضهم ما يزال حياً للآن وموجودون بيننا. لأختصر عليك القصة فإن تسيپيش قد مارس ألعابه علينا كما لو كنا جرذاناً. حبس بعضنا في أقبيته ليجرب علينا آلات التعذيب التي ابتكرها. وقبل أن يُفرج عن بقيتنا، اختار أفضل ثلاثة رجال منّا. ذبحهم أمام الآخرين كالنعاج وطهاهم ثم أجبرهم على التهام تلك الوليمة. قال أنه كان سيطعمها للكلاب لولا أنها تعاف لحم الرومَن. قال أنه يتعمد القضاء على خيارنا ليعلم الباقون أن من سيأتي من أصلابهم ليسوا إلا أبناء الحثالة.

سكتت لتلتقط أنفاسها. ولتسمح للروع في نفسه بأن يسكن. فكّر أن هذه الأسطورة.. أسطورة دراكولا المخوزق.. ستبقى حية رغم موت صاحبها، فلا يسعُ إنساناً أن يخمدها. إن ذلك الشقي لم

يكن بحاجة لمن يحيي ذكراه، ولا أن يزعم برجعته من جهنم كي يتجدد الخوف منه في النفوس.

– من يومها ونحن نخاف اسمه ونحرّم على أطفالنا ذكره. لم نعاود طرق هذه الدروب إلا بعدما مات. وحين انتشر خبر رجعته من العالم السفلي، صدّق كثير من الرومَن ذلك واستولى عليهم الذعر. بل وقدموا القرابين لروحه الشيطانية رجاء أن تحلّ بعيداً عنهم.

صمتت ثانية. رأسها مطرق وتنفسها بطيء.

"هل تحبس دموعها؟ هل تكرهه لأنه لا يمد يداً ليربت عليها؟" ..

خشي أنه لو أسقط ذلك الحاجز فلن يضمن نفسه ولا ما سيحدث بعدها. انتشلته من تساؤلاته حين أضافت:

– گواريل الذي لا تطيقه ولا يطيقك. كان ممن شهدوا ذلك اليوم الرهيب. أحدُ الذين ذبحهم دراكولا.. أحد الثلاثة الذين مضغ گواريل لحمهم المطبوخ.. كان شقيقه الأكبر!

– يا أرحم الراحمين!

هز رأسها وكأنها تشاركه الصدمة:

– الكثيرون ممن أكلوا لحوم إخوانهم وأبنائهم جُنّوا أو قتلوا أنفسهم. الحكماء قالوا أن هذا من السحر الأسود الذي ألقاه تسيبيش في روعنا. لا أعتقد أن گواريل نفسه خرج من التجربة بسلام. البعض يهمسون بأنه لم يُشف أبداً من اشتهاء لحم البشر.. لكننا لا نتكلم في هذا الأمر أبداً.

تسري في ظهره وأطرافه رجفة يهتز لها كل بدنه. يستحضر سحنة العملاق الخبيثة. مخالبه وأسنانه. قبحه وأنفاسه القذرة. يستحضر سلوكه العدواني. والقدر التي أشعل ناراً تحتها بعيداً عن الكل ليلة البارحة. غضبته المباغتة حين تفاجأ به حينها.

احتشدت دموع الذعر والقرف في عينيه. أراد أن يقفز من عربته ويخنق اللعين ابن اللعين بيديه.

تخيّل أجساد الانكشاريَين وعربجي العربة السلطانية مقطّعة ومشوية، مرصوصة في طبق إلى جوارها بصلَتان ورغيف خبز. اندفعت محتويات معدته لحلقه فأجبر نفسه على ابتلاعها وابتلاع قهره معها.

واصل التطلّع للطريق بدون أن ينبس بكلمة.

قالت شيْلا مراقبة مسار القافلة:

- براسوف صارت قريبة جداً. لكننا لن نُبصر معالم الطريق في الليل. يبدو أنك ستبيت في الغابة ثانية.



-16-

بعيداً ووحيداً، جلس أورهان يتفرج على حفلة الغجر الليلية، لثاني ليلة.

"هؤلاء قومٌ لا همَّ لهم في الحياة، إلا الرقص والترحال!"..

أوقدوا هذه الليلة نيراناً أعظم، ربما لأن البرد كان أشد على هذه الارتفاعات. ضمَّ كفيّه حول قدح الحليب المغليّ. أصرَّت عليه شيْلا أن يجرب قربتها لكنه واصل الرفض. جاءت له بحجة مدهشة:

- واعظٌ تركيٌّ شاب، قابلته في مهاجع الانكشارية ببوخارست، قال لي أن ملّتكم تبيح ارتكاب المحظور، إذا كانت هناك ضرورة. أليس اتقاءُ هذا البرد ضرورة؟

حدّق فيها مذهولاً للمرة الألف. كلما فتحت فمها أدهشته.

أطلقت واحدة من ضحكاتها، التي ترسم قوس قزح في سماء الليل:

- إن واحدة مثلي.. تسوقُ لها الأقدارُ رجالاً على كل شاكلة ولون. لنقُل أني لا أضيّع فرصة من دون أن أستفيد وأتعلم.. يا إفندي!

فهم كلماهًا بأكثر من طريقة.. يجزم أهًا كلها صحيحة وتؤدي للمعنى.

بردُ الليل القارس يهجم مجدداً مشتتاً سخونة السائل بين كفيه. يرتشف منه مأخوذاً بأخيلة الغجر المتلوية حول النار.

يتذكّر دراويش المولوية الدوّارين كالكواكب حــول أقطــاب الوجود. يسترجع نواح ناياهم الحزينة وضربات دفوفهم الناعســة. يقارهًا بعزف هؤلاء الرومَن المحموم. أصابعهم تتقافز علــى الأوتــار كالجنادب على الرمضاء. اهتزازهم بجنون حول اللهب الأحمر الأوّار. أبداهم تلمع بالعرق في هذا الزمهرير.

بدا له ذلك كله طقس صــلاة.. صــلاةٌ لاستحضــار أرواح الخاطئين، واستجلابِ الشياطين من مساكنها السفلية!

"الشياطين.. الشياطين! موبوءة هــي هــذه الأرض بســيرتها. حضورها آكد من البشر. تظهر لك مع كل خاطرة، مرتهنــة بكــل موجودٍ وكل فعل.. الرقص.. الموت.. الصلاة.. اللقمة التي تلوكهــا بين أسنانك.. المرأة التي تشتهيها عيناك ويتوق جسدك لها!"..

أدرك بمرارة ألاّ ذنب للمكان. فثمة لعنة حاقت به هو، تطارده بأي أرض حيثما حل. ماذا عن حلب؟ أيكون نجمــه قــد اقتــرن بشهاب رصد، فالتصق خط حياته بدروب الجان والعفاريت؟

جالساً لوحده متشرنقاً بعباءته.. تبدّا له من البعيد ظِلُ جسدها على خلفية من لهب.

اقتحمَت حلبة الرقص فانفضَّت كل الظلال الأخرى من حولها. اهتزَّ بدهًا مستفرداً بمكونات الوجود: النار المرتعشة مــن ورائهــا،

التراب المتقافز تحت قدميها، الهواء الذي يحوطها مضطرباً.. يوشك أن يتفلّت أعاصيرَ وعواصف، والماء الذي يغلي داخله هو.. في دمه.. في عينيه.. في كل أعضائه.

عيناه لا ترمشان.. تنهبان جسمها نهباً. تفككان تفاصيله التي تحجبها ظلمة الليل ويفضحها العرق الدافق من كل مسامه.

يحدق من بعيد وبؤبؤاه يتفتحان ليجمعا كل خيوط الضوء الشاردة. لا يكاد يتبين غلالة قماش، ولا رداءً حول انحناءاتها التي لا تكاد تثبت حتى تُعيد التشكّل في اهتزازة رقص جديدة.

ثمة من يقرع طبلاً بدويًّ يهزّ أشجار الغاب. ثمة من يعزف على قيثارة أو لوح قانون. أصابعه تتقطع، اللحم في أطرافها ينبري ليلحق بجنون الجسد العارم.

يعزف كأنه سيموت غداً، أو كأن الليلة ستنقضي، وستقفز الشمس لعنان السماء في اللحظة التي يرفع فيها أنامله عن الأوتار.

يعزف بكل إرادته للحياة.. كي يُمدَّ هذا الجسد بالرغبة في التلوي..

كي يُمدَّ كل عشيرة الغجر بالرغبة في الحياة.

أقبَلت نحوه. هزمها البرد أخيراً فتدثرت بعباءة طويلة غطت نحرها وانسدلت أطرافها وراءها على الأرض. لا يبرز منها إلا رأسها وقبضةٌ حملَت مشعلاً تتراقص النار على طرفه.

حبسَ أنفاسه وقد تعلّقت أعينهما ببعضها عبر المسافة. صعدت الصخرة التي اختارها لنفسه معزلاً بخطوات راسخة، بدون أن تنظر لموضع قدمٍ ولا أن تحيد بنظرها عن وجهه.

تملّى في شعرها الثائر، وجهها المتوهج وجسدها المرتجف تعباً وإثارة. تقدمت حتى تلامست قدماهما. أطلّت عليه من وقفتها وتعلّق بصره بسواد عينيها في جلسته. ناولته المشعل بصمت ومشت متوغلة بين الصخور والأشجار.

بدون كلمةٍ قام وتبعها.

تقدمته عبر الظلمة بدون أن تلتفت. كاد يتعثر في كُتل الصخر وخدشَت أطرافُ الشجرِ يديه وسيقانه غير مرة، لكنه ثبّت بصره بقامتها التي تمخر عباب الليل، لم يُرد أن يضيعها هذه الليلة.

لم يتساءل إلى أين تأخذه.. ولا لماذا يتبعها. لم يقوَّ على الخوض في الإجابات. لعله عرف في قرارة نفسه.. ولعله فضّل التعلق بطرف رداء الظنّ.

هبّت عليه أنسام الليل من ناحيتها. شمَّ رائحة لحاء الشجر والمطر الكامن في الهواء، وشمَّ رائحتها العابقة بدم الحياة.. بعرَق الرقص.. بفورة الإثم.

"يا ابن الشيطان.. أنا ابن آدم.

أتيتك من آخر الدنيا.. من حيث تسطع الشمس.. لأميط اللثام عن وجهك الملعون..

لأعيدك لوادي وَيل.. لدركات لَظى.. والحُطَمة.. لبئر الهَباب الذي تزعم أنك فررت منه.

يا ابن الشيطان.. أبوك أخرج أبي من الجنة.. وأنا سأعيدك للجحيم.

تخيفني بدمائك وأشلائك؟ تلوّح في وجهي بمنجل الموت ونصل الألم؟

تُدحرج عند قدميّ الرؤوس؟ وتنصب للأجساد الخوازيق؟

تهددني بعذابات الجسد؟!

ماذا عن وجع الروح؟ وشقاء القلب المترع بالخطايا؟

تحسبُ أنك تعيد خطَّ كتابي؟ تتهددني في نومي وصحوي وتبذر في روحي نبتَ الخوف؟

تحسبُ نفسك شريراً؟ تحسب نفسك وحشاً؟

إسمع إذاً لنبض قلبي..

هذا الدافقُ في عروقي الآن ليس دماً أحمر يسعك أن تشرب منه. بل سخام أسود يجري فيه أعوان أبيك.. يمزج البحر ويصبغ السماء..

غاسقٌ قد وَقَب.

تطلّع يا ابن اللعين لوجهي.. لعينيّ المغروزتين في اللحم الحيّ أمامي..

أنصت للشبقِ.. يوشك أن يفرّ عواءً من صدري.. تحس رجفة الرغبة في أوصالي..

شُمّ عرَقَ الشهوة الناز من أعضائي.

انظر لأثر إبليس المخبوء داخلي.. المعجون بدمع الملائكة في طينة خلقي.

انظر له ينتصب ويكبر.. يهيج وينقلب مارداً يستولي على عقلي وروحي..

يصير هو عيني وهو يديّ. يحوّلني لوحشٍ أشرّ منك!

أنا الوحش الحقيقي يا ابن اللعين!

أنا الشرّ وأنا السواد وأنا الإثم إذ يحيى ويتنفس.

خَفني يا ابن الشيطان.. تجنبني.. تقزّم أمام شرّي وخبث نفسي.

أُهرب فالدنيا لا تسع كلينا.

أنا.. ابن آدم.. كفيلٌ بأخذ مكانك ومكان أبيك.

عُد يا ابن الشيطان من حيث أتيت..

تسربَل بالقطران..

تنشّق خالص كبريت سَقَر"..

تنبَّهَ لرائحة الكبريت. خفيفةٌ بعيدة، لكن تظل لاذعة منفرة. تُذكّره بريح الكُنُف وتردّه لوضاعة الدنيا.

ما تزال تمشي أمامه. هواءُ الليل يطيّر خصل شعرها الأجعد، ويرفرف بطرف العباءة المنضوية على سرّ الجسد.

الرائحة تزيد، وأبخرةٌ تملأ الجو من حوله. البرد يخف ونار الشعلة في يده تفور وتشهق.

تنعطف خلف صخرة.. تغيب عن عينيه لوهلة. يقطع المسافة في خطوتين. لا يجدها.

تختفي الغابة كلها من حوله. تقابله أرضٌ مفتوحة. في وسطها بركة ماء يحس سخونتها على وجهه.

يدور بعينيه في الأنحاء مخترقاً سحب البخار ويسعل. يتذكر حمّام رادو بيك الأخير.. يتذكر حمّامه هو الأخير.

تهب نفحةٌ تقشع كل الضباب.. فإذا بها واقفة أمامه.

عيناها في عينيه.. يداها تضمان طرفيّ عباءتها.

قلبه ينبض في حلقه.. الشعلة في يده ترتجف. يضرب بها الأرض فيغرسها بين الصخور.

يتقدم نحوها خطوة.

تتخلى أصابعها عن طرفي العباءة.. فتقع متكومة ليظهر ما تحتها.

يتبدى له أخيراً جسدها العاري، الذي تفحصه ألف مرة بعين بصيرته، وقلّب تفاصيله بيد خياله.

الوحشُ المخبوء بداخله يزوم ويتلوى.. يوشك على الانقضاض لولا بقية من خيط وعيّ تقيده.

تتراجع بخطواتها للخلف. قدماها تخوضان في الماء الساخن، تصنعان دوائر تضطرب لها مكونات الغاب. معالم جسدها النافر

تبتعد عنه فيعوي الوحش بين أضلعه أكثر.. وينحلّ خيط قيـــده أكثر.

الأبخرة والمياه الحارّة تغمر جسدها وتحجبه. رأسها يطفو أمامه. عيناها لا تفارقان وجهه، وعيناه تبحثان عن بقيتها بجنون.

همسُ فتدكّ أسوار إرادته:

- كيف تزعم بأنكَ تطارد الشيطان.. وأنت تتحاشى دربه؟

ينقطع الخيط الأخير. ينفلت الوحش المكبوت. يرمي بنفسه في الماء.

تتحد مكونات وجودهما. تمتزج الطينتان.

من أطراف الغابة تصل لمسامعه أصوات موسيقى الغجر..

كأنها طقوس صلاة لاستحضار أرواح الخاطئين.. واســتجلابِ الشياطين من مساكنها السفلية.



-17-

اغتسلا في النبع الحار معاً ثم جلسا على أرضيته.

أسند ظهره إلى صدرها. رجع برأسه على كتفها. ترك أصابعها تعبث بجسده. أغمض عينيه وكادت تأخذه سِنة. أيقظه صوت ضحكتها في أذنه:

- وأنا التي أقسمت أنك لستَ رجلاً!

- وأنا الذي ظننتكِ لوهلة رجُلاً.

صاحت متصنّعة الغضب. دفعت رأسه تحت الماء. تملص من قبضتها. سبح بين ساقيها وبرز على السطح خلف ظهرها. غطسا وطفيا معاً. ثم سكنا في أحضان بعضهما مجدداً.

أراح كل منهما رأسه على كتف الآخر مُنصتَين لرقرقة الماء حولهما وحسيس شعلة اللهب.

- أورهان؟

- ناديني بالإفندي.

- تباً لك!

ضحك بصمت.

- هل أنت خائف؟

- ممَّ؟
- تعرف.. منه.. الذي لا يُسمى.

رفع رأسه ونظر في عينيها. لأول مرة يبصر الخـوف فيهمـا.. لأول مرة يراها بهذا الوجه.

- كنتُ أظنك أعقل من ذلك. لا تقولي أنك تصـدقين تلـك الخرافة الفارغة؟
- كيف تقول ذلك بعد كل ما رأيتَ.. وبعد كل ما قصصتُ عليك؟ ألا تصدق ما رأيتَه في المقابر؟ صدقني أتوسل إليك.

"تتوسل إليّ لأصدقها؟!" ..

- أصدقك. لكن العقل يفسّر رأي العين على غير الحقيقة أحياناً.
- ما معنى هذا الكلام؟
- معناه أنك شهدتِ مقتل صاحبِك حقاً، إنما هيأ لك عقلـكِ أن القاتل هو الحدّاد المبعوث من الموت!
- وماذا عمّا رآه گواريل؟
- أنتِ قلتِ لي بلسانك أنه مخبول.. ثم إن الوهم مُعدٍ كالحمى تماماً.

رمقته بنظرة جامدة. تنبه للإهانة المبطنة التي وجهها لها تواً.

أراد أن يعتذر لكن لسانه انعقد، وتوارى وعيه لما انتصـبت واقفة. أدارت ظهرها له وخاضت بساقيها في الماء حتى خرجـت منه. خَطَت عارية نحو عباءتها والقطرُ ينساب من جسدها لتلتقطه الأرض بنَهم.

"أنا ابنة الغابة.. ابنة النبع والشجر والجبل" ..

عادا أدراجهما للمعسكر على ضوء الشمس الوليدة. فكّر أن الغجر لو كانت فيهم ذرة نخوة فإنهم سيقتلونه حتماً حين يرونه عائداً مع ابنتهم. لكنها لا تبدو قلقة عليه ولا على نفسها.

انخلع قلبه حين تلقّاه منظر العربة السلطانية والنيران تلتهمها. أمسك رأسه بيديه وكاد يولول. لم يدرِ متى صار گواريل واقفاً خلفه. التفت فوجده يزفر في وجهه. أغمض عينيه ورفع كفّيه ليحمي جمجمته مستعداً لتلقي الضربة القاتلة في أيّة لحظة.

"أنا أستحق.. هذا جزاء عادل.. اللهم اغفر لي ضعفي!"..

حين فتح عينيه كان القبيح ما يزال واقفاً يطالعه في استصغار. إلى جواره كانت شيْلا.. الابتسامة الشامتة رجعت لترتسم على شفتيها.

- Nu putem să intra în Braşov in caruţa asta, ne-ar aresta Ienicer!

- يقول أننا لا نستطيع أن ندخل براسوف بتلك العربة. لو رآها الانكشارية فسيقبضون علينا جميعاً.

"انكشارية في براسوف؟ كيف لم يخطر ذلك ببالي؟"..

ولِمَ الدهشة؟ فجيوش مولانا أيّده الله بسطت سيطرتها على كافة أنحاء الروملي بجبالها وقفارها. هل قلبوا الأرض بحثاً عنه في الأيام الماضية؟ ماذا يفعل لو قابلهم؟

تلقته عينا شيْلا المحذِرتان. زمجر العملاق القبيح وكأنه يقرأ أفكاره. قالت له:

- ستزعم أنك واحد منّا. غجريٌّ أخرس. لو عرفَ الجند الأتراك من تكون فسيذبحوننا وسيلقون بك في الزنازين بدون أن

يدري بك أحد. لا تنسَ أنك تُعتبر هارباً منهم، وهم يحمّلونك مسؤولية ما حصل لرفاقهم. إلزمنا حتى تصل لما يشفع لك عند سلطانك ويجعله يغفر لك!

جلس إلى جوارها داخل عربة مكشوفة، لجام حصانها بيد گواريل.

تأكد أورهان من أن القبيح منصرفٌ إلى الطريق، وجال بعينيه ويديه في أنحاء العربة. قلّب الصناديق ونظر داخل الأكياس.

سألته شيْلا:

– ماذا تفعل؟

– أبحث عن بقايا رفاقي الذين أكلهم صاحبك!

نظرت له للحظات قبل أن تهزّ رأسها:

– أنت مجنون!

– ها قد رددتها لي. ما تزالين غاضبة؟

– أنا؟ ولماذا أغضب منك أو أكترث لك؟

– تسألين بعد الذي فعلناه؟

– ما زلتَ تذكر؟ أنا تعلمتُ أن أتجاوز أخطاء الماضي وأتطلع لغدٍ أفضل.

مالَ على خدها وطبع قبلة خاطفة. حدَّقت فيه باستغراب. اختلس النظر لظهر گواريل العريض:

- لحسن الحظ أنه لم يرني. أنا متأكدٌ من أنه وكُل رجال القافلة يحسدونني الآن.

لم يدرِ إن كانت ضحكة خفر أم تهكّم التي أطلقتها. سألته:

- قل لي إذاً. لماذا أنت متيقن من أن المسألة برمتها.. هذه المصيبة التي قلبت حياة الناس في ولاشيا بأسرها.. ما هي إلا خرافة سخيفة؟

- لستُ أنا من أقول، لكنه حكم المنطق وشاهد العقل.

- وكيف حكمَ المنطقُ وشهدَ العقلُ؟ كيف ترفضُ ما رآه وسمعه المئات سواكَ وأنت لم تقف إلا على جثمان تابعك الخصيّ؟ ومع ذلك لم تقتنع!

- لو رأيتِ الأمور بعين بصيرتي، لتوصلتِ لنفس الحكم.

- ظننتُ أني أنا عيناك وأذناك. لكن هات.. أرني ما ترى.

اعتدل في جلسته وتنحنح. حدّق في الفراغ وجمع أفكاره كأنه سيندفع في خطبة طويلة قبل أن يقول:

- بين المئة قتيل الذين أُلصقت دمائهم بكفّ دراكولا، كم واحداً شاهدَ القاتل؟

زمجر گواريل حين طرق الاسم سمعه ورماهما بنظرة مريعة. تجاهلته وسألت:

- ماذا تقصد؟

- أسألكِ: كم واحداً شاهده وهو ينحرُ ضحاياه؟ يقضم حلوقهم، ينهش بلاعيمهم أو يمزقهم إرباً؟ كم واحداً رآه يفعل ذلك ووصف لنا هيأته؟

تصمت ولا تحير جواباً. يهزّ إصبعه في وجهها مبتسماً:

- ولا واحد! هناك قاتل حتماً، لكنه قد يكون أيّ ابـــن آدم. كما وأن كل ضحاياه وقعوا منفردين. أليس من المـــدهش أن ابـــن الشيطان المزعوم هذا يجبن عن مهاجمة الجماعة من الناس؟ والســؤال الأهم؛ من الذي اختلق قصة تسيبيش العائد من الجحيم تلك؟

- لا أدري! لقد انتشرت انتشار النار في الهشيم وآمن بها الناس.

- وكذلك أحاديث الإفك إن أُريدت بها الفتنة والإفســاد في الأرض. لا يعرف أصل الحكاية إلا مَن له مصلحة من وراء انتشارها.

- لكن يا أورهان.. ما كُل هؤلاء القتلى؟ وماذا عـــن القبـــور المنبوشة؟

- هناك سفّاح طليقٌ حتماً. شاهدتُ أحد جرائمه بأم عيني فلا أكذبها. لكن من دبّرها اعتمد على خوف الناس مِن تاريخ دراكولا الدموي. أما نبشُ القبور فلم يُرد به إلا ترسيخ الخرافــة في النفــوس بربطها بعوالم الآخرة. تقولين أن كثيراً من القبور وُجدت مفتوحــة وأصحابها مختفون؟ وأنا أسألك مرّة أخرى: كم شـــاهداً حيـــاً رأى بعينيه ميتاً يترك قبره ويمشي على رجليه؟ لا تغضبـــي مني يا شيْلا.. لكني الذي رأيتِه كان ضبعاً أو دباً متوحشاً مرّ بالصـــدفة وجعلتـــكِ أجواء المقابر تتهيئين سوى ذلك.

واصلت الاستماع له وملامح الخيبة على محياها تكبر. أما هـــو فعبث بذقنه وتابع:

- لقد فكرتُ ملياً في القصص التي سمعتها منك. إن دراكولا.. لو كان عاد من جهنم حقاً.. قد لزمَه وقت طويل ليـــتقن مهمتـــه، مجرباً أكثر من أسلوب. في البداية قطّع قتلاه إرباً كما فعـــل بإمـــام

المسجد. أما صاحبك الحداد فشقَّ ما بين حلقه وسرته. ثم تعلم لاحقاً كيف ينحر بقطع الرقاب.. ليثبُتَ في النهاية على نهشها نهشاً.

– ها قد رُدّت حجتك عليك. أرأيتَ أو سمعتَ بإنسانٍ ينهش حنجرة إنسان آخر؟ يأخذُ منها قضمة ويمضي؟ هذا لا ريب فعلٌ شيطانيٌّ.

حكّ جبهته وردَّ بإصرار:

– تلك هي المسألة الوحيدة التي حرتُ في شأنها. لكني بعون الله مُهتدٍ إلى جواب.

– عسى أن تهتدي قريباً، قبل أن يطالك انتقام ابن الشيطان فتلقى عنقك بين أنيابه.

– لن يطالني انتقام أحد طالما ظللتُ مجهولاً بين الناس. يجب أن تحفظوا سرّي فلا يعلم أحد بأمري.

– وإن علم أحدٌ؟ أتراه ينقل خبرك له؟

– بل ينقله لمن يقوم مقامه ويعمل باسمه.

تلمع عيناها وتتحفز في جلستها. تهتف به:

– وتعرف من يكون؟

حرّك أورهان رأسه:

– أعرفهم على الظن. لكني أجهل أين يكونون ولا من يرأسهم.

– من هم؟ من تقصد؟

يلتفت لها. يتأمل الفضول الذي يطلّ من عينيها، ويستعيد ملمسها بين ذراعيه. يمنّي نفسه بكرّة أخرى:

- أنتِ ذكرهم لي يا شيْلا. أنتِ وصفت ديدهم. أتذكرين كلماتك؟

بانت الحيرة على وجهها.. قبل أن يكسوه الشحوب وأورهان يردد:

- كل من له صلة بالراية العثمانية.. أو قدّم لها أيّة خدمة مهما كانت صغيرة فهو عرضة للانتقام. ألم يكن ذلك كلامك؟

- تقصد أن من فعلها هم ثوّارٌ ولاشيون.. متمردون على السلطان التركي؟

- ليسوا أيّ ثوّار.. فقد تركوا خلفهم علامة.

قالها وهو يستخرج من جيبه حُلية نحاسية. تعلّقت عينا شيْلا بالقطعة المحفورة بإتقان. نقشُ وحشٍ ذي ذيل يمتد ليلتف حول عنقه. تطلعت لأصابعه المخلبية الدقيقة، لاحظت الصليب المرسوم على ظهره. وأورهان يهمس:

- إن فرسان التنين لم ينهزموا بعد يا شيْلا. هم مَن وراء إحياء تلك الخرافة، ووراء كل الدماء التي عُلِّقت بها.



-18-

نامَ بعمقٍ لأول مرة منذ ليالٍ. نومة بلا أحلام.

دوّخته الاهتزازات الرتيبة، ووقعُ الحوافر على الصخر. أجبرهُ جسدُه على الخلود للراحة، بعدما بلغ به منتهى الاستنزاف ليلة البارحة. وأجبره عقله على الخلود لغيبوبة الرقاد، بعدما بلغ به منتهى الإعمال طيلة أيام.

فتح عينيه أخيراً.

لبرهة.. ظنّ أورهان إفندي أنه ما يزال نائماً.

فالمنظر خارج العربة،كان أقرب لمشهدٍ من حلم جميل. حلمٌ لا يليق بهذه الأرض الكئيبة. سطعت الشمس أخيراً، والسماء استعادت زرقتها. ثمة عصافير تغرّد فوق الأشجار الجرداء. أدرك أنه لم يُنصت لشقشقة الطير منذ زمن.

اعتدل من اضطجاعته. تفقدّ الموجودات بذهنٍ أصفى وأشد تركيزاً. التقت عيناه بعينيّ گواريل.. راعه الشر الكامن فيهما. كادت الطلّة الخبيثة تفسد عليه مزاجه، ثم رأى وجهها فعاوده الإقبال على الحياة.

كانت معرضة عنه. كأنه غريب لا تعرفه.

ابتسم لها فلم تتجاوب. اقترب منها فلم تتحرك. وضع يده على ركبتها فرمته بنظرة جعلته يتراجع كمن مسّ أفعى.

"سبحان مقلّب القلوب!"..

فرك عينيه وعاد يتأمل المنظر من حوله. ما تنبّه له أثار قلقه.

تنبه إلى أن عربتهم تمضي وحيدة في دربها. ما عادت جزءاً من قافلة غجرية. اختفت العربات التي حولها. اختفى المشاة والركبان. لم يكن يسعى وراءهم إلا الدب الأهتم، بالدو، يمشي الهوينى خلف العربة الوحيدة.

"من أين جاء هذا؟"..

تنبّه أيضاً إلى أنهم لم يَصلوا لوجهتهم حتى الآن. مع أن النهار قد انتصف.

ألم تؤكد له البارحة أنهم باتوا قريبين منها جداً؟

- شيْلا.. أين نحن؟ وأين باقي القافلة؟

- اجلس. سنصل قريباً.

لم تعجبه نبرتها.. ولا حركة عينيها اللتين تتحاشيانه.

- شيْلا.. أين ذهب البقية؟ لماذا نحن وحدنا على الطريق؟

صاحت فيه بغتة:

- قلت لك اجلس سحقاً لك!

توقفت العربة فجأة فوقع من جلسته. سحب گواريل عنان الحصان بقوة كادت تلوي عنق الحيوان المسكين. التفت لهما وقد استفزه صياحها. وقف على قدميه فانفردت قامته الرهيبة حاجبة الشمس. أطّ الخشب من تحته. أطلّ عليهما من عليائه.

خفق قلب أورهان. دوى في عقله ناقوس الخوف البريّ القديم.. محرضاً إياه لأن يقفز.. لأن يجري بعيداً.

تعلق نظره بوجه شيْلا. استحضر تفاصيل البارحة فزاد ارتياعه أكثر:

- ماذا قررتم أثناء نومي؟ إن هذا الطريق مُنحدر للأعلى.. هل براسوف مدينة قائمة على رأس جبل؟

تضيّق عيناها في نظرة طويلة. تفلت منها زفرة تهكم.. ضحكة أسى. تهزّ رأسها في يأس:

- لا فائدة منك. لا جواب يقنعك. لا شيء يمر أمامك بدون أن تتفكر وتتدبر في شأنه. حُكم العقل ورأي المنطق!

تتقلص حنجرته وهي تدني وجهها من وجهه:

- سيقتلك منطقك يوماً.. يا إفندي!

التفت ناحية گواريل.. ما يزال واقفاً.. يوشك على الانقضاض عليه وتمزيقه لسبب يجهله.

تمد يدها بين متاع العملاق. تتناول كيسه الذي كان قابعاً بين رجليه، بعيداً عن متناول أورهان وعن ناظريه. تستخرج منه عصا قصيرة.. يدهشه بياضها وسطحها الصقيل.

يتفصد العرق من جبهته وظهره حين يدقق النظر بها أكثر.

"هذه.. عظمة؟!"..

تمرر أصابعها على طولها الأملس. تهزّها أمام عينيه المتراقصين بدمع الذعر:

- قل لي أنت.. يا مَن رافقتَ الأطباء في الأماكن البعيدة.. أهذه عظمة حيوان؟ أم إنسان؟

يقلّب بصره بينها وبين العملاق المتربص فوق رأسه. يتخيّل عظامه متفرقة تعبث بها الأيادي.. لحمُه في أفواه هؤلاء المسوخ.. يمضغونه بأسنانهم النخرة.. ثم يتغوطونه لاحقاً بين أشجار ترانسلفانيا الشبيهة بالخوزايق.

ألعنٌ قبرٍ يمكن أن يتخيله إنسان!

يقرر أن يهرب الآن ويفهم لاحقاً. يلفظ عقله كل احتمال لنجاحه في مراوغة هذين الاثنين.. ودبّهما.. والاختفاء منهما في الغابة.

تصكّه شيْلا في اللحظة التالية بالعظمة على أذنه اليسرى.

يغيب في عالم الظلمة قبل أن يسمَع صرخته التي رددت الجبال المحيطة صداها.

ظن في البداية أنه قد مات.

هذه الظلمة الرهيبة التي تكتنفه، حتى وعيناه مفتوحتان على اتساعهما.. كما يظن.

هذه الرائحة، هذا الألم الفظيع الذي يمزق رأسه وينبض كطرق حدادٍ في أذنه اليسري. كلها محسوساتٌ جعلته يظن أنه مدفون في قبرٍ يضمه فتختلط أضلاعه.

ثم استوعب أنه حي.. ومقيّد.. مرة أخرى. مُمدد على سطح عربة يجرها حصان يدوي وقع حوافره في رأسه. وكيس قماشٍ يحوط رأسه فيحجب عنه الدنيا بما فيها.

نادى عليها.. وهتف باسم گواريل. لكن أحداً لم يجاوبه.

صمتَ متحاملاً على ذعره وألمه وندمه.

أمضى وقته ملقى بلا حراك. لا يدري كم مرّ عليه هكــذا غارقاً في الظلمة والجهل.. ساعة.. ساعتان؟ قضاها كلها في ترديد أدعية الاستغفار.. وآيات الحفظ من الشرور.. وفي محاولة فهم ما يجري.

توقفت العربة أخيراً فشحذ حواسّه أكثــر. استشــعر الــبرد الرهيب. سمع صوت الريح في أذنه السليمة.

أحس بأصابع گواريل المخلبية تأخذ بتلابيبه وترفعه كأنــه محض كيس. وحده گواريل يمتلك هذه القوة الرهيبــة للتلاعــب بالأجساد. لم يشكّ للحظة في أنه هو الذي يجرجــره الآن علــى الأرض الصخرية.

الحواف الحادة تدمي قدميه الحافيتين. أجبره العمــلاق علــى الوقوف ونــزع الخرقة التي تحوط رأسه. غشي الضــوء الشــاحب بصره لبرهة. وحين اتضحت المرئيات أمام عينيه مجدداً ميّز الســحنة البغيضة. ميّز أيضاً قامة شيْلا التي مرَّ بكل تفاصيلها.

ها هي توليه ظهرها، قمرب ببصرها للبعيد الشاهق بين الجبال، وأصابعها تعبث بذقن بالدو القابع إلى جوارها. متسربلة بالعباءة ذاقما التي شهدت غوايتهما الليلية قبل ساعات.

شتّان بين البارحة واليوم!

ينظر أورهان لنفسه. معصماه مقيدان. قميصه غارق في الدم. أذنه اليسرى لا تسمع شيئاً. ضربة شيْلا أصابتها بالصــمم. إنــه

محظوظ لأنه ما يزال حياً بعدها.. أو لعل الموت أرحم مما ينتظره.

تجحظ عيناه في غير تصديق. تتشبع روحه بالهول الكامن في المنظر البادي أمامه. يحلّق بصره عالياً عبر متن الجبل المذهل.

على قمته البعيدة صخرة نافرة. فوقها تنتصب قلعة دراكولا. لا يدرك عقله الكيفية التي أمكن لبشرٍ بناؤها عليها.

تلمع في السماء المكفهرة صاعقة برق يكشفُ وميضها ما لا تصدقه عيناه. مئات ومئات الدرجات التي حفرها قوة من خارج هذا العالم. تمتد من حيث يقفون إلى قمة الجبل البعيدة.. إلى حيث مدخل القلعة الشاهقة.

سمع وصف هذا المشهد قبلاً. حدثته عنه شيْلا قبل يوم واحد وحسب..

"لو كانت السماء صافية لأريتك قلعة پوناري غير بعيد عن هنا. بناءٌ قائم على صخرة واحدة مهولة"..

"ألف وخمسمئة درجة.. حفرها عبيده البويار حفراً بأياديهم.. ومشت عليها كلها أقدام أولئك الغجر"..

تتقدمهم شيْلا. تضع قدمها على الدرجة الأولى.

يدفعه گواريل برجله في ظهره. تأخذه المفاجأة فيقع على وجهه. يرفعه الغجري من شعره. يقسم أورهان أن يحلقه كلّه إن نجّاه الله مما هو فيه.

إحساسه بالألم خففه هذه المرة فضوله العارم.

"ماذا يوجد فوق؟"..

يضع قدمه الحافية الدامية على الدرجة الأولى. بقيت ألف وتسعمئة وتسع وأربعون درجة.. محفورة على جسد الجبل بأسره.. تنتظره كي يعرف ما ينتظره عند آخرها.

لا يذكر كم مرة توقف ليبكي من شدة الألم. ولا كم مرة توسل لگواريل كي يفكَّ قيد يديه.. فقط ليدلّك قدميه أو يتحسسهما.. ليمسح عنهما الدم وينزع الجلد المسلوخ الذي تدلى من باطنيهما. لم يتلق منه رداً إلا اللطمات والركلات.

بلغ به اليأس أن فكّر في أن يلقي بنفسه عليه. أن يستفزّه ويستثيره ليرغمه على خنقه أو رميه من شاهق. لكنه لم يُرد أن يغادر الدنيا الآن. قرر أن يصبر إلى أن يصل ويعرف.

سيدفع الألم ثمناً للمعرفة.

خطا بقدميه الممزقتين على شظايا الحجر والشوك. على الجليد والمطر. مشى فوق ذلك كله حتى فقد الإحساس بهما.. فكأنه يطفو فوق وسائد من نار.. أو كأن ساقيه نصلا سيفين مغروسين في بدنه.. لا تزيدهما كل خطوة إلا انغراساً.

أمطرت على رؤوسهم في البداية. ولما ازدادوا علواً صار المطر ثلجاً.

ارتعد كل عضو في جسده برداً وخوفاً. بكى وتقيأ وبال على نفسه.. هكذا ظن. البلل يغمره من كل جهة فلا يعرف إن كان دماً

أم مطراً أم غير ذلك! واصلت رجلاه فعل الصعود وباقي كيانه ذاهلٌ عمّا حوله.

قدمٌ تتحرك فتسحب وراءها الأخرى. درجةٌ أخرى لفوق.. هكذا لألف وخمسمئة مرة.

غاب عن الموجودات. سبح عقله في ملكوت الهذيان. عجِبَ لقدرة الألم، لو زاد عن الحد وتضافر مع البرد المجمِّد، على تخدير الحسّ والعقل!

"هل يتخدّر المتخوزق وهو فوق مطيته الأخيرة؟

حين يشتت الألم وعيك.. يصير للمرئيات معنى مختلف.. تصير للكلمات صيرورات جديدة!"..

لِمَ لَم يذكر المعلم شاول له هذه المعلومة الباهرة في حلب؟ في أدرنة درّسوه الفلك بدون أن يتألم. الفلسفة كفرٌ وعلم الكلام زندقة.

جسدُ شيْلا تشكّل من طينة مختلفة. جبريل أرسله الله ليأخذ تراباً من أركان الأرض الأربعة وعلى تنوّعه جاء بنو آدم. الشيطان دخل في الصلصال الفخّاري وخرج منه. لما وجده خاوياً كالأصيص استكبر عن السجود.. الشيطان الملعون لوّث طينة آدم.

الملعون يحتفظ لنفسه بكل مجد الإثم.. وهو مجرد وسواس!

ماذا عن اليد التي اقترفت؟ ماذا عن الرِجل التي مَشَت؟ ماذا عن العين التي اشتهت؟ ماذا عن القلب الذي سوّدته بُقع الران؟

الشيطان لم يخوزق أحداً ولا سلخ جلد أحد.

ذلك كله إبداع آدميّ أصيل. ومع ذلك يخافونه هو.. وينسبون شِرار البشر له.. بأيّ حق؟

ألفٌ وخمسمئة درجة مشاها معايناً أثرڤلاد المخوزق.. معايشاً نفحة من وحشيته.

استحضر عذابات ضحاياه البويار والبلغار والمسلمين والغجر.

تعجّب من قسوة ابن الإنسان..

أدرك مقدار سعة رحمة الله..

فهم شيئاً من حكمة خلق جهنم.

"الله.. السلطان.. الشيطان.

ها قد جئتك يا ابن الشيطان..

فِرّ مني.. تجنبني.. خفني بقدميّ المزقتين وأذني الصمّاء.

أنا.. ابن آدم.. كفيلٌ بأخذ مكانك ومكان أبيك"..

انتهت الدرجات أخيراً.. عادت قدماه.. ما كانتا قدميه.. تدبّان على الأرض المستوية.

رجع له شيء من وعيه حين أبصر مبنى القلعة الشامخ أمامه على بعد خطوات.

انقضَت الدرجات المهلكة أخيراً. صعدها كلها بنفسه.. أورهان بن يوسف.

قالوا له أنها ألف وخمسمئة.

لم يتمالك الضحكة التي أفلتت منه.

التفتت له شيْلا أخيراً.. وكذلك فعل گواريل.. والدب الأهتَم بالدو أيضاً.

حدّقوا به وهم يلهثون. المطر والعرق يقطران من أجسادهم. لم يكن المعذَّب الوحيد بينهم.

ارتمى على الأرض رغماً عنه. يبكي من ألم قدميه ويضحك في آن:

- يا حمقى.. عددها ألف وأربعمئة وثمانون!



-19-

فكّر وهو متشبث بأطراف الوعي، أن قصر ابن الشيطان.. لو كان على الأرض.. فهذا هو حتماً!

هذه الأسوار الشاهقة.. كفواصل بين الجنة والنار.

هذه الأبراج الخارقة العلو.. كصروح هامان وفرعون.. من بناها علّه هو الآخر أراد أن يبلغ الأسباب.

انثنت رقبته لأقصى حد. دارت عيناه لأقصى درجة. عجز عن بلوغ نهايةٍ لامتداد المبنى الرهيب.

تعلق بصره بالبوابة السوداء الهائلة. فولاذٌ بعضه فوق بعض. تركه گواريل ينهار على وجهه أرضاً ليتقدم منها. الدبُّ يدنو منه. يلصق أنفه المبلل بالمطر والمخاط برأسه. يتشممه ويلعق الدم من عليه. لو كانت عنده أسنان لنهش رأسه.. ولانتهى الأمر حينها. لكن هيهات!

يضرب العملاق الغجري بقبضته على جسد البوابة.. فكأنه حديد يطرق حديداً. يتردد صدى الضرب مختلطاً بدوي الرعود. بعينين مفتوحتين بالكاد يراقب نهاية المشهد.. أو بدايته الحقيقية.

تنفتح البوابة ببطء مهيب.. يقبل ناحيته ظلُّ رجلين. ما عادت عيناه قادرتين على التحقق من المناظر. يضع كلٌّ منهما يده تحت إبطه ليجرجراه على الصخر والشوك. تتوالى تفاصيل الأرض تحت عينيه المنهكتين. لا يلبث الشوك أن يتحول لحجر أملس.. والحجر يصير رخاماً. يجرجرانه هكذا كالنعجة ورأسه متدلٍ بين كتفيه.

يدخلان به قاعة فسيحة. لا يقوى على رفع رأسه ليتأملها.. لكنه يدرك مدى اتساعها من تردد صدى كل خطوة وكل نفَس. يلقيان به على وجهه مجدداً. كدمةٌ جديدة تُضاف لجبهته.

تتقدم شيْلا، ومعها گواريل. حتى بالدو موجودٌ معهم. يرى القوائم الثمانية أمام وجهه. يجثو الغجريان على ركبهما. يحنيان رؤوسهما للأرض. تتكلم شيْلا فيخرج صوتها خاشعاً مرتجفاً:

- Stăpânul meu, fiul stăpânului meu, humila voastră sclavă va adus corpul duşmanului vostru[1].

يجاهد ليرفع رأسه.. ليحرك عينيه تحت الجفون التي ورّمتها السحجات والسقطات. دفع ثمن المعرفة غالياً جداً.. ويريد الآن أن يستوفي الثمن. أن يرى كيف يبدو ابن الشيطان هذا؟

ينعقد حاجباه على الرغم منه.. يكلفانه نبضة ألم في وجهه.

أمامه، على جدار بأسره، انسدل ستارٌ يحمل شعار التنين. تحته عرشٌ ذو كرسيين اثنين.. وعليهما جلس رجلان اثنان.

---

1 مولاي، سيدي وابن سيدي، عبدك الذليل حضر. أحضر جسد عدوك إليك.

عرفهما فوراً.. مع أنه لم يرهما إلا مرة واحدة من قبل.. قبل ثلاثة أيام.

كانا وقتها يفركان جسده.. يحملان له ثيابه.. يخدمانه في حمام قصر بوخارست.

كانا رادو.. وآلين!

تكلم آلين أولاً.. بلاتينية لم يتعنَّ إخفاء بلاغتها هذه المرة. خرج من سَمت الخدم، انكشف على حقيقته:

- أنت عنيدٌ يا إفندي. عنيد وجمجمتك سميكةٌ كما يليق بتركي أصيل.

مصعوقاً مزلزل الفكر، حدّق به أورهان وخدّه ملتصق بالأرض.

الصورة الكاملة تتبدى له.. إنما هشّة مفككة. أسئلة أخرى كثيرة تبقى معلّقة عصية على الردّ.. تزدحم في رأسه لتزيد من معاناته.. تضاعفُ من آلامه.

هذا آلين.. والخادم الآخر.. رادو.. اسمه على اسم السيد السابق! جالسان على عرش دراكولا!

أليس من المفترض أن يكونا الآن محبوسين في زنازين تيمور أوغلو؟

وحتى إن أُخرجا منها.. فكيف تسنى لهما أن يصلا لهذه القلعة قبله؟

ولماذا لا يبدوان متفاجئين برؤيته.. مثلما هو مصعوق لرؤيتهما؟

كيف؟ ومن أين؟ وبأيّة وسيلة اتصلا بالغجر، ليجيئوا به إلى هنا؟

"الغجر! يا حثالة البشر.. يا نفاية الأرض!"..

حاول أن يُدير وجهه ناحيتها، أن يلقي عليها نظرة المقت الأخيرة، أن ينقل لها رسالة وداعه التي ستطاردها في كل كوابيسها، إلى آخر رقدة لها في القبر.. لكنه لم يقو.

لا تطاوعه عضلة واحدة في جسده المنهار، ولا يضمن أن تُفصح عيناه المتألمتان عن معنى مغاير من وراء جفونه المزرقّة.

يحرك لسانه الجاف في فمه. يجبر شفاهه المتيبسة على الحركة:

- هل.. هل أنتما فارسان من كتيبة التنين؟

- بل نحن قائدا جيش التنين أيها الكافر!

يصيح رادو منتفضاً فوق عرشه فتردد القاعة صيحته. عصبي ومتوتر هو منذ أن قابله أول مرة. يثير صياحه روع الدبّ فتسارع شيْلا لاحتضانه.

يقلّب آلين عينيه في هذا الجمع البهلواني باستمتاع. يسترخي على كرسيّه مخاطباً رادو:

- مهلاً يا أخي. إن الإفندي يجهل الكثير. يجب أن نكون صبورين معه، وأن نرفق بحاله التعسة. لعلك تتحرق لمعرفة الإجابة على أسئلة كثيرة؟ قيل لنا أنك تحب تحكيم العقل والمنطق.. وأنك لم تؤمن برجعة دراكولا.. ابن الشيطان.

لا يردّ. يود لو يقوم فيلف قيد معصمه حول عنقها. لو ينهش حنجرتها بأسنانه كما رأت في المقابر. هكذا قالت.. حلفت له برحمة أمها وأبيها.. كل ذلك كان تلفيقاً؟!

تذكر وفرة جسدها بين يديه.. انــزلاقها كــدرفيل أملــس. خنقته الغصة ثم ارتعد حين هبّ آلين ونــزل درجات العرش نحوه. أصداء خطواته تكررها حجارة السقف والجدران. انحنى عليه ومــدّ اصبعاً ليرفع وجهه المنكس.. ليتأمل في عينيه المخفيتين خلــف آثــار الضرب والسقطات.

هو! الخادم الذي حمل مناشفه في الحمام يوماً. حكى له كيــف مات رادوا بيك بتفصيلٍ مدهش.. وكأنه.. كان هناك.

هو بذاته! آلين الذي سبقه لجثمان دينيز ليلتها!

دار بعينيه في ثيابه الموشاة بخيوط الذهب. وفي رمز التنين المثبت إلى صدره.

"قائدُ جيش التنين؟" ..

– قل لي يا إفندي.. ألا تحب أن تقابل ابن الشيطان؟

يرتعد أكثر. هل السؤال حقيقي؟ هل إجابته حقيقية؟

– ها أنت جاثٍ أمامه.

رفع رأسه رغماً عنه. شدّة المفاجأة تحركه غصباً. حدّق في آلين الذي مدّ ذراعيه للسقف، وشخص ببصره للأعلى. صــاح وكأنــه ينادي العالم كله:

– ها أنت تنحني أمام ابنِّ الشيطان.. ابني الكونــت ڤــلاد دراكولا.. إحنِ رأسك أيها التركيّ للأمــير ميخنــا.. والأمــير ميخائيل.

ميخنا وميخائيل[1]..

ميخائيل وميخنا..

دراكولا عقّبَ ولدين اثنين، نسختان من ابن الشيطان، حفيدان للشيطان.

لِمَ لم يخبره أحد؟.. لِمَ لم يفكر في هذا الاحتمال؟

مات دراكولا وبقي ثأره القديم حياً. ورّثه عبر الأجيال. أرضعه لابنيه الاثنين مع لبن أمهما. من عقّب لم يمت. قطع السلطانُ رأس عدو الله ڤلاد، وترك ابنيه؛ ميخنا.. وميخائيل. آلين.. ورادو!

يضحك آلين.. أو الأمير ميخنا. يضحك باستمتاع وتلذذ لمرأى هذه الحيرة الصاعقة التي تظهر على وجه أورهان المشوه. لهذا الغباء المستشري عبر ملامحه المنتفخة. أما الأمير الآخر، ميخائيل، الذي سمّى نفسه رادو، فجالس على عرشه متحفزاً، عيناه تبرقان وركبتاه تهتزان بملل، يستعجل متعة يحبسها عنه أخوه بكلامه الكثير:

- لم تكن تعرف؟ وأنّى لك أن تسمع بنا وقد حُرمنا من مجد أبينا ونحن بعد صِبية؟ هُجّرنا من قصورنا في ظلمات الليل. تشردنا بين بلاطات ملوك أوروبا.. المجر.. الجرمان.. البولون. كلما أحسسنا بتآمر أحدهم علينا أوينا لحمى سواه. عشنا كالمطاريد.. وكل ذلك بسبب سلطانك العثماني.

اندهش أورهان حين سبقه لسانه ونطق:

- مولانا السلطان لم يبدأ الغدر.

1 Mihnea "the Bad" (?-1510) and Mihail (?-1485).

بنظرة واحدة من عيني الأمير ميخنا، طوّح گواريل برجلـه في الهواء. ارتطمت قدمه بفك أورهان في ركلة دحتـه علـى الأرض دحواً. دارت به الدنيا. امتلأ فمه بالدم وبحطام الأسنان.

بحث بعينيه الزائغتين عن ملائكة الموت.. لم يؤذن لهم بالظهور بعد.

التقطت أذنه السليمة صوت الأمير الولاشي الغاضب:

- اسكت واسمع.. أريدك أن تعرف قبل أن تموت.



-20-

- تقول أن سلاطينك لم يبدأوا بالغدر؟ عليك اللعنة!

ومن الذي أذاق أبي طعم الأسر وهو بعد فتى غضّ؟ من الذي انتزع منه ملك آبائه وأجداده؟ من الذي غزا الروملي.. ألستم هكذا تسموها؟ اجتاحها بخيله ورجله، جنّد خِيرة شباها في الجيش الانكشاري، أخذ أجمل فتياتها سبايا، نهب زرعها وضرعها جزيةً ومكوساً وباعه في أسواق القسطنطينية؟ وكل ذلك باسم الله ومحمد!

أسأُلك يا إفندي: ماذا سيقول النبيّ محمد في دماء المسلمين التي أهرقها آل عثمان ليؤسسوا ملكهم؟ وفي سلطانك محمد الذي قتل إخوته ليستأثر بعرش أبيه؟

أرى أن وجهك يتمعرّ. ستقول لي أن محمد بن مراد لا يفعلها؟ وأنه يظلّ أعدل من ملك المجر؟ ومن دوق بولونيا؟ صدقت! مات أبي في سجن ماتياس كورڤينوس آخر الأمر. لكني أقسم على روحه أني لن أرحم أياً منهم. سننتقم، أنا وأخي ميخائيل، من كل ملوك أوروبا. لكننا قررنا أن نبدأ بالعثماني أولاً، أن نتخلص من القبضة التي تخنقنا الآن، نعاقب الخونة المقيمين بين ظهورنا، ثم سنلتفت للبقية.

خذها كلمة من ابن الشيطان الحيّ عن ابن الشيطان الميت. اسم أبـــي سيزرع الخوف وينثر الدم على وجوههم جميعاً. صبراً وسترى بعينيك.. أو لعل الخبر سيصلك في دركات الجحـــيم. ترانســلفانيا ستظل خاضعة لاسم دراكولا، ومدينة له بمجدها إلى قيام الســاعة. وسنحيي نحن، فرسان التنين، هذا المجد في قلوب الناس غصباً.

لعلك سمعت بأن جيش التنين قد انحلّت عصبته؟ وأن سلطانك قد بعثره فما عادت تقوم له قائمة؟ هذا صحيح. قد تكون شــجرتنا انقصفت، لكن بذرها ما تزال بجوف الأرض حيّة، تحنّ لسقيا الدم.

فرسان التنين في ولاشيا لم يبق منهم إلا حفنة رجال. جمعناهم أنـــا وأخي هنا في قلعة پوناري. لكن ماذا تفعل كتيبةٌ في وجه جيش التُــرك الكاسح؟ بماذا يفيد قسَم الدم مقابل السيوف التي تقطر دماً؟

لم يكن أمامنا إلا أن نستثمر إرث أبينا، إرث الخوف الذي لم يزل نابضاً في العروق حياً في الذواكر، وأن نبني عليه. الخوف يا إفنــدي.. الخوف هو أعظم حليف.. لا يسعك أن تقبض عليه ولا أن تسيّر جيشاً ليدحره. فكيف بخوف غيبـــي مستتر؟ من خطر لا تعرف كنهـــه ولا تراه، لكنه مستوطن تحت جلدك، يصحبك أينما كنت. هل تعي ما أقول؟

استولى علينا الهاجس ونحن في المنفى. حرّكنا كالرؤيا السماوية. كنّا قد سئمنا ذلّ الشتات واشتقنا لهواء الوطن. لكن كيف نرجـــع؟ لأيّة حاشية؟ لأيّ مجد؟ مثلك لن يفهم. لوكانت لنا رجعة، فبصفتنا ملوكاً أبناء ملوك.. إما هذه وإلا فلا.

عُدنا قبل ثلاث سنين. لا ندري إلى أين نأوي ولا بمـــن نثـــق؟ ليس عندنا من متاع الدنيا إلا الحصان الذي تقاسمنا صهوته.

في قلب الغابة هيأت لنا الأقدار استقبالاً لم نتوقعه، من أتباع لم ينسونا.

عبيدٌ قدماء.. بقوا على العهد لسيّدهم القديم. حملت لهم الريح اسمه، ورسمت لهم ظلمة الليل ملامحه. شبحُه زار حكمائهم في الصحو قبل المنام، فجددوا له قسم الولاء وذبحوا لاسمه القرابين. عرفوا بحسّ التابع الأصيل أنه آتٍ وإن تغيرت صورته. ترصدوا رجعته كلما اكتمل القمر. انتظروه لثلاث سنين وفي النهاية ظهرنا لهم نحن، أنا وأخي. جئنا مصداقاً لرؤيا حكماء الرومَن.

هو ما سمعتَ. أذنك لم تخنك. الرومَن.. عبيدنا القدماء.. ظلوا مخلصين لسيرة سيدهم ڤلاد تسيبيش. ذاتُ الغجر الذين مشيت أنتَ لأحضانهم برجليك. أيّ ترتيب سماوي؟!

لا تتفاجأ يا إفندي ولا تندهش. لا ترمِ هذه الفتاة الغجرية بنظرات المقت هكذا. إنّ ثأركَ معنا نحن، وإنْ هي إلا عبدة مأمورة.. تسمع فتطيع.

لا تتفاجأ.. ولا تندهش. ما ظنّك بالخوف الراسخ حين يُعيد تشكيل روح الإنسان؟

ذبَحهم أبي وطهاهم. جعلهم يأكلون لحم بعضهم البعض. وماذا كانت النتيجة؟ خنعوا له وخضعوا لسرّه السُفلي حتى وهو في قبره!

تعلّم منّا يا إفندي. ما ستسمعه هنا لن تغنيك عنه سبعون حياة. إعلم أن الناس لا يستقيم حالهم بدون يدٍ عُليا توجههم. تهوي على رؤوسهم لو نسوا وحادوا عن الجادّة. الناس خُلقوا تابعين على الجملة. قلّة مصطفاة أُريد لها أن تقود.. حية أو ميتة.. من فوق عروشها أو من داخل قبورها.. سيّان.

ڤلاد دراكولا العظيم كان من تلك القلّة. ونحن ورثنا عنه هذه المسؤولية. أما الغجر.. وكل سكان ترانسلڤانيا وولاشيا ومولداڤيا.. وأنت ومن يقيمون معك في القسطنطينية وعبر إمبراطورية آل عثمان.. كلكم توابع. ينتهي أمر قيادكم في النهاية لمن ينتصرمنّا نحن.

لوّح الأمير ميخنا بن ڤلاد بذراعيه في أرجاء قاعة عرشه وقد أخذته الحماسة:

- عُدنا، أنا وأخي ميخائيل، من منافينا، فصَحِبَنا العبيدُ الغجر لحصون أبينا المخبوءة فوق الجبال. ما تزال أشباح البويار الذين بنوها بأجسادهم المختلطة بالحجر والقرميد تهيم بين الممرات والغرف. ميخائيل يقول أنه يراهم وأنا أصدقه. حتى هي تخاف منّا، تشم دم أبينا الجاري في عروقنا وترى في وجوهنا ملامحه، فتنوح وتصرخ في الليل أحياناً. سكنّا هذه القلاع المعزولة على القمم بين الأرض والسماء. لا أحد.. ولا حتى انكشارية العثماني يجرؤون على تفقدها. لا أحد سيخطر له أن أسطورة ابن التنين يُعاد بعثها من هنا.

وحتى لو عرفوا، فلن ينالوا منّا بسهولة. سنذوب بين جبال ترانسلڤانيا. ستحذرنا منهم الطيور والأشجار قبل البشر فنعرف بما يجول في خواطرهم.

إن ولاء هذه الأرض معقود لسلالة دراكولا يا إفندي. كل ما يهمس به الوالي العثماني في مخدعه ببوخارست لجواريه، وكل التعلميات التي يتلقاها من السلطان في القسطنطينية، كله يصلنا هنا.

عيوننا تتنقل داخل القصور وبين الحجرات والزنازين. نعرف أسرار مداخلها ومخارجها فلا تصدّنا جدران ولا أبواب. نتنكر في هيئات الخدم والسائسين والجند. هه! صدّق سلطانك أنه انتصر فجنّد أبناءنا في جيشه. أدخل الزيت على الماء وهما لا يمتزجان. يحسب العثمانيون أنهم يحكمون ولاشيا وهم في الحقيقة يرزحون فوق أنفاسها لا أكثر. وسيرحلون طال الزمان أو قصر. نحن الأرض ونحن التراب ونحن الهواء. نحن ورثة مجد التنين.

عرفنا بقدومك قبل أن تصل. هكذا استعددنا لك، جهزّنا لك خطة استقبال تليق بك. خطةٌ تدخلت الأقدار وغيّرتها كثيراً لتصل بها لهذه النهاية المدهشة.

حققنا انتقام دراكولا من أخيه النجس رادو وانتظرنا ردة فعل السلطان. عرفنا أنه تحرّك أخيراً وأرسلك لتقتلع بذرة الخوف التي بذرها أبونا ورعينا نحن شجرتها حتى كبرت وورفت ظلالها الحمراء. أراد أخي ميخائيل أن يقصَّ رأسك ويتركك تتخبط في دمك داخل قلعة بوخارست ليعرف السلطان مقدار فشله. لكن أنا أردتُ أن أوصل رسالة الخوف إلى قلب سيّد القسطنطينية.. أن أبثها في قلبه على لسانك أنت فيقتنع هو بها وتتلبّسه. هكذا قررتُ أن أجعلكَ تشهد مقتل صاحبك. أردتك أن تصدق الأسطورة وتعود بها لمحمد بن مراد.. وقد كدتُ أنجح.

غادرَتْ عربتك السلطانية بعدما رأيتُك بأم عينيّ تبكي وتولول كالنساء عند جثة تابعك الخصيّ. ظننتُ أني نجحتُ. لكني ذهلتُ حين رأيت شعار التنين في يدك ليلتها. لم أعرف كيف حصلت عليه؟ اكتشفتُ أن ميخائيل قد تهوّر وتصرف من عنده. أخذته الحماسة ووضعه فوق الجثة ليثير غيظ السلطان التركي أكثر. غضبتُ من أخي جداً. ميخائيل الطيّب.. قليل الصبر ومتهور دوماً.. كاد يكشف كل شيء.

لو أن ذلك النقش وقع بين يدي محمد الفاتح لكان فهم، ولأرسل جيشه وطارد فلول التنين. كان سيقضي على أسطورة الرعب برعبٍ أكبر منه يُنسي الناس اسم ڤلاد تسيبيش. لكنك لحسن الحظ لم تصلٍ له. عنادك يا إفندي خدمَنا وخذلك. تهورتَ وهربتَ من حراسك. فررت للغابة بدون أن تدري، ولا أن ندري نحن، بتدابير السماء.

بمحض الصدفة ركضتَ بقدميك لقلب معسكر أتباعي الغجر. ساقتك الأقدار لذراعي گواريل مباشرة.. فوجئ بك تجري في غابته فأمسك بك وقضى على من معك. أرسلَ لي من فوره بالخبر. جئتني ثانية على قدَر يا إفندي.. ألا ترى أن هذه معجزة مدهشة تؤكد أننا منصورون؟

سابقتُ الريح يومها ما أن وصلتني رسالة گواريل.. لحقتُ بقافلة الغجر في المساء. قابلتُ تابعي الأكبر، الذي يسمّونه هم الحكيم الأكبر، أمرتُه بأن يملأ رأسك بالحكايات، ويجعلك تؤمن بالأسطورة.. وإلا فليأتِ بك إليّ.

قال لي بأنه سيسلّط عليك من تعمي عينيك وتصم أذنيك.. فلا ترى أو تسمع إلا من خلالها.

صمت الأمير ميخنا أخيراً. سكت عن الكلام بينما صوت أنفاسه يملأ فراغ قاعة العرش.

صدره ما زال يعلو ويهبط، والعرق يكلل جبهته في قاعة حصن بوناري، حيث حكم أبوه من قبلُ وسفك الدم. في عينيه بريقٌ مجنون، وفي أذنيه يدوي هتاف جمُوع الأتباع المتخيَلين.

لم يكن أمامه سوى مستمع واحد.. رجلٌ واحد فقط. تركيٌّ اسمه أورهان بن يوسف.. مكبلٌ بالأغلال محطّم الأوصال.. مُلقى على وجهه بدون أن يظهر ما يدل على أنه على قيد الحياة.

إلا أن أورهان كان حياً جداً. أطرافه ساكنة، لكن عقله يغلي كالمرجل.

أما قلبُه فكان مفعماً بالكُره.

الكُره لهذا الأمير الأحمق الذي خدعه وسيّره وفق خطته..

الكُره للخونة في قصور بوخارست وإسطنبول، الذين أفشلوا خطة السلطان قبل أن تبدأ. هل يُعقل أن يوجد بين أسوار طوب قابي من يفشي سر مولانا؟ لا يصدق! ومع ذلك فها هو حيث هو الآن.

تلبّسه شعور عميق بكره الذات. كَره أورهان نفسه لأنه فشل بهذا الشكل الذريع. سار للمصيَدة بقدميه. تأخر في الفهم. بل إنه

وحتى بعدما أتيحت له الفرصة ليقوّض دعائم الأسطورة.. عاندَ وخالفَ الأقدار. ألقى بنفسه بين ذراعي هؤلاء الغجر على غير تدبير منهم.. كما يؤكد له ابن دراكولا الواقف عند رأسه الآن.

ومن أين له أن يعرف حينها؟ كيف يخالف الأقدار من لا يعرف مآلاتها؟

وهؤلاء الغجر.. هم أتباعٌ للمخوزق منذ القدم؟ وخدمُ أسطورته المخلصون؟!

لم يكن يدرك حين فرّ من حراسه الانكشارية أنه قد أوقف عربته السلطانية على مرمى حجر من مخيمهم. وأن الدهشة قد أصابت الغجر أنفسهم حين راح هو يتوغل في الغابة فتابعوه خفية.

قال ميخنا أن گواريل قد "تفاجأ" برؤيته.. فهل كان يتوقع وجوده في مكان آخر؟ ومن أين عرفه؟

تخيّل العملاق الملعون يراقبه من طرفٍ خفي. يراه وهو يختفي وراء الأشجار. ينتظر حتى يتفرق جنديا الانكشارية في الغابة بحثاً عنه. الغبيان سهّلا أمر القضاء عليهما. ليس أسهلُ من القضاء على الشاة الضالة.

يتسلل گواريل من خلفه حينها ويمد كفه المخلبية المعروقة. يكتم الهواء عن مخه بما يكفي لإفقاده الوعي. ثم يرسل أتباعه ليصطادوا الجنديين كلٌّ على حدة. الكثرة تغلب الشجاعة حتماً. لعل گواريل مشى بنفسه نحو العربة وقتل سائسها المسكين بيديه. أراقوا كل تلك الدماء واحتفظوا به هو حياً. كبّلوه وألقوا به على ظهر حمار. أخذوه معهم وأرسلوا بخبره لميخنا الولاشي.. المتنكر في قلعة بوخارست بهيئة خادم.

بماذا أخبروه بالضبط؟ لماذا قدّروا أن سيّدهم سيهتم لأمره؟

ضاعفَ جهلهُ من غضبه. لقد كان مكشوفاً منذ البداية.. منذ أول لحظة.

كل تفاصيل حياته مع الغجر خلال الأيام الثلاثة الماضية كانت مزيفة مصطنعة.. استجواب گواريل له.. حواره مع الحكماء وحديثهم عن ثأرهم مع الذي لا يُسمّى.. ثأر أم عهد خضوع؟

ماذا عن لحظات معاناته.. أمله.. وسعادته؟ كل ذلك كان تمثيلية أدوها أمامه؟! كذبة كبرى صاغوها معاً لخدمة غرض سيدهم؟ لجعل أورهان يصدق خرافتهم.. وينشرها هناك في أرض الشمس السلطانية؟

"لا أحد يفر من قبضة الذي لا يُسمى. بل إنك في طريقك لعرينه إن كنت لا تدري"..

حاولوا معه حتى يئسوا منه. ظهر لهم أنه عنيد ولا تقنعه محض خرافة.. ففقد غايته عندهم. رفعوا أياديهم عنه لما عرفوا أنه اهتدى لسرّ جيش التنين.

كيف عرفوا؟ مَن نقل لهم ما يعتمل برأسه وما يمور بصدره من أفكار؟

تحامل أورهان على نفسه. حرّك رأسه أخيراً. دار بعينيه المتورمتين باحثاً عن وجهها. جاءت عيناه في عيني ميخنا أولاً.. ثم تلاقت نظراته بنظرات گواريل.. رمقه الدبُّ بالدو بلا اكتراث.. قبل أن يعثر على عينيها.

هذه المرة لم تكونا تبتسمان. وجهها مسوّد. وفمها مفتوح في نصف شهقة لوعة. حدجها أورهان بخلاصة الحقد المترسب في سويداء قلبه.

كلّ ما كان بينهما مجرد كذبة. كل ما قالته وفعلته كان لأجل هذه اللحظة.. أو ربما لأجل تفاديها.

"سيقتلك منطقك يا إفندي"..

هو الذي استعصى عليها. هو الذي رفض أن ينقذ نفسه وينقذها معه. رفض أن يصدق الخرافة وسار وراء المنطق والعقل. فلما ظهر لها ذلك لم تجد مفراً من تنفيذ آخر الأوامر.. والإتيان به لعرين سيّدها ابن الشيطان.

لو أن النظرات تقتل!

لم يتبق لأورهان إلا عيناه. أودع نظراتهما كل مقته ونقمته. لاحظَ ارتعادة الخوف التي سرت في جسدها. خائفة منه؟ أو عليه؟ لا فرق.. سيقتلها ما أن يحرروه.

سيكون موتها على يديه آخر عهده بالدنيا إن استطاع.

لم يفُت شيء من ذلك على الأمير ميخنا. نقل عينيه بين الاثنين وابتسامة عريضة على وجهه. أحنى ظهره حتى صار فمه عند أذن أورهان:

– أعرف أن لديك المزيد من الأسئلة. تعال.. سأريك شيئاً مذهلاً.



-21-

ما عادت قدماه صالحتين للمشي. حمَله گواريل بين ذراعيه كالصبي الكسيح. تبعوا الأميرين الولاشيين عبر سراديب وأقبية پوناري.

ساروا كلّهم خلف ميخنا وميخائيل.. بما فيهم شيْلا، ودبّها الأهتم الذي شاركهم الصمت. حشرَ الحيوان جسده الضخم حشراً بين الممرات الحجرية الضيقة. لم تفتأ شيْلا تربت على ظهره لتهدئ من روعه.

"لماذا يرافقنا هذا الدبّ؟!" ..

حاول أورهان أن يحافظ على تركيزه. أن يسجل تفاصيل ما يرى ويسمع لعلها تفيده لاحقاً.. لو كان هناك لاحق. لكن عتمة السراديب، اهتزاز المناظر، آلام جسده ورائحة گواريل الخانقة.. كل ذلك شوش المحسوسات في ذهنه. لم تتح له فرصة استيعاب ما حوله إلى أن وصلوا لقاع القبو.

سارع جنديان لإيقاد المشاعل وإنارة المكان الغارق في العتمة والرطوبة. تراقصت النيران أولاً على وجوه الأميرين. أسقطت على ملامحهم ظلالاً أبرزت ابتساماتهم الشيطانية المريضة.

"هذان فتيان غير سويّان.. لا شك بأن أباهما قد فعل بهما أشياء شنيعة وهما بعد صغار"..

حين تسللت الإضاءة للمكان، حين تبدّت المظاهر أمام عينيه شاحبة وظهرت المرئيات من قلب الظلام، تضاعفت الرعشة في جسد أورهان، وتعرّف معاني جديدة للذعر. استحضر سيرة المخوزق الحقيقية التي يجسدها اثنان من ذريته أمامه، وتجسدها كذلك آلات الهول هذه.. التي تكدست أمامه في قبو قلعة پوناري.

صفّق ميخنا بكفيه في جذل.. كأنه صبي مُقبل على لعبة مسلية:

– ما رأيك؟ لا شك أنك قد سمعت الكثير عن أبينا. قائدٌ محنك.. أمير عظيم.. فارس.. سفّاح.. مجنون! لا يهم ما سمعت. لكني أراهنك أنك لم تعرف أنه كان مهندساً ومبتكراً كذلك!

"مهندس ومبتكر؟ لأيّ نوع من الآلات بالضبط؟"..

زاغت عينا أورهان بين المعدات الشيطانية محاولاً فهم استخداماتها، مستشعراً رجفة الهلع في أمعائه وداخل عظامه. ما رآه جعله يفكر في أن يتحامل على رجليه المعطلتين ويفرّ.

رأى مسننات من فولاذ وحديد. قيوداً وربطات من كل شكل ونوع. آلاتٍ مدججة بالأطراف الحادّة وبالشفرات، وبالتروس المنتهية بمغاليق ومحابس، بمقاسات ملائمة لكل أطراف الجسد. أسرّة من مسامير، وكراسٍ مقاعدها سكاكين وأشواك. عصياً وأسواطاً وفلقات حادة ومشرشرة، أحزمة ذات ألسن مشوكة للرقاب والمعاصم والكواحل، عصابات أعين ومفكّات أفواه من نفس

النوعية. سكاكين ونصال بشتى الأشكال.. للسلخ والتقطيع والتقوير والحفر.. لفصل الجلد عن اللحم، وفصل اللحم عن العظم، ولتفريغ العظم من النخاع.

رأى كمّاشات وكلابات ومبارد وأقفاصاً من حديد. مجامر وقدوراً هائلة، وهياكل تشبه تلك التي ينشر عليها الدبّاغون جلود الجمال المسلوخة. مناجل دقيقة لا تصلح لأيّ زرع أخضر. شواكيش ذات نهايات مدببة لا تصلح للدقّ بل للاختراق. مثاقب عريضة ولولبية، ثم صنانير وملاقط ذات نهايات معقوفة ومبرومة، لانتشال المحتوى من عمق الجسد. أمشاطاً من نحاس. حرّاثات إنما ليست للأرض. أزاميل إنما ليست للخشب. مناشير وأجهزة أعقد ذات مفصلات وزنبركات وتروس، شاهد مثلها عند الجراحين، لتوسيع الفتحات التي تحدثها المباضع، ولخلق حفر في الصدور والأحشاء.. ولأغراض لم يستطع أن يخمنها.

كان سيرصد أكثر من ذلك لولا أن قاطعه الدبّ الأحمق بالدو. استشعر الحيوان جو الذعر فراح يزوم متوتراً هو الآخر. هُيئ لأورهان أنه يسمع أصواتاً وخربشات من الزوايا المظلمة للقبو الفسيح. لم يعرف إن كانت تهيؤات أم مضاعفات إصابة أذنه؟

يأتيه صوت ميخنا مجدداً:

- أبونا صمم كل هذه الآلات. كان عنده شغفٌ باختبار قدرة الجسد البشري على التحمل. الخاوزق كان سلاحه الأثير حتماً، لكن مجال تجريبه كان ضيقاً. ما أن تبدأ العملية حتى تأخذ طريقها المحتوم نحو نهاية محسومة. فكّر أبونا أن يجري نصف خوزقة.. يأخذ الضحية

وفيها رمق ويراقب تفاعلها مع الحياة بعدما مرّ الوتد بها بدون أن يقتلها. لا نعرف إن كان قد جرّب ذلك مع أحد. كانت عنده الكثير من عينات التجارب؛ البويار.. الغجر.. وأسرى العثمانيين.. مثلك يا إفندي.

تطلع الأميران لبعضهما قبل أن ينفجرا في ضحكة من القلب.. كأيّ شقيقين يتبادلان النكات في يوم صحو. لاحظ أورهان أن ميخائيل بدا أكثر استقراراً وراحة بين جنبات هذا القبو المريع.. كمَن يعود لمرتع صباه.

قال له ميخنا وهو يتأمل في المكان بفخر:

- لم نعرف بمحتويات هذا القبو حتى أخذَنا إليه الغجر الذين استقبلونا من المنفى. صعدوا بنا أولاً لقمة الجبل ليدخلونا هذا الحصن، ثم نزلوا بنا لدركات القبو ليكشفوا لنا سر أبينا هذا الذي تراه؛ الإرث الذي خلّفه لنا كي نواصل رسالته ونسير على نهجه. صمم بنفسه كل آلات التعذيب هذه.. لنسمِّها آلات التطهير.. تطهر النفس من خبثها، وتطهر العالم من النفوس الخبيثة. ترك كتابات ورسومات مطوّلة لكل منها ولغيرها. قضينا، أنا وميخائيل، ليالي طويلة ندرسها ونفكك أسرارها.

يقترب منه الأمير الولاشي المخبول. ينظر لعينيه المغرورقتين بدمع الخوف والارتباك خلف السحجات وكتل الرضوض:

- هل تستوعب ما أقوله يا إفندي؟ هل تفهم ما فهمناه؟ لقد ترك لنا أبونا ذلك كله لغرض واضح. أرادنا أن نحييّ أسطورته. أن ننتقم له من كل من خانوه وخذلوه. لا يهم إن كان الكونت حياً أو

ميتاً. تلك مجرد شكليات دنيوية. الأهم أن تبقى ذكراه. أن نواصل الحرب وأن تبقى راية التنين خفّاقة في النفوس والقلوب مهما تطاول عليها العهد.

يواصل الدبّ بالدو الزوم ويدور حول نفسه أكثر. تبذل شيْلا جهداً مضاعفاً لتسيطر عليه. لدهشة أورهان لا يكترث له الأميران المخبولان ولا يبديان تذمراً من وجود دبّ.. دبّ!!.. في بلاطهما العجائبي هذا.

– عرفنا المطلوب يا إفندي لكننا لم نعرف كيف ننفذه. كيف نستفيد من هذا كلّه في نشر أسطورة دراكولا خارج أسوار بوناري. كيف نثأر لأبينا.. ولأمنا كذلك؟ كنا نعرف ما نريد.. لكن كيف نصل له؟ أخذَنا التدبير وقتاً قبل أن تتضح أمامنا الطريق واضحة جلية.

يتقدم ميخائيل بين المعدات المرعبة الموزعة على الطاولات والأرفف وأرضية القبو. يتناول أحدها برهبة وبمتعة تلمع حدقتهما في عينيه.

كتلة حديدية معقدة الأجزاء. ثقيلة كما يظهر من معاناته في حملها بيديه. يسير بها حتى يناولها لگواريل. يضع العملاق الغجري أورهان على الأرض ويتناول الجهاز الحديدي العجيب من سيده بيد واحدة. تنفر العضلات في ذراعه اليمنى التي يمسك بها الآلة الثقيلة.

يُدخل يده في تجويف بها،ويلف أصابعه الأربعة الكبرى حول ما يشبه الزناد المخبوء بين تروسها. تظهر أسنانه في ابتسامة تزيده بشاعة. يلوّح بالآلة التي باتت مثبتة بقبضته في الهواء.. فكأنها امتداد حديدي عملاق لذراعه. امتداد يبدو كنصفي دائرة منفرجين. يظن من يراه أنه جندي يحمل درعاً صغيرة على حوافها أسنان بارزة للخارج. تشبه فخاً لصيد الثعالب. لكنه فخ لا يكتفي بالإطباق على قوائم ضحيته.. بل يقصها قصاً.

بالمزيد من التحديق يفهم أورهان. كانا فكّين عظيمين.. مفتوحان ولهما أسنان طويلة مثلثة حدّها يجرح حتى الهواء الذي يلامسها.

تدور ذراع كَواريل العضلية الهائلة بالأداة الرهيبة فيخفق لها الهواء. يدفعها أمامه في فراغ القبو وتسحب أصابعه زنادها الداخلي فتتحرر الأقفال المشدودة وينطبق الفكّان على بعضهما في انغلاقة مدوية يتردد رنينها داخل القبو طويلاً. يحتقن وجه المارد الغجري وهو يبذل جهداً مضاعفاً ليسيطر على السلاح الثقيل الذي يكاد يفلت من يده.

يستمتع ابنا ڤلاد بكل ملامح الروع التي تكتسح وجه أورهان. يأخذان وقتهما في تأمله بانتشاء قبل أن يتكلم ميخنا:

- أقدم لك (حَنَك إبليس)! هذه تسمية من عندنا. حين قرأنا ملاحظات أبينا بشأن هذا التصميم لم نعرف إن كان يسعُ إنساناً أن يشغلّه؟ قضينا أشهراً في تصنيعه، واضطررنا للتخلص من كل الحدادين الذين ساعدونا في سبك قطعه. السريّة ضرورية في هكذا مهام وأنت خير العارفين. حين أنجزناه أمرنا أحد حرس التنين بأن

يلبسه في يده ويضغط زناده. ما أن فعل حتى انخلعت كتفه! التحكم به صعب جداً كما ترى. ثم تذكر أخي ميخائيل أنه شاهد غجرياً ذا خلقة استثنائية ضمن عبيدنا الرومَن. لقد خلق الربّ گواريل لأجل هذا الغرض. گواريل هو الإنسان الوحيد الذي يمكنه أن يسحب غالق الفكّين بدون أن تطيش يده وبدون أن تنخلع مفاصله. أما صوت ارتطام الحديد بالحديد فيكتمه طبعاً مزيج اللحم والعظم الذي سيعلق بينهما.

تحركت عينا أورهان بين وجوه الثلاثة؛ الأمراء ميخائيل وميخنا.. وگواريل الذي ما يزال (حنك إبليس) متدلياً من قبضته اليمنى.

"يهيأ لي وكأن أنيابه كانت في يديه لا في فمه. قد يبدو هذا خيالاً سخيفاً لكن الأمر كله لا يحيط به إدراك"..

هل كانت تتعمد استغفاله؟ أم توجه له رسائل مبطنة؟

گواريل هو دراكولا؟! هو النهّاش الغامض؟! وابن الشيطان العائد من الجحيم ليس سوى حديدة في يد مخبول؟ تخيله أورهان يتسلل عبر الأزقة في الليالي المظلمة، وعبر دهاليز قصور بوخارست وممراتها السرية التي يعرفها هو وجماعته جيداً. تخيله يقتحم على رادو بيك حمامه. ما الذي يمنع أن يسهل له الانكشارية المدسوسون المهمة؟ وما الذي يمنع أن يكون قد فعل ذلك بصحبة هذين الشقيين؟ يتخيّلهم يدخلون معاً على رادو بيك عبر باب سريّ بين جدران القصر الذي وضع تصاميمه أبوهم المهووس.. ويكررون ذلك مع المسكين دينيز. بسرعة خاطفة يسدد العملاق الفكين ناحية العنق

ويضغط الغالق. ثم بعضلاته الخارقة يسحبهما ليقتلع مزقة لحم بسعة حنك الشيطان.

يتكفل الأميران المتخفيان وتابعوهم بعد ذلك بنشر الإشاعات..

الكونت دراكولا عاد من قبره..

ابن الشيطان ينتقم من العثمانيين وأذناهم..

المخوزق رجع ليكوّن جيشاً جديداً من الموتى الأحياء! والويل كل الويل لمن عاداه أو حالف عدوّه.

مع الأيام تترسخ الفكرة بالمزيد من الضحايا. تتلقفها عقول الدهماء وألسن العامة وتضيف لها المزيد. تخلق عالماً شيطانياً مرعباً.

يقلّب أورهان عينيه بين الوجوه قبل أن يخرج صوته جافاً متحشرجاً:

- إذاً.. فابن الشيطان.. لم يكن سوى گواريل؟!

انقض عليه ميخائيل هذه المرة. أخذ بتلابيبه وانهال على وجهه بالصفعات. لا يملك أورهان أدنى قوة للمقاومة. يتلقى وجهه الضرب وتتلقى أذنه الصيحات الهادرة الغاضبة:

- لتلحق بك اللعنات أيها المأفون. أهذا أقصى ما وصل له فهمك؟ تنسب مجد أبينا لهذا العبد الوضيع. ابن الشيطان واقف أمامك أيها التركي الملعون. من أكون أنا؟ من يكون أخي ميخنا؟

نحن أبناء الشيطان وأحفاده. نحن سلالة عرش الدم على هذه الأرض. وسنستعيد مجد أبينا وتخضع لنا هذه الأرض مجدداً.

يلقيه على الأرض مجدداً وهو يلهث. ينتظر أورهـــان ظهـــور ملائكة قبض الروح.. ليس بعد.

يبلغ توتر الدبّ بالدو مبلغه. أصوات الكائنات الخفيّـــة مـــن الأطراف المظلمة تعلو وتتردد الآن واضحة جليّة. ويشاركها بالـــدو الصياح.. أو يبادلها عواء التهديد.

يلتفت ميخائيل ناحيته ويصيح به:

- اخرس أيها الدبّ الملعون!

تذهب محاولات شيْلا لكبح جمـــاح حيوانهـــا الأليـــف أدراج الرياح. يقف الدبّ على قائميه الخلفيين فارداً قامته المريعة. يفتح فاه الخالي من الأسنان. تظل لطمة واحدة من كفّه كفيلة بفضـــخ رأس ميخائيل كأنه بطيخة فاسدة. يصيح الدب مجـــدداً فـــيخبيء الأمـــير المخبول وجهه بين ذراعيه. كالبرق يندفع گواريل ويُـــري الجميـــع تطبيقاً حياً لطريقة عمل حنك إبليس. يلصقه بعنق الدب المكشـــوف ويضغط الغالق مجدداً.

"متى أعاد فتحه أصلاً؟" ..

ينطلق سائل الحياة القاني من عنق بالدو في نافورة نفاثة. يـــدور حول نفسه كالممسوس. جرح عنقه مخفيّ بين ثنايا الفراء الكثيـــف. لكن صوت زعيقه يختلط بالسوائل الدافقة منه، وبغرغرة روحه.

يجري الجميع مبتعدين عن طريقه وهو يتخبّط في رقصة موته الأخيرة مرتطماً بالجدران والمعدات وبأحد الجند فيطيّره بضـــربة

واحدة. ينكسر ظهر الجندي على الجدران الحجرية ويقع بلا حراك.

يتأمل أورهان ذلك كله وهو مستلقٍ كالمشلول في مكانه. لو أن الدبّ اتجه ناحيته لانتهى أمره خلال لحظات. لكنه لا يفعل.. تغادر الحياة جسده قبل ذلك.. ويظل أورهان حياً ليشهد المزيد.

لم ينتبه لصراخ شيْلا وعويلها إلى أن همدت جثة بالدو تماماً. تصرخ وتولول كالنساء أخيراً. لم يُبكها ما حلّ به هو وهاهي تفقد صوابها لأجل دابة عجماء.

ألقَت بنفسها على الجثة الهائلة الغارقة في الدم الحارّ وراحت تنتحب كالأرامل. رائحة الدم جُنّ لها جنون الكائنات الأخرى التي لا يراها أورهان لكن يسمعها.

يتمالك الأخوان نفسيهما. يطلق ميخائيل ضحكة جذلة.. كمن شاهد عرضاً مسلياً. أما ميخنا فيرّبت على كتف گواريل، ثم يتناول مشعلاً ويسير به للناحية المظلمة حيث يتعالى العواء النعيق.

يقشع ضوء الشعلة الظلام فيبصر أورهان الأقفاص المكدسة فوق بعضها. مليئة بالجرذان وبالخفافيش. يرى بضع طيور بوم وغرباناً كذلك. في أحدها ذئبٌ أسودٌ رهيب.. يدور حول نفسه بصمت لكن في عينيه نظرة كفيلة بشلّ من يحدق بهما.

"ما كل هذه الحيوانات؟ هل سيلقون بي للذئب؟"..

يشير ميخنا لها:

– هذه الوحوش هي جزء من مملكة الخوف التي نبنيها. جيش دراكولا الجديد ستشكله كل هوام الليل. جيش دراكولا فيه كل

جنود الشؤم والمرض. هل تذكر ما ذكرته لك عن الخفاش الذي ظهر لي يوم انتقمنا من عمّي الكافر رادو؟ كان ذلك حقيقياً وألهمني بأن أُلصق الخفاش بكل ظهورٍ لدراكولا. الناس باتت تصدّق ذلك الآن.

يعلو شهيق شيْلا. ما تزال تنتحب على صدر حيوانها الأثير.

يلتفتون لها كلّهم. أحقاً تبكي دباً ميتاً؟

يندفع ميخائيل نحوها ويسحبها من شعرها. يبدو للحظة أنها ستقاومه قبل أن تتراجع وتعيد التقدير. البغض اللحظي في عينيها ذاب وانقلب رعباً.

انهار ثباتها أخيراً. كل الجلَد الذي أظهرته، وقناع الثقة الزائف الذي لبسته طيلة أيام،كل ذلك يتهاوى الآن. إنها خائفة وضائعة. تعرف أن هؤلاء يمتلكون روحها، ويسعهم أن يفعلوا بها ما يشاؤون في أيّة لحظة. تعرف أنه محض تابعة.. وأن ادّعت غير ذلك.. وإن كذبت عليه لتقوده لفخ الخرافة.

"نحن يا هذا أحرار ولا نقبل لغيرنا سوى الحرية.. نحن لا نعرف العبودية ولا نمارس الاستعباد"..

يضحك ميخنا ويعلق على فعل أخيه:

- رفقاً بالجارية يا ميخائيل؛ فلجيش دراكولا سلاحٌ غير الخوف؛ سلاح الرغبة الحرام، سلاح الإثم، يسلّطه على أعدائه فيشلّ إرادالهم، يحولهم لعبيدِ الغواية وأتباع الهوى، يُدخل أحدهم في طاعة الشيطان الرابض بين جنبيه. وأيّة رغبة شيطانية أعظم من تلك التي تشعلها امرأة في جسد رجلٍ؟ هه! لدينا دليلان ها هنا. إفندينا الذي

طارت بصوابه غانية غجرية.. جرجرته وراءها عبر جبال الكاربات حتى أعتاب قلعة دراكولا.

يهزّ ميخائيل رأسه موافقاً، ويشدّ شعر شيْلا أكثر. تجزّ على أسنانها ومع ذلك تفلت منها صرخة ألم.

- عندي فكرة يا ميخنا. ما رأيك لو جعلنا لبلاط دراكولا حريماً.. مثل حريم السلطان العثماني؟ لكن حريم الكونت سيكنّ أجمل بلا شك. سيكنّ رمزاً للغواية. ولن يعرفن الموت أبداً.. لأنهنّ قد جرّبنه وانتهى الأمر!

تدوي الضحكتان في القبو.. مختلطتين بالعواء والصرير. تتردد أصداء ذلك كله في رأس أورهان، فيفقد تعلّقه بالواقع ويحس أنه يسقط في بئر بلا قرار. مع ذلك تواصل أذنه السليمة متابعة الحوار:

- هذه فكرة رائعة. لا بدّ لبلاط سيّد الظلام من حريم. وحبذا لو كنّ خدمنه في حياتهن.. قبل أن ينتقلن لفرعه الذي في العالم الآخر.

- تقصد هذه الساقطة؟ إنها لا تستحق إلا العقاب. لقد فشلَت يا أخي. ثلاثة أيام وهي تتعهر لهذا التركي وتقدم نفسها له المرة تلو الأخرى بدون أن تنجح معه. وعوض أن تجعله يقتنع ويؤمن برجعة الكونت، قادته بغبائها لكشف كل التفاصيل. لا يعتمد على النساء إلا الخائب.

- ماذا ترى إذاً؟ نعاقبها؟ أم نضمها لحريم دراكولا؟

- أنا أقول.. نفعل الاثنين معاً.

بين المزيد من القهقهات اتجه ميخنا لكومة معدّات أبيه مجدداً. تناول منها قفصاً كروياً بحجم البطيخة.. له فتحة دائرة كبيرة بقاعدته.

– تأملّ جيداً يا إفندي. لقد شاهدنا أبانا يطبّق هذه العقوبة حين كنا صغاراً.

تلقف ﮔواريل الفتاة من سيده الثاني. حاولت شيْلا أن تقاوم فصفعها العملاق على جانب وجهها بظاهر كفّه. دارت عيناها وكادت تفقد الوعي.. لكنها لسوء حظها لم تفعل.

أجلسها الغجري اللعين عنوة على كرسي المسامير. دوّت من أعمق أعماق صدرها زعقةٌ ناطقة بالألم. لم تلبث خيوط الدم الرفيعة أن تحدَّرت على قوائم الكرسي. ربّطها إليه بسيور من جلد.

أخذ ميخنا قفازاً مصنوعاً من حلقات زردٍ معدنية ولبسه في كفّه اليمنى. مدّ يده داخل أحد أقفاص الحيوانات، وبمتعة بالغة استخرج كائناً منها. احتاج أورهان لبرهة كي يدرك كنهه.

كان جُرَذاً مريعاً بحجم قط. يتلوى بين الأصابع المغطاة بالزرد ويغرس فيها قواطعه بلا جدوى. قبض عليه ميخنا ولوّح به أمام وجه شيْلا فاستخرج منها صرخة هلع أخرى. لمعت عيناه بمتعة محضة.

نظر أورهان ناحية الأخ الثاني، ميخائيل، فوجد يده تعبث داخل إزاره. على وجهه أعتى تعابير الانتشاء بما يحصل وما سيأتي.

"ذرّية ملعونة مريضة.. بعضها من بعض"..

تأكد ميخنا من أن أورهان يتابع المشهد قبل أن يُصدر تعليماته لﮔواريل. مدّ العملاق يده لخصر شيْلا. استخرج من تحت حزامها خنجرها الصدئ الذي وضعته تحت ذقن أورهان يوماً.

بدون أن تهتز يده مرر النصل عبر وجهها كلــه. مــن فــوق الحاجب الأيمن إلى شحمة الأذن اليسرى. صنع جرحاً بعرض الوجه. هدَرَت شيْلا أكثر.. بصياح لا يسمع المرء مثله إلا مــرةً في العمــر. صياحٌ لا يمتّ لعوالم الألم، إنما يجسّد إحساس اللوعة والفقد. صــار وجهها الآن مغطى بالدم.. وصار مشوهاً.

ما عادت المرأة التي كانت.

تناول گواريل القفص. فتحه من المنتصف فصنع نصفي كُرة أحاط بهما رأس شيْلا.. الدامي المشوّه. أحكم إغلاق القفل على عنقها عبر مفصلات وأبازيم دقيقة. صار وجههــا الآن محجوبــاً خلف شبكة كثيفة من الأسلاك. لكنها لم تتوقف عــن الولولــة للحظة.

اكتشف أورهان أن للقفص باباً صغيراً في أعلاه. عرف ذلــك حين فتحه گواريل والتفت لسيده الذي ما يزال الجرذ يتلــوى بــين أصابعه.

تقدّم ميخنا.. تطلّع لأورهان بابتسامة متشوقة وقال:

- هل تعرف بأن الجرذ المسكين لم يأكل شيئاً منذ أيام؟

ألقى به داخل فتحة القفص. أغلق الباب الصغير بصعوبة بالغة. فرأس شيْلا راح يهتز بجنون في كل اتجاه. صراخها صار حيوانيــاً.. امتزج بأصوات المضغ والقرض.. وبالصيحات الرهيبة التي تطلقهــا بقية الحيوانات الأسيرة.

ترددت بين جدران قبو يوناري معزوفة بهيمية تصدح بنداءات الغرائز الأولى.. الخوف والجوع والألم، في صورها البكر القاسية.

صرخت شيْلا بكل صوت.. عَوَت ونبَحت وزأرت.. فيما الجرذ الجائع يتغذى على لحم وجهها. صراخها المريع اختلط بضحكات ميخنا.. وبتأوهات متعة ميخائيل. أما أورهان فانفجر باكياً.. بكى بلوعة وذعر طفلٍ ألفى نفسه وحيداً في غابة غيلان.

من بين الأصوات المتداخلة وصلَته صرخة شيْلا الأخيرة. يزعم أنه سمعها تصيح بآخر أنفاسها:

- سامحنيييي!



-22-

سكنت جثة شيْلا أخيراً. واصل الجرذ التخبط فيما حوله باحثاً عن مسرب يعيده لعوالم الظلام. أنشبَ قواطعه في الأسلاك المعدنية، وحفر بمخالبه في الوجه الميت.. بلا فائدة.

من موقعه اللصيق بالأرض،نسي أورهان فمه مفتوحاً. ترك ذيول النواح تتسرب منه. خنقته قسوة الجفاف ممزوجة بملوحة الدمع. تنبّه أخيراً للألم الفظيع في حلقه. لا شك في أنه قد صرخ كثيراً.. فتح فاه لأقصى اتساع كي يُفرغ كل ما عنده من عويل. تلوّت ملامح وجهه مروراً بكل تعابير المعاناة.. متفرجاً بلا حول ولا قوة على مشهد موت شيْلا.. البطيء والمهول.

قتلها جُرذٌ واحد. أكلَ وجهه البديع أكلاً! جنديٌّ صغير في جيش دراكولا الناشئ.

لم يتحرك ميخائيل وميخنا حتى همدت الجثة تماماً. بقيت ابتسامات النشوة المريضة على وجهيهما. هرب أورهان بعينيه بعيداً. أغمضهما فتعلّقت حواسه بالأصوات والروائح. رائحة جثمان الدبّ بالذات جعلت التنفس شبه مستحيل، وحوّلت الذئب الحبيس لوحشٍ مسعور تلمع عيناه كجمرتين في الظلام، ويوشك أن يحطم قفصه.

– ها قد نفذنا العقوبة يا أخي ميخنا.

– قد فعلنا يا أخي ميخائيل. والآن.. حان وقت زفّ العروس للحريم الدراكولي.

من وراء جفونه المطبقة، دعا أورهان الله أن يأخذ روحه الآن. ما عاد قادراً على تحمّل المزيد من آلام النفس والجسد. عقله ما عاد قادراً على الصمود مقابل نزوات هذين المجنونين.

ودَّ لو يرسل شُعاعاً من روحه ليعبر الفضاء بين الروملي وإسطنبول.. يطير لأرض الشمس والنور، ويمْثُل بين يديّ مولانا السلطان لمرة أخيرة، يُعلمه بما يجري هنا، بما اكتشفه أورهان الذي لم يتخلَّ عن شرف مسؤوليته للحظة. ويرجوه، يرجو مولانا الجالس على عرش الدنيا، لأن يرسل جيشه النوراني كي يجتثّ شجرة هذين المخبولين الشيطانية. وحدُه سيفُ العدل السلطاني كفيلٌ بقطع هذه العِرق الإبليسي. سيترجّى مولانا لأن يخوزقهما.. هما وهذا العملاق البشع المختلّ.. أن يسقيهما من نفس الكأس التي أذاقا القوم منها.

الدمُ مقابلُ الدم. النارُ لا تغلبُها إلا النار!

لن يشفي جروح روحه.. لن يردَّ اللون لشعره الذي شاب في ساعة واحدة.. سوى رؤية شياطين الإنس هؤلاء يدفعون ثمن جرائمهم وجرائم أبيهم من قبلهم.

ذاك هو مبدأ العدل.. الذي عليه تقوم السماوات والأرض.

"السماوات والأرض!

السماوات.. والأرض؟!

كم هما فسيحان وهائلان..

حافلان بالإنس والجن والملائكة. بالطير والوحوش.. بالحيتان والهوام.. بآلاف آلاف الأنفُس من البشر.

عوالم بعضها فوق بعض.. ما تراه بعينيك وما يغيب عن حسّك..

كم نفساً تُزهق الآن عبرها؟ كم نفساً جديدة تتكون؟

لماذا تظن يا مسكين.. أن ما يجري على قمة هذا الجبل المنسيّ.. له أدنى قيمة في موازين السماوات والأرض؟

لماذا يكون لكل الدماء التي سفكها أبناء دراكولا.. وللدماء التي سالت من وجه شيْلا.. ولدمائك أنت.. لماذا يكون لأيٍ من ذلك أدنى أهمية في سيرة الخلق؟

وأيّ انتقام تنتظر أن يوقعه مولاك السلطان؟

أيّة عدالة سيأتي بها معه؟ المزيد من الدم؟ المزيد من الخوازيق؟

هل كان السلطان سيتردد في استخدام ذات أسلحة ابن الشيطان.. ليحق بها الحقّ الرباني؟!

الدمُ مقابلُ الدمِ.. والنارُ في مواجهة النار!

... ...

كلام فارغ! خواءٌ بشري محض.

بل شرٌّ حقيقي.. لا يجيد اختلاقه إلا ابن آدم.

وحده ابن آدم.. يصنع فرقاً بين خازوقين.. خازوق البغيّ.. وخازوق العدالة!

الشيطان جالسٌ فوق عرشه.. يضحك ملء شدقيه المفعمين بالخبث..

ما كان لي من ذنب.. إلا أن دعوتكم.. فاستجبتم لي.

الشيطان لم يقتل شيْلا.. الشيطان لم يُعر حنَكه ليد گواريل.. ولا رسم تصميمها لدراكولا المخوزق.

الشيطان لم يسفك دم أحدٍ بيده.. ولا سرق مال أحد.. ولا اغتصب حقَّ أحد.

الشيطان.. لو كان له أن يفعل.. لاستعاذ بالله من شر بني آدم..

الذين اختلقوا له ابناً منهم..

ثم ألصقوا كل آثمه به هو!"..

أخذ گواريل بتلابيبه. حمله بيد واحدة وألقاه على كتفه اليسرى. على الكتف اليمنى كان جثمان شيْلا.

تلاقا وجهاهما خلف ظهر العملاق الذي خطى بهما خارج القبو وراء سيديّه.

وجه شيْلا يقطر دماً ولحماً. إحدى عينيها اختفت، والثانية جاحظة غضباً بعدما قُرض الجفن الكحيل الذي كان يغمرها. اختفت أيضاً أجزاء من الشفاه التي كانت له قبل ليلة. هكذا برزت الأسنان.. الدم القاني غطاها.. لكنها ما تزال نضيدة. اللسان يكاد يتدلى من بينها في ابتسامة ساخرة أخيرة.

وجهها مقابل وجهه تماماً. ليس بينهما إلا شبران أو أقل. يهتزان مع وقع خطوات ݣواريل على السلالم الحجرية.. صعوداً لقمة حصن پوناري.

جسدان أحدهما ميت.. والثاني مفرغ من معاني الحياة.

أغمض عينيه مجدداً ليتجنب المنظر المريع. أغرق نفسه في ظلمة الخواطر. حاول تخيّل النهاية التي يدخرونها له.

لم يلبث الهواء البارد أن اقتحم صدره اقتحاماً. خرجا من الأنفاق. صارت السماء الملبدة فوقهم. اختفى وهج المشاعل في يد الجند ودخانها الذي كاد يخنقه.

رماه ݣواريل على الأرض مجدداً. تركه مبتعداً بخطوات وئيدة. شِيْلا ما تزال معلقة على كتفه اليسرى. وقف إلى جوار أسياده على حافةٍ صخرية ليس فوقها ولا تحتها شيء.

تأملّ الأميران المخبولان في الأفق أمامهما. نظرا بعيداً لجبال الكاربات الممتدة بلا نهاية. تحت قدميهما انتشرت ترانسلڤانيا لآخر المدى. من يقف هنا لا بد وأن يحسّ بأنه على قمة العالم.

رفع ميخائيل، الأكثر خبالاً بين الاثنين، ذراعيه في الهواء وصاح:

- Mama, tata, iată sacrificiul vostru, acceptati-l în imperiul vostru etern[1].

أنزل ݣواريل الجثة من على كتفه. أمسك برجليها، صار جسدُه بينهما.

---

1 أمي، أبي، ها هو قربانكما. تقبّلاه في مملكتكما الأبدية.

يخفق قلب أورهان.. يتزلزل بانتظار ما سيقع. لكن العملاق يخالف ظنه.

يطبق گواريل على كاحليّ شيْلا بأصابعه، ويدور بها حول نفسه في الهواء. يدور مرّة.. مرتين..

ذِراعاها ترفرفان كأطراف مروحة، رأسها يتقلّب في كل ناحية ملقياً نظرة وداع. عند الدورة الثالثة يفلتها مُطوحاً بها لما بعد الحافة الصخرية. تطير في الفراغ قبل أن تهوي من فوق قمة يوناري إلى قاع الوادي البعيد.

ينظر أورهان لكل ذلك. يتخيل نفسه مكانها. يتخيل رجليه بين قبضتي گواريل.. وجسده سابحاً هو الآخر بين الأرض والسماء.

لا يتأخر عنه الغجري. يتقدم نحوه ويسحبه من قميصه. يرفعه من رجليه رفعاً، وعوض أن يطوّح به، يقف به على الحافة الصخرية حاملاً إياه بالمقلوب. تمتلئ عينا أورهان بالدم لكن بصره يتعلق بالمنظر المريع. تتجمد الصرخات في حلقه. يعاني لينطق بأيّة آية قرآن، ويتشهد عشر مرات وهو يقيس بُعد الأرض عن عينيه. يظهر له نهر صغيرٌ متعرج كالأفعى عبر العمق السحيق.

"أين هو جسدها؟ هل وصلت للقاع بهذه السرعة؟" ..

يتراجع به گواريل للخلف. يفلته ليتكوم على الأرض مبتلعاً روحه التي ترنحت على مشارف الحلقوم.

إنهم يلعبون به. يدرك أن ميتته لن تكون مباشرة ولا سريعة.

تقدم ميخنا لطرف الحافة الصخرية حتى انقطعت الأرض من تحت أصابع قدميه. أرخى نظره مستكشفاً الغور السحيق. وراءه

يقف ميخائيل يقضم أظفاره ويتأمل ظهر شقيقه. يكاد أورهان يقسم بأن نفسه تحدثه بأن يمدّ ذراعيه ويدفعه!

يلتفت ميخنا ناحية أورهان،متطلعاً له في كُره هذه المـــرة. الآن وقد جعله يرى كل ما عنده، الآن وقد اقتربت لحظة النهاية، ظهـــر الكُره الصرف في عينيه. لا داعي لأيّ أقنعة ولا مناورات.

- هل رأيت النهر الذي في أسفل الوادي؟ هل تعرف اسمه؟

يواصل أورهان التشهد. رآه ولا يعرف اسمه. ما ضرورة هـــذا الحوار الأخير؟ لماذا لا ينهون الأمر؟ أم أنهـــم يتعمـــدون التطويـــل؟ يتقصدون تأخير المحتوم؟

- اسمه نهر آرگيش. هذا الفرعُ منه بالذات يُعرف بنهر الأميرة. أتدري أيّة أميرة؟

يقرّب الأمير ميخنا بن ڤلاد وجهه من أورهان. يخرج صوته من بين أسنانه:

- الأميرة جوستينا.. زوجة الكونت ڤلاد دراكولا. أمنّا الـــتي قتلها جيش سلطانك.. أمنّا التي قتلها عمّنا الملعون رادو بنفسه.

أراح أورهان رأسه على الحصى الخشن. ترك الـــريح البـــاردة تسفّ التراب والقذى في وجهه. قرر أن يخلـــد للراحـــة في هـــذه اللحظات الأخيرة.

إن النهاية قريبة لا محالة. يستشعرها تعدو نحوه فلا يستعجلها.

ميخنا الولاشي يواصل الثرثرة. يحسب أنه يمد في عمره ويؤخر أجله. يحكي قصة أخرى تفسّر سرّ الخبال الذي عبث بعقليّ هـذين السفّاحين، وبعقل أبيهما من قبلهما. يسرد له حلقة في مسلسل الدم الذي كوّن قصة دراكولا المخوزق.

حكايةٌ ثانية تضاف لأصل الخرافة. تتناقلها الأجيال لتبرر بها رجعة المخوزِق من العالم الآخر:

– ما زلتُ أرى المشاهد وأسمع الأصوات، أتـذكر الأحـداث وكأنها وقعت البارحة، لا قبل عشرين عاماً. جيشكم العثماني يمـلأ بطن الوادي[1]. جنودكم يغطّون سفح هذا الجبل فكأنهم جحافل نملٍ تتسلقه. قذائف المدافع تنهمر علينا. تكاد لا تخدش الجدران المتينـة، لكنها تزعزع قلوبنا. الرجفة تزلزل أبداننا التي لم تعرف طعاماً لأيام. هنالك كنّا نحن؛ صبيَّان صغيران نسيا قسَم التنين، أو ما عادا يكترثان له. أرجعهما الخوف طفلين يبحثان عن الأمان في حضن أمهما الـتي ضاقت بها الدنيا.

طال حصار الأتراك للحصن أشهراً بدون أن نعرف شيئاً عـن أبينا. هل قُتل؟ أُسر؟ أم نجح في الإفلات ليجمع جيشـاً آخـر؟ لم نعرف وقتها أنه قد فرّ لبلاط المجر.. وأن الملك ماتياس قد غدر بـه. خشي طموحه وخشي نقمة التُرك فقرر أن يرميه في السجن. هكذا تُركت ولاشيا لقمة سائغة للسلطان.

عرفنا ذلك كله حين شقَّ سهمٌ الهواء. عبَرَ نافذة مخـدع أمنـا وانغرس في الأرض أمام أعيننا المرعوبة. التصقنا بها وأبصارنا معلّقـة

1 حصار 866 هـ – 1462م.

بالسهم، وبالرقعة المربوطة به. أصغرُ من أن تحـوي شـيئاً يؤكـل. فتحتهَا أمنّا وقرأهَا. كانت رسالة من قائد جيش الترك.. من عمّنـا رادو.. رادو بيك!

رادو بن ڤلاد الثاني يحمل راية السلطان التركـي.. يحاصـر قلعة أخيه الكونت ڤلاد الثالث.. يجوّع ذريته عمـداً ويضـطره لاستجداء النصرة كالطريد! وتقولُ لي بـأن سـلطانك لم يبـدأ الغدر؟ لاشك بأن عظام جدّنا الدراكول كانت تتقلب وقتـها في قبره.

أخبر الكافر رادو أمّنا في الرسالة بمصير الكونـت. أفهمَهـا بأنها صارت الآن المسؤولة عن جيش التنين. طلب منها أن تأمرهم بالتسليم. قُضي الأمر! وعدها إن تعاونَت أن يكفل لهـا عيشـة كريمة في الحريم السلطاني بالقسطنطينية.. وإلا فإنه سيقتحم القلعة عنوة، وسيعلّق كل جنودها على الخوازيق، وسـيبدأ بنـا نحـن الاثنين.

أذكُر وجه أمي تماماً يا هذا. ويذكره أخي ميخائيـل. نـذكرُ عينيها الغائرتين وشفاهها الجافة. نذكر أنفاسها العابقة برائحة الجوع والذعر. ونذكرُ صيحتها الأخيرة جيداً. كنا أنا وميخنا نحتضن بعضنا ونرتعد وهي تمزق رسالة رادو. صرخت بآخر أنفاسها "أموت الآن ولا أعيش لحظة تحت ظل تركيّ".

في خطوتين ألقت بنفسها من النافذة.. ذات النافذة التي جـاء منها السهم. ألقت بنفسها من فوق الجبل إلى النهر الذي صار يحمل اسمها؛ نهر الأميرة جوستينا. هذا النهر أيها التركي اللعين شاهد على

عهد الدم بيننا وبينكم. كل ذرة هواء في ترانسلڤانيا.. كل شجرة في ولاشيا.. كلها تكرر كل يوم عهد الولاء لسيدها الحق.. أبينا دراكولا.. وعهد الثأر لأمنا.. وعهد الانتقام لكل ساعة ذُلٍ عشناها بسببكم.



-23-

وقف ابنا دراكولا عند رأسه. من ورائهما انتصبت هامة گواريل.

العملاق الغجري طال انتظاره ونفد صبره. يوشك أن يمزق لحمه ويطحن عظامه. ليس بانتظار أكثر من إشارة من أحد سيديّه.

يقترب ميخائيل من أخيه. يلتصق به ويريح رأسه على كتفه. تلتف ذراعا ميخنا حول شقيقه وتمتد أصابعه لتربت على الشعر الأشقر القصير. وحشان بشريان.. ما زالا يعايشان كوابيس الصبا.

– لقد أردنا أن نجعلك مبعوثنا بسفارة الرعب، لكنك فشلت يا هذا. خيبت رجاءنا فيك. والآن حقَّ عليك العذاب. ستُعاقب وستوفي دينك. سيكون عقابك هو ردنا على السلطان الذي أرسلك وعقد عليك أمله الفاشل. سيكون موتك رسالة دراكولا للعالم، من قلعته في ترانسلڤانيا بالذات. وعوض عن أن تهدم الأسطورة.. فستكرّسها أكثر.

يصل لأذن أورهان وقع الأقدام الكثيرة. يظهر له المزيد من جنود التنين آتين من جوف القلعة. يحملون على أكتافهم الخشبة الطويلة التي عرفها ما أن أبصرها. أشبه بوتد الخيمة، ذات نهاية دقيقة.

كيف وصفتها له شيْلا؟

"ليست مدببة ولا حادة.. أطرافها مفلطحة ومبرومة بما يكفي.. يغمرونها بالزيت الزلق.. تلك أقصى رحمة ينالها المتخوزق"..

- كنا نعتقد أن دمّ رادو بيك قد محا ثأرنا. حسبنا أن رأسه هو درّة تاج دراكولا. لكننا كنا خاطئين. أنت! أنت يا مبعوث السلطان ستكون درّة التاج! سننصبك هنا كالشاهد على قمة پوناري. سنصلبك هنا كي تراك ترانسلڤانيا كلها. نصلبك؟! أيّ صليب؟ هه! إن الخازوق يشبه حقاً شارة التوحيد. لتكُن هذه رسالتنا لسلطان المسلمين إذاً. وليكُن ذلك إعلان عودة جيش التنين. فليفهم محمد بن مراد ما يشاء. حين يصله خبرك فستكون جثتك أنت بالذات قد رسَّخت أسطورة المخوزق إلى أبد الآبدين.

تيبّست أطراف أورهان.

تجمّد الكلام في حلقه وشخَصَت عيناه للسماء.

كيف غابت هذه الخاتمة عنه؟ كيف توقع سواها؟

أيّة رسالة من المخوزق أبلغ من هذه ليوجهها للفاتح؟

ينقض عليه جنود التنين.. يجردونه من إزاره ويثبتون وجهه بالأرض.. يباعدون بين رجليه.

يندهش حين يسمع أصوات همهمة، مزيجاً من نشيج وحشرجة، تخرج من حلقه بدون إرادته.

يصل سمعه كذلك صوت السائل الكثيف.. الزيت المندلق على طرف الوتد.

يتخيّل النظرة في عيني گواريل الواقف خلفه، يتخيّلــه حــاملاً الخشبة ليصوّبها ناحية الموضع حيث ستبدأ العملية، لتأخــذ طريقهــا المحتوم نحو نهاية محسومة.

قد ينتهي الأمر خلال ساعات..

وقد يستمر ليومين..

تُرى.. هل يظل المتخوزِق واعياً حتى النهاية؟

هل يسعه أن يفكّر ويقرر.. ويتأملَ في حاله ومــا كســبَت يداه؟

تمّت

كِنگستُن، أونتاريو

في شعبان 1433هـ – يوليو 2012م